

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جامعة اليرموك

كلية الآداب

قسم اللغة العربية

تحليل الخطاب الجدلي في القرآن

"دراسة في لسانيات النص"

إعداد

أحمد محمد ذيب أبو دلو

إشراف

أ.د. يوسف أبو العدوس

آب ٢٠٠٢

تحليل الخطاب الجدلي في القرآن

"دراسة في لسانيات النص"

إعداد

٥٥٧٣٦

أحمد محمد ذيب أبودلو

ماجستير لغة عربية (لغة ونحو) / جامعة اليرموك، ١٩٩٢

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها من جامعة اليرموك،

تخصص لغويات تطبيقية

لجنة المناقشة

أ.د يوسف أبو العدوس رئيساً

أ.د نهاد الموسى عضواً

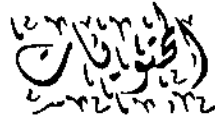
أ.د عفيف عبد الرحمن عضواً

أ.د فوزي الشايب عضواً

أ.د فواز عبد الحق عضواً

أهلاً بك عائلاً

إلى من صاغا حروف كلماتي الأولى ... ونسجا خيوط نصي الأول ...
مداد الحب وسراج العطاء ... أبي وأمي ...
رجعاً لابتهالهما ... وجزاءً لصبرهما الطويل ...
إلى من تحملت فوضى التلميذ ومساوئه ... وتنازلت لي عن كثير ...
الزوجة والحبيبة ... أم نور
وفاءً لعهد الحب ... وتقديراً لأيام الصبر وتحمل الأعباء ...
إلى فرح الروح ... وأغنية الفجر ... التي بدأ معها للحياة تأريخ جديد ...
جنّتي نور ... عشقاً لشقاوتها البريئة وشوقاً لعبثها الطفولي بأوراق ...
إلى رفاق أيامي الأولى بأفراحها ومعاناتها ...
إخوتي وأخواتي ... إخلاصاً للذكريات الرائعة ... أملاً بأيام قادمة أجمل
إلى اليرموك الأم ... تجديداً لعهد الانتماء والصدقة ...
وحنيناً لماضٍ لن يغيب ...



الموضوع	الصفحة
إهداء	ج
الملخص باللغة العربية	ح
تقديم	٨-١
الباب الأول: لسانيات النص: المفاهيم والمبادئ والاتجاهات	٧٦-٩
من نحو الجملة إلى تحليل الخطاب	١٠
مدخل	١٠
النحو من الجملة إلى النص	١١
النص: مفهوم النص والنصية	١٤
نحو النص	٢٢
مبادئ نحو النص	٢٣
اتساق النص / الخطاب	٢٤-٥٤
علاقات الاتساق	٢٨
الربط التركيبي	٢٨
الإحالة	٣٣
المقارنة	٣٧
الاستبدال	٣٧

٣٩	-----	الحذف
٤٢	-----	الاتساق المعجمي
٥٥-٦٦	-----	انسجام النص / الخطاب
٥٩	-----	علاقات الانسجام
٦٢	-----	البنية الكلية للنص
٦٦-٧٦	-----	تحليل الخطاب
٧٧-١١٥	-----	الباب الثاني: استكشاف التراث
٧٨	-----	تحليل الخطاب في تراث المتقدمين
٧٩	-----	الإشارات النحوية
٩١	-----	التراث البلاغي وتحليل الخطاب
١٠٤	-----	النص القرآني وتحليل الخطاب
١١٦-٢٨٢	-----	الباب الثالث: ممارسة نصية تطبيقية
١١٧-١٣٨	-----	الفصل الأول: الجدل القرآني
١١٧	-----	تمهيد: مفهوم الجدل
١٢٢	-----	الأشكال اللغوية للجدل القرآني
١٣٩-٢٢٧	-----	الفصل الثاني: تحليل خطاب الجدل القرآني
١٣٩	-----	تمهيد:
١٤٣	-----	التماسك النصي في الخطاب القرآني
١٤٣	-----	الربط التركيبي

١٦٠	-----	الربط الإحالي
١٦١	-----	الإحالة الضميرية
١٧٦	-----	الإشارة
١٨٣	-----	الإحالة المقامية
١٨٦	-----	العلاقات المعجمية
١٨٦	-----	إعادة العنصر المعجمي
١٩٣	-----	علاقات التضام (الحقل الدلالي)
٢٠٢	-----	اختزال الخطاب
٢٠٦	-----	الاختزال بالحذف
٢١٧	-----	الاختزال بالتعويض
٢٨٢-٢٢٨	-----	الفصل الثالث: النص نسيج
٢٢٩	-----	سورة الشعراء نموذجاً للتحليل النصي
٢٣٠	-----	موقع النص على خريطة الخطاب القرآني
٢٣٥	-----	التحليل النصي (علاقات التماسك النصي)
٢٣٨	-----	القسم الأول (المقطع الأول)
٢٤٣	-----	شبكة العلاقات وبؤرة النص
٢٦١	-----	القسم الثاني: المقطع الثاني
٢٦٣	-----	النسيج النصي بين المقاطع من الثالث إلى الثامن
٢٦٧	-----	القسم الثالث (الأخير): دوران النص
٢٦٩	-----	التوازي وتنامي النص

- ٢٧٢ ----- التناس الداخلي (قصة موسى نموذجاً)
- ٢٧٧ ---- إشكالية التتويجات السياقية في النص (القصص القرآني: قراءة أخرى)
- ٢٨٣ ----- خلاصة
- ٢٨٧ ----- المصادر والمراجع
- ٢٩٤ ----- الملخص باللغة الإنجليزية

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ملخص

تطيل الخطاب الجدلي في القرآن

"دراسة في لسانيات النص"

إعداد

أحمد محمد ذيب أبودلو

دكتوراه لغة عربية، لغويات تطبيقية، جامعة اليرموك، ٢٠٠٢

إشراف

أ.د. يوسف أبو العدوس

يحاول البحث تقديم إطار للإجابة عن تساؤلات تتصل بالحاجة إلى معاودة قراءة النصّ القرآني بوصفه نصّاً منفتحاً يسمح بتعدد القراءات والأفهام لاستكشاف الكائن فيه للوصول إلى كل ممكن لا ينكره النصّ .

ولذلك فإنّ البحث يتعامل مع النصّ القرآني من جهة كونه نسيجاً محكماً تتماسك عناصره وأجزاؤه وتمتد خيوطه في كلّ اتجاه في نظام دقيق منطلقاً من بؤرة النصّ التي تمثّل المحور أو المركز الذي تدور في فلكه دوائر النصّ في انساق وانسجام . وليست الدراسة -بذلك- تهدف إلى التوصل إلى أنّ القرآن نصّ منسجم ، فنثبت -بذلك- الثابت له ، وإنما الغاية فهم القوانين والعلاقات التي أدت إلى الانسجام . وحاولت الدراسة الكشف عن أهمّ مبادئ علم لغة النصّ ومفاهيمه واتجاهاته بوصفه أحدث العلوم اللسانية - نسبياً- التي تتخذ النصّ موضوعاً وهدفها.

وتناولت الدراسة مسألة الانتقال في البحث اللساني من نحو الجملة إلى نحو النصّ تحرراً من قيد النحو التقليدي الذي اختزل وظيفته في دائرة " قل ولا تقل " الضيقة ، وإعلاناً عن الحاجة في التحليل النصّي إلى منهج نحويّ ينسجم مع جوهر وظيفة اللغة الاجتماعية ودورها

الاتصاليّ بمراعاة الأبعاد الدلالية والتداولية (البراغماتية) في النص فضلاً عن دراسة المستوى التركيبي .

وكان لا بدّ للدراسة - وهي تعرض للجهود اللسانية في حاضر علم لغة النص - أن تناقش أهم المبادئ التي تأسس عليها ، ولذلك اهتمت بمبادئ نحو النص وعلاقات التماسك النصّي وأدواته التي تكشف آليات انسجام النص وتَشكُّله نسيجاً مترابطاً ، مع محاولة استكشاف التراث اللغويّ واستنطاق مكنوناته بحثاً عن إضاءات أو إشارات تسهم في صوغ ملامح أو إطار اللسانيات نصّ عربيّة - إن صحّ التعبير - .

أمّا الجانب الأهمّ في الدراسة فتتمثله الممارسة النصّيّة التطبيقية التي حاولت الكشف عن قوانين التماسك النصّي وعلاقاته في مقاطع نصيّة من خطاب الجدل القرآني . كما أن هذه الدراسة التطبيقية حاولت التعامل مع نموذج قرآني يمثل نصّاً كاملاً (سورة الشعراء) لاختبار مظاهر انساقه وانسجامه التي تسهم في إنتاجه كلاً واحداً . وقدمت الدراسة منهجاً مقترحاً يعين في التعامل مع النصّ القرآني -القصص نموذجاً- يتأسس على ربط جميع مقاطع النصّ ببؤرته بحيث يكون كل جزء فيه منسجماً مع مقصده الأساس، وبذلك نفهم النصّ بعلاقاته اللغوية والدلالية، غير متأثرين باستقصاء الحقائق التاريخية التي تقيد حركة النصّ .

تقديم

تتصل فكرة البحث، منذ الولادة فكرة، بشعور قوي وتنامي في نفس الباحث بالحاجة إلى إعادة قراءة النص القرآني بوصفه نصاً منفتحاً يسمح بتعدد القراءات والأفهام واستكشاف الكائن فيه للوصول إلى كل ممكن لا يَلْفَظُهُ النص. وأسارع في البدء إلى توضيح أن القول بضرورة إعادة القراءة لا يعني بحال الحكم على عجز السابق أو الإشارة إلى خطأ الأفهام الأولى، بل الأمر خلاف ذلك؛ إذ يبدو النص - وفقاً لما طرحه - متجدداً مستمر التفاعل مع المتلقي في كل زمان، وتقدم كل قراءة جانباً من المعنى اللانهائي للنص.

وانسجاماً مع هذه النظرة إلى النص، يتحول إلى ميدان معرفي مميز للفكر، ويغدو هسو ذاته المرجع، لا الواقع الذي مثله في مرحلة تشكله الأولى حتى اكتماله نصصاً، وبذلك تبرز مشروعية معاودة قراءته، إن لم تكن ضرورة يدعونا النص إليها بنفسه، وبذلك - أيضاً - نفهم لانهائية النص وصلاحيته في كل زمان، رغم انتهاء الواقع الأول الذي ارتبط به النص.

وتزامنت فكرة البحث مع تساؤلات حول كيفية انبناء النص وانسجامه والآليات التي شكلته نصاً مترابطاً وقوة مبدعة مؤثرة في واقع التلقي، فأتجهت الدراسة - للإجابة عن ذلك - إلى بحث أدوات الترابط النصي في الخطاب القرآني، لا لتوصل إلى أن النص القرآني منسجم، فنثبت - بذلك - الثابت للقرآن، وإنما لنفهم الكيفية التي توافر بها له الانسجام، فنقرأه قراءة صحيحة تتحلّ بها إشكالات تنتج عن تعذّر (أو صعوبة) فهم الترابط - أحياناً - بين الآية والآية، أو بين المقطع والمقطع في النص الكلي الموحد الذي تمثله السورة الواحدة. كل ذلك للتوصل إلى أقصى حدّ يتيح النص لنفهمه.

من ثمة ، وأملاً في تحقيق مطمح الدراسة ، كان التوجه إلى مبادئ تحليل النص التي يضمها إطار واسع يسمى "لسانيات النص" ، وكان لا بد - حينئذ - من المرور بمصطلحات علم النص ومفاهيمه كنحو النص وتحليل الخطاب والانسجام والاتساق والبنية الكلية للنص، إلى غير ذلك مما يدخل ضمن إطار لسانيات النص التي ظهرت - نظريةً - في الغرب أولاً، وأفاد منها - من بعد - المهتمون بالدراسات النصية من العرب بوصفها منهجاً جديداً للتعامل مع النص يخري بالبحث ، ومجالاً واسعاً يستدعي التقريب بين العلوم التي تتعاطى مع اللغة، وإزالة الحواجز التي أقيمت بين هذه العلوم . ولذلك لم يكن بد من الحديث عن ماهية نحو النص وتحليل الخطاب، بتتبع أهم ما خرج به علم النص الغربي الذي اشتغل به كثير من علماء النص فأسسوا مبادئه ومفاهيمه وصاغوا أطره النظرية وناقشوا مشكلاته، ثم وظفوا كل ذلك في التعامل مع النصوص، وتحليلها تحليلاً منهجياً.

إن أهم أساس قام عليه علم لغة النص تمثل في تجاوز حدود الجملة في دراسة اللغة إلى تحليل النص، ورغم عدم الإجماع على شرعية المنهج اللغوي الجديد في الدراسة النصية، فقد حققت الدراسات النصية تطوراً قياسياً، وصارت ميداناً مغزياً بالبحث، لحدائثة المنهج وطرافته وانفكاكه من قيود التقليد، فضلاً عن إتاحة الفرصة للإفادة من مناهج متعددة تتداخل وتتمازج لتخدم عملية التعامل مع النص إنتاجاً أو تحليلاً.

ولكن للمسألة وجهاً آخر؛ فهذا التداخل المعرفي يمثل - في الوقت نفسه - إشكالية في الدراسات النصية، إذ تجتمع الخواص التركيبية والدلالية والاتصالية للنص / الخطاب، لتصوغ ملامح المنهج الجديد بحيث تتم مقارنة النص في مستويات ثلاثة: النحوي والدلالي والتداولي (البراغماتي)، دونما فصل بينها . وبذلك تتشابه علوم البلاغة والأسلوب والأدب مع التحليل اللغوي للخطاب. ينضاف إلى ذلك أن ثمة عناصر أخرى أدخلها علم النص وتحليل الخطاب

ضمن إطاره ، تنتمي إلى علوم لم تقم أصلاً لدراسة اللغة ، نحو علم النفس وعلم الاجتماع والفلسفة والمنطق ، أي أن علم تحليل الخطاب استطاع استيعاب عناصر لغوية وعناصر غسيرة لغوية للتعامل مع الخطاب. ولعل ذلك من أهم أسباب عدم استقرار العلم حول مفاهيمه أو تصوراته أو مناهجه ، فضلاً عن كونه أحدث العلوم اللسانية التي تتخذ من النص ميداناً وهدفاً. لقد كان الاتجاه إلى نحو النص تحرراً من قيد النحو التقليدي وتمرداً عليه ، وذلك انسجاماً مع جوهر وظيفة اللغة الاجتماعية ودورها الاتصالي، مع الاحتفاظ لنحو الجملة بدوره، والاعتراف باتساق منهجه مع غايته التي نشأ من أجلها، مع الإشارة إلى أهميته فسي تأسيس بعض مبادئ نحو النص بالاعتماد عليه.

وبالنسبة لنا ، فإن مبادئ علم النص وتحليل الخطاب المرتبطة بالمدارس اللسانية الحديثة، تفقد أهميتها وبريقها إن لم نحسن التعامل معها واستثمارها فيما يخدم واقعنا اللغوسي، واختبارها بتوظيفها في ممارسات تطبيقية على النصوص ، وإن لم نربطها بتراثنا اللغوي، فنطلع على مدى إسهام علمائنا المتقدمين - بصورة مباشرة أو غير مباشرة - في مجال هذا العلم من خلال آرائهم الدقيقة وإشاراتهم المتفرقة وهم يبحثون في علوم اللغة، وكذلك في تعاملهم التطبيقي مع النصوص الطويلة كتفسير القرآن مثلاً.

وإذا كان لا بد من وصف عملنا ، فإن أهم ما يمكن أن يوصف به أنه يمثل ممارسة نصية تطبيقية ، أفادت من الحاضر اللساني في مجال علم النص وتحليل الخطاب، واستحضرت إسهامات اللسانيين العرب المتقدمين وإشاراتهم التي تمثل ملامح مهمة تكشف عن وعيهم وإدراكهم للمسألة، وإن جاءت إشاراتهم غير منتظمة في منهج يضمها ، ولم تشغل مساحات واسعة من بحوثهم اللسانية. كل ذلك حاولت الدراسة الإفادة منه وهي تتعامل مع الخطاب

القرآني لتكشف آليات انسجامه وتماسكه النصي ، من خلال نماذج نصية تمثل الجدل القرآني الذي تتجلى فيه قوانين استعمال اللغة في بعدها التداولي الاتصالي.

لقد مثل انتماء البحث إلى لسانيات النص وانتظامه في فلكها مغامرة محفوفة بالمعوقات، نظراً إلى عدم استقرار المفاهيم والمبادئ والنظريات والمناهج التي تقوم عليها لسانيات النص؛ إذ هي حديثة النشأة علماً مستقلاً ، فضلاً عن اتساع مصادر دراسة هذا العلم واتصاله بعلوم معرفية متعددة وتقاطعها معها، مما يجعل الباحث يتردد في مقارنته؛ إذ لا يقف - حينئذ - على أرض مستقرة يمكنه التأسيس عليها. إلا أن المغامرة مستمرة في ممارسة إغراءاتها التي لا تقاوم مهما كانت المعوقات. وبالنتيجة كان هذا البحث الذي انتهت - مجتهداً - إلى إظهاره منتظماً في ثلاثة أبواب:

اهتم الباب الأول بعرض المفاهيم والمبادئ والاتجاهات الأساسية في علم لسانيات النص الذي يمثل أحدث مناهج التحليل اللغوي. وقد حاولنا عرض مجمل المساهمات الغربية في لسانيات النص وتحليل الخطاب مركزين على عدد من اللسانيين الغربيين بخاصة هم: "هالدي ورقية حسن"، و "قان دايك" و "براون وبول"، و "روبرت دي بوجراند"، الذين شكلت إسهاماتهم وآراؤهم أسس لسانيات النص وتحليل الخطاب وملاحم المنهج اللساني الجديد في التحليل النصي، أو التعامل مع الخطاب بعامة. وكان لا بُد من مناقشة مسألة الانتقال في الدراسات اللسانية من نحو الجملة إلى نحو النص إلى تحليل الخطاب ، لذلك عرضنا لماهية العلم الجديد وغاياته، ومشروعية الحاجة إليه. كما تم استعراض أهم تعريفات النص ومفاهيمه ودراسة أهم المعايير التي تجعل النص نصاً أو تحقق نصيته. ولما كان التماسك النصي جوهر التحليل النصي وأهم مظهر من مظاهره، فضلاً عن كونه الأساس الذي تقوم عليه دراستنا التطبيقية على

النص القرآني؛ كان لا بد من التركيز على علاقات التماسك النصي التي أهمها: اتساق النص وانسجام النص بما يهتمان به من قضايا ومفاهيم تتفق وتتباين.

ثم انتقلت إلى عرض أهم مفاهيم تحليل الخطاب ومبادئه بوصفه أحدث منهج في البحث اللغوي النصي يمكنه استيعاب جميع الممارسات اللغوية التي تتعاطى مع النص ضمن إطاره، ومنها نحو النص ولسانيات النص.

أما الباب الثاني فقد كان محاولة لاستكشاف إضاءات أو محطات تتعلق بعلم تحليل الخطاب - بمفهومه الحاضر - في التراث اللغوي العربي، خاصة في دراسات المتقدمين التي ارتبطت بالممارسة النصية . ولسنا - بهذا - نقصد إلى البحث عن جذور تاريخية لعلم تحليل الخطاب لنخلص إلى أن اللسانيين العرب هم الذي أسسوا هذا العلم، وإنما نهدف إلى البحث عن الكيفية التي تعاملوا بها مع النص كالتفسير والتحليل مثلاً، والاطلاع على معالجاتهم للنصوص الخارجة عن حدود نحو الجملة ونطاقه سواء في دراساتهم النحوية أو البلاغية.

وتحقيقاً لهذه الغاية اخترنا أبواباً خاصة من التراث اللغوي للبحث فيها هي: المساهمة النحوية، والتراث البلاغي، وجهود المفسرين.

وبذلك - أي باستكمال البابين الأول والثاني - تكون الدراسة قد حاولت صياغة الإطار النظري للموضوع وعرضت أهم ملامح المنظور اللساني الوصفي لعلم لغة النص ومبادئ تحليل الخطاب منطلقة من الحاضر اللساني، ومستكشفة مدى إدراك التراث اللغوي العربي وإسهامه في هذا المجال.

ويأتي الباب الثالث ليقدم ممارسة نصية تطبيقية مادتها خطاب الجدل القرآني، نحاول فيها تحليل النص القرآني بالاعتماد على مبادئ التماسك النصي للوقوف على الآلية التي يتكون بها النص بوصفه كلاً واحداً منسجماً.

وقبل البدء بالممارسة التطبيقية احتجنا فضلاً تمهيدياً توقفنا فيه مع مفهوم الجدل وتتبعنا الاستعمال القرآني للجدل، وكان لا بُدَّ من استقراء النص القرآني كله لاستخراج نصوص الجدل التي تتسجم مع المفهوم الذي اخترناه، وقمنا بتصنيف هذه النصوص في ثلاثة أشكال: لغوية (أسلوبية) بالنظر إلى أطراف العملية التواصلية في الخطاب، لننطلق - من بعد - من هذه الأرضية الممهدة إلى تحليل الخطاب القرآني وتتبع آلية عمل التماسكات النصية التي تسهم في انسجامه كلاً واحداً، وفي إخراج نسيجاً محكماً، فكان الفصل الثاني الذي اختبرنا فيه استثمار قوانين التماسك النصي وأدواته على نصوص مختارة من خطاب الجدل القرآني.

أما الفصل الأخير في الباب فقد خصصناه لاختبار نسيج النص القرآني بتحليل سورة منه: (الشعراء)؛ فدرسنا شبكة علاقات التماسك النصي الداخلية فيها، في المقطع الواحد، وبين المقطع والمقطع، وارتباط كل دوائر النص ببؤرتيه، واتصالها بمقصد النص. ودور التوازي في تماسك النص.

ووقفنا في نهاية الفصل مع إشكالية التنويعات السياقية في النص القرآني لنحاول فهم النص عندما يختلف - قاصداً - مع ذاته؛ بعيداً عن الدائرة التاريخية وانطلاقاً من النص ذاته وعلاقاته الداخلية. وقد اخترنا الوقوف مع قصة موسى نموذجاً ندرس الظاهرة من خلاله، مع استحضار قوانين التماسك النصي التي تتسج خيوط النص في دقة وإحكام وانسجام.

وقد رأينا إتباع البحث خلاصةً يختم بها، حاولنا تضمينها عرضاً مجملًا لأهم ما خرج به البحث في مقاربة لسانيات النص وتحليل خطاب الجدل القرآني.

وبعد، والقلم ما زال موصولاً بالكلمات، أجمع الشكر كله، الذي لا أملك فوقه شيء، لأقدمه بين يدي أستاذي المشرف الأستاذ الدكتور يوسف أبو العدوس الذي عظم في نفسي الثقة بالنفس ولم يبخل عليّ بعباء، وكان يأبى إلا أن يكون لي أخاً صديقاً، قبل أن يكون أستاذاً

معلماً، وكان يعطيني أكثر مما أستحق، ويصفني بأكثر مما أنا أهل له، فطوقني بجمائل لا أنساها
العمر كله. كما أتوجه إلى الأساتذة العلماء الذين شرفني اشتراكهم في قراءة البحث ومناقشته
رغم ضيق الوقت وكثرة الأعباء، الأستاذ الدكتور نهاد موسى الذي لا تملك الأسسنة حين
تجري اللغة بلسانه، إلا أن تركز وتصمت، أشكره على تحمل قراءة البحث الذي يتسم بما يتسم
به الطالب من التقصير والحاجة إلى التعليم؛ وأمل أن يعاملني بما أنا أهل له، فما أنا إلا متعلم،
وما اجتماعنا إلا درس أنتم فيه الواهبون ونحن الآخذون. أما الأستاذ الدكتور عفيف عبد
الرحمن، فإن القلم - حقاً - أمامه عاجز، والكلمات تخذلني؛ فقد علمني هذا الأب كيف يكون
الإنسان إنساناً، والكبير كبيراً، وعرّفتني كيف يكون تواضع العلماء، وهو - قبل ذلك وبعده - كان
ناصرنا أميناً، قريباً، يشد لي الهمة كلما قصرت، ويعيد لي العزيمة إذما وهنت. كما أتقدم
بالاحترام كله إلى أستاذي وقدمتي الأستاذ الدكتور فوزي الشايب الذي كان له فضل علي أقصو
عن شكره، إذ علمني الجد والالتزام والمثابرة والثقة بالنفس، ومعه عرفت كيف يتجاوز المتعلم
الصعوبات والمعوقات إن ملك الإرادة، وكيف يغدو العلم نوراً إن تزين بتاج الأخلاق.

أما الأستاذ الدكتور فواز عبد الحق فأشكر له الصبر على قراءة البحث، وأشكره أن
شجعتني على الاستمرار في دراسة الموضوع منذ كان فكرة وليدة، وزودني بملاحظات مهمة
ودقيقة أثرت البحث وزادت تقتي بأن كنت موفقاً في الاختيار.

وختاماً، فلا أدعي أنني بلغت أقصى الغاية، ولا أزعم أنني أقدم نظرية أو منهجاً جديداً
في الدراسة اللغوية، وإنما حاولت ما وسعتني القوة، وبذلت كل ما أملك من قدرة ليخرج العمل
في أفضل صورة وأكمل وجه ممكن، فانتهيت إلى هذه الدراسة التي هي خلاصة عناء طويل،
وسهر مجهد، أضنيا الجسم وأضعفا البصر، وأبعداني عن الحبيب والصديق، وقصارى الرجاء
أن أكون قد قدمت شيئاً نافعاً يفيد منه الدارس في مجال البحث اللغوي، في علم النص وتحليل

الخطاب الذي ما زال يمثل اتجاهاً بكرأ، لم تكشف بعدُ كل ملامحه، ولم تكتمل مبادئه وأصوله ومفاهيمه، إذ ما زال علماً لسانياً حديثاً يسمح بكل رأي أو اقتراح، ولا يمثل ما تقدمه في عملنا هذا أكثر من مقارنة تستثمر توظيف مبادئ علم لسانيات النص وتحليل الخطاب في دراسة الخطاب القرآني، ربما نكون قد نجحنا فيها فنكتسب - بذلك - بعد غيرنا من حسناتها، وإلا فإننا نتحمل وحننا تبعاتها، وصدق الله العزيز إذ يقول: ((وفوق كل ذي علم عليم)).

الباب الأول

لسانيات النص

المفاهيم والمبادئ، والاتجاهات

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

من نحو الجملة إلى تحليل الخطاب

مدخل

كل بحث محتاج - بدءاً - أن يضبط مجاله الذي يدور فيه والمفاهيم التي يتكئ عليها، ومن أجل هذه الغاية لم يكن بُدً من ضرورة تحديد المفاهيم وتخليصها من الاختلافات والتداخلات ليتم للعمل من بعد اتساقه، وليسهل اجتناب تناقضه.

والمفاهيم الواجب تحليلها في البدء، تدور مصطلحاتها في المجالات الآتية التي ولدت من رحم علم اللغة التطبيقي الذي يعد حديثاً نسبياً بين علوم اللغة الأخرى:

المجال الأول: نحو النص، وهو الأساس، فرعاً من لسانيات النص.

المجال الثاني: تحليل الخطاب.

وسأقوم باستجلاء هذه المفاهيم معتمداً بشكل أساسي على جهود المهتمين بعلم لغة النص بوصفه من أهم الدراسات اللسانية الحديثة، ولذلك فالدراسة تتناول شيئين:

١. توضيح المفاهيم المتعلقة بالدراسات اللغوية التطبيقية اعتماداً على جهود المهتمين بعلم

لغة النص.

٢. الإشارة إلى إسهامات علماء اللغة الغربيين في مجال علم لغة النص، وكذلك الإشارة

إلى جهود المهتمين بهذا العلم من العرب.

النحو: من الجملة إلى النص

لم نعهد في دراسة النحو العربي على تخصيصه أو تجزئته، إذ النحو قائم في أفسهام المتقدمين من أبناء العربية -وتبعناهم في ذلك- تصوراً واحداً شاملاً العربية، ومن هنا جاء مصطلح: النحو العربي. أما عبارة (نحو النص) التي ألفنا تداولها في الدراسات اللغوية والنصية الحديثة، فمنطوقها يفهم أن ثمة نحواً خاصاً يعالج النصوص؛ وهي تفصح عن شيء وتسكت عن آخر، فظاهاها يدل على القواعد التي بها يضبط النص ويحكم، أما المسكوت عنه فهو إشارة إلى النحو الآخر الذي ما هو إلا النحو الذي نعرف، والذي اشتغل بتبويبه وتقديمه قدماء العربية وعلمائها المبدعون، ودرسناه نحن على أيديهم بما وصل إلينا من مصنفاتهم.

ولما كان "نحو النص" بمنطوق عبارته -مغايراً للنحو التقليدي، ولا نقول ثورة عليه؛ فالآخر إذاً ليس نحو نص، وإذا لم يكن كذلك، فإن المقابل "للنص" مما يناسب النحو المؤلف هو "الجملة". وعليه فإن عبارة "نحو النص" تكاد تنطق بأن النحو العربي "التقليدي" ما هو إلا نحو جملة.

ولا أنفي هنا، أو أثبت، كون النحو العربي نحو جملة، فليس ذلك هدفي، ولكني أحاول مناقشة العبارة واستنطاقها لإدراك مفهومها، ومع ذلك فسيأتي الحديث - ضرورة - عن نحو الجملة بوصفه أساساً لنحو النص أو سبباً في نشوئه أو حتى نظيراً مقابلاً له أو منهجاً أن وقت تجاوزه، وذلك في الموضع المناسب من الدراسة.

وأبدأ بالإشارة إلى دراسة قيمة، في رأيي، في التحليل النصي حاول صاحبها مناقشة مسألة الانتقال من نحو الجملة، إلى نحو النص، أو تجاوز حدود الجملة في الدراسة النحوية، وأقصد بها كتاب "تسيج النص" للأزهر الزناد. يقول "الهادي الطرابلسي" في مقدمة الكتاب "إن الشعور قد قوي في السنوات الأخيرة عند رواد البحث اللساني، بضرورة تجاوز حدود الجملة

في درس قواعد الكلام إلى تحليل النصوص، بمختلف أحجامها، وبحتمية الجمع بين الاعتبار اللفظية والتركيبية، والاعتبارات المعنوية والمقامية في تقدير أشكال التعبير وإجراءاتها مما قادهم إلى ذلك الحواجز التي أقيمت بين علم النحو وعلم البلاغة بل وعلم النقد وعلم الشعر أيضاً، لا رغبة في توسيع مجال البحث اللساني ودعم اللسانيات التطبيقية خاصة، وإنما إغناء للنظر وإقراراً بأن كثيراً من مسائل التفكير في اللغة وقضايا التقعيد لاستعمالاتها لا يستقيم إلا بالاحتكام فيها إلى أحوال الكلام بمختلف مظاهرها^(١).

وأول ما اتفق به معه، أهمية إزالة الحواجز بين علوم اللغة التي يؤدي تداخلها هنا إلى خدمة البحث اللغوي في دراسة النصوص وتحليلها، وتجسير الفجوة بين علم اللغة ونظرية الأدب، مما أدى إلى ظهور ما سمي بعلم اللغة النصي أو الأدبي^(٢).

وبشير الطرابلسي - وإشارته في محلها - إلى أن تغير المفهوم يقود منطقياً إلى تغيير المصطلح (ويقصد اختلاف نحو النص عن نحو الحملة) إذ ذلك أسلم نريفة لاتقاء سهام النقد، غير أنه قد يكون في الوقت نفسه أكبر العوامل في حجب ملامح التطور في الدرس النحوي، مع ما بين الجملة والنص من الصلة التي لا بد معها من الإبقاء على مصطلح (النحو) في كل منهما^(٣).

إن الناظر في النحو القديم - والدرس اللساني بعامة - لا يصعب عليه أن يلحظ وقوفه عند حدود الجملة؛ فقد قامت النظريات النحوية والاتجاهات اللسانية المتعاقبة على دراسة الجملة، وبيان مكوناتها، والقواعد التي تضبط عمليات إنتاج الجمل واستعمالها، وتم للعربية نجاح كبير في هذا المجال، راجع - في جزء كبير منه - إلى كون الجملة بنية قارة في الكلام^(٤)، وهذا القرار

(١) الزناد، الأزهر، نسيج النص، المركز الثقافي العربي، ط١، بيروت، ١٩٩٣، ص(٥).

(٢) انظر: خليل، إبراهيم، الأسلوبية ونظرية النص، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، بيروت، ١٩٩٧، ص(١٣١).

(٣) الزناد، نسيج النص، ص(٦).

(٤) المرجع نفسه، ص(١٤)

أسهم في أن تكون النظريات والقوانين التي اشتملت بوصف الجملة محكمة، ولكن بشكل نسبي نظراً لطبيعة الكلام، إذ الجملة نظرياً جملتان^(١):

١. جملة نظام - System sentence، وهو الشكل المجرد للجملة الذي يولد جميع الجمل الممكنة والمقبولة في نحو اللغة، أية لغة.

٢. جملة نصية Text sentence، وهي الجملة المؤداة في مقام معين تتوافر فيه ملابسلا لا يمكن حصرها، يقوم عليها الفهم والإفهام: (التواصل/ التفاعل). "وتتعدد الجمل في المقام الواحد وعلى لسان شخص واحد، نظرياً، إلى ما لا نهاية له، وهذا التعدد يعود إلى التفرد من حيث البنية المولدة للجمل، أي اللجوء إلى النحو، نحو الجملة، ولكنه يخرج عنها عندما يتعلق الأمر برصد عمل الدلالة في النصوص في وجوهه المختلفة: الانسجام في الموضوع والزمان والأشخاص أو المفاهيم وما يتعلق بها من جمل المضمرة كالضمائر وأسماء الإشارة وغيرها، وتنظيم المكان أو توزيعه، والتفاعل القائم بين أطراف التواصل مثل استراتيجية الإقناع في محاوراة فلسفية، أو استراتيجية الإمتاع في إنشاد شعري"^(٢).

وتبعاً لهذا تطرح مسألة مهمة تتعلق بشرعية وجود "نحو للنص" إلى جانب "نحو الجملة"، خاصة عندما يتطابق النص مع الجملة - حجماً أو ألفاظاً - إذ يقوم التساؤل حول جدوى نحو آخر يدرس الموضوع نفسه الذي يدرسه نحو الجملة.

ومن هنا يجب تحديد معنى الجملة لننتقل من بعد إلى محاولة تحديد النص ومفهومه، فإن تم ذلك يكون الكلام على "نحو الجملة" "نحو النص" واضح المعالم، ويسهل الحكم على شوعية استحداث نحو النص إلى جانب نحو الجملة، فنثبت له أو تنفى عنه.

(١) الزناد، المرجع نفسه، (ص ١٤)

(٢) المرجع نفسه، ص (١٤)

الجملة: وهي الموضوع الذي يدرسه نحو الجملة، ويمكن تعريفها بأنها العناصر اللغوية الدنيا المقصودة لذاتها والتي يحسن السكوت عليها، أو لنقل هي العناصر اللغوية التي يرتبط بينها إسناد مستقل مقصود لذاته أو -بكلمات أخرى- هي "التعبير اللغوي المستقل بالإفادة"^(١).

وفي شرح المفصل: "الجملة هي كل كلام مركب من كلمتين أسندت إحداهما إلى الأخرى، والكلام كل لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه ويسمى الجملة"^(٢).

ونلاحظ أن ابن يعيش (٦٤٣هـ) يساوي بين الكلام والجملة.

وفرق ابن هشام (٧٦١هـ) بينهما، قال: "والصواب أنها أعم منه، إذ شرطه الإفادة بخلافها، ولهذا تسمعهم يقولون: جملة الشرط، جملة الجواب، جملة الصلة، وكل ذلك ليس مفيداً"^(٣).

النصّ

مع أنه يمكن القول ببساطة، إن النص هو كل ما ظهر من ألفاظ أفادت في سياق تواصل، فإن تحديد النص قد شغل المهتمين بالدراسات النصية عموماً، ويعلم لغة النص بشكل خاص وتعددت التعريفات، وتباينت وصرّح بصعوبة الاستقرار على تعريف محدد.

(١) بحيري، سعيد، علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، مكتبة لبنان - ناشرون، ط١، بيروت، ١٩٩٧، ص(١٩).

(٢) ابن يعيش النحوي، شرح المفصل، إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة، بدون تاريخ، ج١. ص(٢٠).

(٣) ابن هشام، معني اللبيب عن كتب الاعراب، تحقيق: بركات يوسف هبود، دار الأرقم، ط١، بيروت، ١٩٩٩، ج٢. ص(٥).

مفهوم النص

ويتكفل المعنى اللغوي للنص بإبراز أهم الملامح المكوّنة لمعناه الاصطلاحي، إذ يدور

المعنى المعجمي حول مجالات دلالية تقترب من معناه الاصطلاحي.

جاء في اللسان^(١): "النص رفعك الشيء. نص الحديث ينصه نصاً: رفعه، وكل ما أظهر

فقد نص. ووضع على المنصة أي على غاية الفضيحة والشهرة والظهور... ونصت المتاع

إذا جعلت بعضه على بعض... وأصل النص أقصى الشيء وغايته. ونقل عن ابن الأعرابي:

النص الإسناد إلى الرئيس الأكبر، والنص التوقيف، والنص التعيين على شيء ما. ونص الرجل

نصاً إذا سأله عن شيء حتى يستقصى ما عنده... ونص كل شيء منتهاه، ومنه قيل: نصت

الرجل إذا استقصيت مسألته عن الشيء حتى تستخرج كل ما عنده.... ومنه قول الفقهاء: نص

القرآن ونص السنة أي ما دلّ ظاهر لفظهما عليه من الأحكام."

فالظاهر من المعاني المعجمية التي يَحتملها (النص) دورانها حول محاور هي:

١. الرفع بشكليه الحسي والمجرد.
٢. أقصى الشيء ومنتهاه، ويتصل به الاستقصاء.
٣. الإظهار ويعني الوجود الفيزيائي بحيث يدل اللفظ شفاهة أو كتابة على معنى، أو يؤدي وظيفة.
٤. ضم الشيء إلى الشيء، وربط الجزء بالجزء لتشكيل الكل.

وتبعاً لهذه المحاور – أو أحدها – كان يتم التعامل مع مفهوم النص، ولذلك كثرت

تعريفات النص وتباينت نظراً لاختلاف زاوية النظر إليه، فهناك من عرفه بأنه "النسوء

(١) ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، مصر، مادة (نصص)، ج٧، ٩٧-٩٨.

الطوبوغرافي للخطاب، النص هو الخطاب المثبت^(١)، اكتفاءً بما يدل عليه لفظ (النص) من الإظهار. وهناك من عرفه تعريفاً عاماً مقتضياً: "أي قطعة ما ذات دلالة وذات وظيفة، وبالتالي هي قطعة مثمرة من الكلام"^(٢).

وهناك من ركز على الجانب الدلالي للعناصر الظاهرة، فكان النص هو "القول اللغوي المكتفي بذاته والمكتمل في دلالاته"^(٣)، ولعل هذا المعنى يتصل بمفهوم النص عند الفقهاء، إذ نص القرآن ونص السنة يعينان ما دل ظاهر لفظهما عليه من الأحكام، وهو نفسه المعنى المقصود في كلام النحاة عندما يستخدمون لفظ (نص) للإشارة إلى دلالة اللفظ الواضحة كقولهم: إذا كان المبتدأ نصاً في القسم حذف الخبر، أو قولهم: يحذف الخبر وجوباً إذا عطف على المبتدأ اسم بواو، وهي نص في المعية، نحو كل رجل وضيعته، وكل صانع وما صنع^(٤).

وباختصار فإنه يمكن القول إن النص أفاظ أو رموز دالة على معنى في سياق تواصلية. وقد حاول أحد الباحثين الخروج بتعريف يلخص أهم المحاور التي يقوم عليها مفهوم النص استناداً إلى المعجم اللغوي منطلقاً من أن جميع المعاني اللغوية تعود إلى جامع واحد هو الارتفاع أو هو أظهر مكونات الشيء أو أقصاها، وبذلك فهو يطلق على ما به يظهر المعنى، أي الشكل الصوتي المسموع من الكلام أو الشكل المرئي منه عندما يترجم إلى المكتوب، وهذا الشكل الصوتي يمثل آخر طور يبلغه الكلام في تولده (البنية السطحية)، إذ ينطلق تركيب الملفوظ من الأساس حيث تجتمع العناصر المقولية بالصيغ الصرفية الحاصلة في المعجم، ثم تنتظمها القواعد التركيبية في بنية تطابقها بنية دلالية (البنية العميقة) ثم تجري على هذه البنية تحويلات تأخذ

(١) منير ، وليد، النص القرآني من الجملة إلى العالم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، القاهرة، ١٩٩٧، ص ٢٤.

(٢) انظر: بحيري ، سعيد، علم لغة النص، ص ١٠١-١٠٢.

(٣) منير ، وليد، النص القرآني من الجملة إلى العالم، ص ٢٩.

(٤) انظر على سبيل المثال: ابن هشام، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، دار إحياء العلوم، ط٢، بيروت، ١٩٨٥، ص ٧٤-٧٥.

بَعْدَهَا شكلاً صوتياً هو ما يمثل حدثاً يُسمع وينقل عن طريق قناة ما^(١). ويشير هذا الباحث إلى أن النص - تبعاً لما تقدم - علامة كبيرة ذات وجهين: الدال والمدلول.

لقد قام علماء النص بوضع تعريفات مختلفة للنص تبعاً لانتمائهم إلى مدارس لغوية مختلفة، ولذلك فإن مسألة وجود تعريف جامع مانع للنص مسألة غير منطقية من جهة التصور اللغوي^(٢). وباستقراء أهم الدراسات المهمة بعلم النص نجدتها تورد عدداً من التعريفات وتنبئ أحدها، غير أن من أكثر التعريفات التي اعتمد عليها تعريف الباحثة الفرنسية جوليا كريستيفا (Julia Kristeva) التي ترى أن النص : " أكثر من مجرد خطاب أو قول، فهو موضوع لعدد من الممارسات السيميولوجية التي يعتد بها على أساس أنها ظاهرة عبر لغوية، بمعنى أنها مكونة بفضل اللغة، لكنها غير قابلة للانحصار في مقولاتها"^(٣). وقد اعتمد رولان بارت (Roland Barthes) على تعريفها ووصفه بأنه تعريف جامع وأصولي للنص، عرّفت النص بأنه "جهاز لساني (عبر لغوي) يعيد توزيع نظام اللغة واضعاً الحديث التواصلي في علاقة مع ملفوظات مختلفة سابقة أو متزامنة"^(٤).

-
- (١) الزناد، نسيج النص، ص ١٢. ويشير المؤلف إلى أن كلامه تضمن نقلاً عن تشومسكي.
- (٢) انظر: بحيري، سعيد، علم لغة النص، ص ١٠٧.
- (٣) فضل، صلاح، بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد (١٦٤) سنة ١٩٩٢، ص ٢٢٩.
- (٤) بارت، رولان، نظرية النص، دراسة في الكتاب المترجم: دراسات في النص والتناصية ترجمة: محمد خير البقاعي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط١، ١٩٩٨، ص ٣٣. وقد أورد التعريف صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص ٢٢٩، وسعيد بحيري، علم لغة النص، ص ١١٢. غير أن مترجم كتاب علم النص يورد التعريف على النحو الآتي: "النص جهاز عبر لساني يعيد توزيع نظام اللسان بواسطة بالربط بين كلام تواصلي يهدف إلى الإخبار المباشر وبين أنماط عديدة من الملفوظات السابقة عليه أو المتزامنة معه". كريستيفا، جوليا، علم النص، ترجمة: فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، ط١، المغرب، ١٩٩١، ص ٢١.

ووفقاً لهذا التعريف يتحدد النص كإنتاجية، أي أن علاقته باللغة التي يقع فيها علاقة إعادة توزيع (تفكيك - بناء) مما يجعله صالحاً للمعالجة من خلال مقولات منطقية أكثر من الاقتصار على المقولات اللسانية المحضة. كما أن التعريف يتضمن اعتبار النص عملية تبادل نصوص، أي عملية تناص: (Inter Textuality)؛ إذ نجد في فضاء النص عدة ملفوظات مأخوذة من عدة نصوص تتقاطع وتتعايد^(١). ويبنى "بارت" على كلام "كرستيفا" أن كل نص هو تناص، والنصوص الأخرى تتراءى فيه بمستويات متفاوتة وبأشكال ليست عصية على الفهم بطريقة أو بأخرى، فهي تتقاطع مع نصوص الثقافة السالفة والحالية؛ فكل نص "ليس إلا نسيجاً جديداً من استشهادات سابقة، لأن الكلام موجود قبل النص وحوله. فالتناصية قدر كل نص، مهما كان جنسه، لا تقتصر حتماً على قضية المنبع أو التأثير، فالكلام كله يصب في النص، ولكن ليس وفق طريقة مندرجة معلومة، ولا بمحاكاة إرادية، وإنما وفق طريقة متشعبة، صورة تمنح النص وضع الإنتاجية وليس إعادة الإنتاج"^(٢).

ومن القضايا المهمة التي ركز عليها الباحثون في دراستهم النص تَضَمَّنُ مصطلح "نص" في العربية وفي مقابله في اللغات الأعجمية - مثلاً (Text) - معنى "النسيج"^(٣) الذي ينطبق على النص منجزاً كلاً موحداً، وحين يتم التعامل معه تفكيكاً أو بناءً، إذ يتم استثمار قوانين الترابط للتعامل مع النص، "فالنص نسيج من الكلمات يترابط بعضها ببعض. هذه الخيوط تجمع عناصره المختلفة والمتباعدة في كل واحد هو ما نطلق عليه مصطلح "نص"^(٤).

-
- (١) انظر: يقطين، سعيد، انفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٨٨، ص ١٩.
 - (٢) بارت، رولان، نظرية النص، ص ٣٨-٣٩، وانظر: يقطين، انفتاح النص الروائي، ص ١٩-٢٠، فضل، صلاح، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص ٢٢٩. وانظر: كريستيفا، جوليا، علم النص، ص ٢١.
 - (٣) انظر: بارت، رولان، نظرية النص، ص ٣٩، والأزهر الزناد، نسيج النص، ص ١٢.
 - (٤) الزناد، الأزهر، نسيج النص، ص ١٢.

ومن أكثر التعريفات بساطة وعمومية تلك التي ترى أن النص وحدة دلالية أو هو اللغة التي تؤدي وظيفة في بعض السياقات^(١)، أو أنه وحدة لغوية في طور الاستعمال، فلا يكون بذلك وحدة نحوية مثل الجملة، كما أن معيار الكم ليس ضرورياً، إذ قد يكون كلمة أو جملة أو عملاً أدبياً، المهم أن يكون موظفاً في سياق تواصلية / تفاعلية.

والوحدة المقصودة هنا هي الوحدة الدلالية من حيث المعنى لا الشكل^(٢)، ونظراً لأهمية الوظيفة الاتصالية في مفهوم النص فقد جعلها "ديفيد كرسنال" (David Crystal) الأساس فسي التعريف الذي قدمه حيث قال إن النص عبارة عن امتداد أو منظومة من اللغة المكتوبة أو المنطوقة تقوم بوظيفة اتصالية ضمن سياق معرفي، ومن أمثلته: التقارير الإخبارية والقصائد، وإشارات الطرق... إلخ^(٣). فهو يركز على السمة التواصلية أساساً لقيام النص دون اهتمام بحجم النص، أو شكله، لأن التواصل من أهم خصائص اللغات بعمامة، إذ هو تفاعل بين مرسل ومستقبل، مادته اللغة، أي أنه تسجيل لغوي (شفوي أو كتابي) للحدث التواصلية.

غير أن أهم تعريف - من وجهة نظري - جامع للنص، ما قدمه "روبرت دي بوجراند" في مقارنته التي اقترح فيها معايير معينة لجعل النصية (Textuality) أساساً مشروعاً لإيجاد النصوص واستعمالها، أما هذه المعايير التي تحقق نصية النص فهي^(٤):

(١) انظر: يقطين ، سعيد ، انفتاح النص الروائي، ص ١٩. وصبحي الفقي، علم اللغة النصي، دار قبله، ط١، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٢٩-٣٠.

(٢) انظر: يقطين ، سعيد ، انفتاح النص الروائي، ص ١٦.

(٣) كرسنال، ديفيد ، موسوعة كيردج للغة.

Crystal David, *The Cambridge Encyclopedia of Language*, Cambridge University Press, Cambridge 1996, P. 438 and P. 116.

وانظر: الفقي، علم اللغة النصي، ص ٣٢.

(٤) انظر: دي بوجراند ، روبرت ، النص والإجراء والخطاب، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، ط١، القاهرة، ١٩٩٨، ص ١٠٣-١٠٥.

(١) الاتساق أو السبك (Cohesion) وهو يترتب على إجراءات تظهر بها العناصر السطحية على صورة عناصر يؤدي السابق منها إلى اللاحق بحيث يتحقق لها الترابط الرصفي، بوسائل معينة كالربط النحوي والعلاقات المعجمية والحذف والاستبدال.

(٢) الانسجام أو الالتحام (Coherence) الذي يتطلب إجراءات تنشيط عناصر المعرفة لإيجاد الترابط المفهومي، ومن وسائله العلاقات المنطقية، كالسببية والعموم والخصوص، وتفاعل المعرفة التي يعرضها النص مع المواقف المشابهة، ومعرفة العالم.

(٣) القصدية (Intentionality) أو هدف النص وهو يتضمن موقف الناظر من كون صورة ما من صور اللغة قصد بها أن تكون نصاً يتمتع بالسبك والالتحام، وأن مثل هذا النص وسيلة لغاية يقصدها الناظر.

(٤) المقبولية (Acceptability) ويتضمن موقف المتلقي من أن النص ينبغي ليكون مقبولاً أن يتميز بالاتساق والانسجام.

(٥) المقامية أو مراعاة الموقف أو الحالة (Situationality) وتتضمن العوامل التي تجعل النص مرتبطاً بموقف ساند يمكن استحضاره. وترتبط رعاية الموقف بالإشارة إلى دور طرفي الاتصال - على الأقل - في إنتاج النص.

(٦) التناص، وهو يتضمن - كما تقدم - العلاقات بين نص ما ونصوص أخرى مرتبطة به وقعت في حدود تجربة سابقة، وقد يكون داخلياً بحيث ترتبط أجزاء من النص بأجزاء أخرى منه (كالقول والرد عليه في حوار ما مثلاً)، أو خارجياً يرتبط فيه النص بنص آخر.

(٧) الإعلامية (Informativity) وهي توقع المعلومات الواردة في النص، أو عدمه.

ويلاحظ أن تعريف النص استناداً إلى شرط توافر هذه المعايير النصية مجتمعة يشمل جميع أطراف الحدث التواصلية وعناصره، فهو يراعي الناصّ والمتلقي والسياق والنواحي الشكلية والدلالية المرافقة لإنتاج النص.

ورغم كل ما قيل في تحديد مفهوم النص، ومع تباين الآراء واختلافها في ذلك، فإنه يمكن تأسيس مفهوم يمثل الحد الأدنى - على الأقل - المشترك بين المهتمين بالدراسات النصية، وذلك بأن النص هو: كل منظومة لغوية أفادت في سياق تواصلية. وعليه يستقيم انطباق مفهوم النص على ما يفيد من العناصر اللغوية ممّا كان مساوياً للجملة أو أقل من الجملة فضلاً عما كان فوق الجملة. المهم في ذلك أن يتم في سياق تواصلية "يُدرس النص" أيّ كان حجمه في ظل بنية كلية للنص ضمن الإطار التواصلية، ولا يدرس النص الجملة أو الأقل من الجملة مستقلاً بذاته بمعزل عن الجمل النصوص التي تشكل البنية الكبرى للنص الكلي.

لقد رافق صعوبة تحديد مفهوم النص - كما تبين - صعوبة وضع فواصل دقيقة بين مفهومي الجملة والنص، وإمكانات الفصل بينهما منذ ظهور علم "لغة النص" في الستينات^(١). ومسألة الفصل لا تتعلق بالمفهوم فحسب، وإنما بمناقشات إمكانات التحليل الذي يقوم على أساس وحدة الجملة، وهل يمكن الاكتفاء في التحليل النصي، بما حققه التراث النحوي أم أن ثمة حاجة لوضع مفاهيم ومقولات جديدة تضم عناصر لغوية وغير لغوية لم يستطع نحو الجملة استيعابها؟

(١) انظر: بحيري، سعيد، علم لغة النص، ص(١٣٧).

نحو النصّ

إن دراسة "البحيري" لنحو النص تقدم فكرة عامة عما يحيط بهذا المنهج الحديث في الدراسة اللغوية للنصوص^(١)، ومن المفيد الاعتماد على بعض ما ذكره في هذا الشأن خاصة ونحن نحاول إعطاء فكرة عن نحو النص نسعى لأن تكون موجزة.

يبدأ البحيري بالتذكير بأمر مهم في مجال الحديث عن الانتقال في الدراسات اللغوية من نحو الجملة إلى نحو النص، ذلك أنه رغم النقد الموجه من علماء نحو النص إلى نحو الجملة، فإن أشكال هذا النقد لا تهدف إلى نفي القيمة عنه، ولا ترى أنه قد صار منهجاً قديماً لا يحسن التعامل معه أو أن التراث النحوي الضخم السابق لأجيال متعددة لم يعد له مكان، بل إن الأمر مختلف تماماً؛ فنحو النص منهج آخر يسعى للتعامل مع النص بوصفه الوحدة اللغوية الكبرى، وذلك بدراسة جوانب عديدة في النص، أهمها الترابط أو التماسك ووسائله، وأنواعه، والإحالة أو المرجعية وأنواعها، والسياق النصي ودور أطراف الحدث التواصلية في النص^(٢).

يضاف إلى ذلك أن كثيراً من الظواهر التي تعالج في إطار النص بوصفه وحدة كبرى كانت أساس كثير من البحوث النحوية السابقة التي كانت تعد الجملة أكبر وحدة في التحليل، غير أن نحو النص يهتم بعناصر أخرى في التحليل، ويلجأ في تفسيراته إلى أسس دلالية ومنطقية بجانب القواعد التركيبية، ويحاول صياغة مبادئ تحكم تماسك أجزاء النص. أي أن النص فسي هذا النحو قد حددت له وظائف لا يمكن إنجازها بدقة إذا التزم حدّ الجملة^(٣).

(١) انظر: بحيري، علم لغة النص، ص ١٢٣-١٦١.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٣٣-١٣٥. و الفقي، صبحي، علم اللغة النصي، ص ٣٦.

(٣) بحيري، المرجع نفسه، ص ١٣٤-١٣٥.

ويمكن تلخيص أهم مهمة لنحو النص في أنه يسعى لصياغة مبادئ " تمكنا من حصر كل النصوص النحوية في لغة ما بوضوح، ومن تزويدنا بوصف للأبنية، ويجب أن يعد مثل ذلك النحو النص إعادة بناء شكلية للكفاءة اللغوية الخاصة بمستخدم اللغة في إنتاج عدد لا نهائي من النصوص"^(١).

ويؤكد "فان دايك" - وهو مؤسس علم نحو النص - أن ثمة ترابطاً بين نحو الجملة ونحو النص، إلا أن نحو النص يراد منه تحقيق هدف يتجاوز قواعد إنتاج الجملة إلى قواعد إنتاج النص . "ففي كل الأنحاء السابقة على نحو النص وصف للأبنية اللغوية، ولكن غياب الجوانب الدلالية والتواصلية، دفع علماء لغة النص إلى البحث عن وصف يمكنه أن يجمع تلك الجوانب"^(٢)، مما أدى إلى اللجوء إلى مبادئ نحو النص.

مبادئ نحو النص

ستحاول الدراسة هنا تقديم الأسس التي تناولها المهتمون في دراسة نحو النص، للوقوف على القواعد التي اعتمدت في تشكيل النص وتحليله أو إنتاجه. وبدءاً لا بد من استحضار تعريف "نحو النص"، ونختار هنا أبسط التعريفات وأقلها تشعباً، وهو تعريف "المعجم الموسوعي لعلم اللغة التطبيقي: يُحاول نحو النص تأسيس (أو وضع) قواعد شكلية لغوية أو دلالية تضبط عملية انتظام متتالية من الجمل في نص معطى"^(٣).

(١) بحيري، علم لغة النص، ص ١٣٥-١٣٦. وهذا تلخيص لكلام "فان ديك" نقله سعيد بحيري في كتابه.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٣٦.

(٣) Johnson, K. and H.: *Encyclopedia Dictionary of Applied linguistics*, p. (352).

وبكلمات أخرى فإن النحو النصي أو نحو النص يهتم بآلية انسجام النص أو بالكيفية التي يتماسك بها النص، فيعنى بالكشف عن وسائل الربط بين أجزاء النص (جمل النص) سواء كان ذلك من الناحية الشكلية أو الدلالية.

اتساق النص/الخطاب

وهكذا فإن المهتمين بنحو النص ركزوا على دراسة وسائل الاتساق في النص أو ما يميز النص مما ليس نصاً أو -بعبارة أخرى- ما يكون به النص أو الملفوظ نصاً^(١). وقد اهتم بعضهم بالخصائص التي تجعل من عينة لغوية نصاً اهتمامهم بالاتساق وكيفيته^(٢).

فالانساق يُعدّ شرطاً ضرورياً وكافياً- عند هؤلاء- للتعرف على ما هو نص وعلى ما ليس بنص؛ فلكي تشكل منظومة لغوية نصاً لا بد أن تكون كلاً موحداً تتوافر فيه خصائص معينة هي سمة في النص ولا توجد في غيره. ومن ثم فإن البحث في نحو النص يركز - في معظمه - على كشف الخصائص التي تميز النص عن متالوية مكونة من جمل غير مترابطة^(٣).

وبعد كتاب "الاتساق في الإنجليزية" (Cohesion in English) لمؤلفيه "هالدي ورفية حسن" من أهم الدراسات في الاتساق، بوصفه أساساً يحكم به على المنظومة اللغوية بالنصية أو عدمها.

(١) انظر: الخطابي، محمد، لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، ط١، بيروت، ١٩٩١، ص(١٢). والزناد، نسيج النص، ص(١٨).

(٢) نقلاً عن الخطابي، لسانيات النص، ص(١٢) وهو هنا يقصد بكلامه هالدي ورفية حسن في كتابهما (الاتساق في الإنجليزية: Cohesion in English

(٣) المرجع نفسه، ص(١٢)

ويمكن توضيح مفهوم الاتساق بأنه: الترابط النحوي بين أجزاء النص، ويوازيه الانسجام وهو الربط المنطقي بين أجزاء النص وفقراته.

وقد عرف الاتساق في المعجم الموسوعي لعلم اللغة التطبيقي (Encyclopedia

Dictionary of applied linguistics بأنه: علاقات لغوية تتم داخل النص تجعل جملة أو أجزاءه تنتظم معاً ويتعلق بعضها ببعض، وهذه العلاقات هي التي تعطي النص نصيته^(١). ويشير المعجم إلى أن المصطلح اتساق Cohesion قد أثبت وجوده في مجال دراسات تحليل الخطاب والأسلوبية والنحو مع تطور مفهومه على يد "هالدي ورفقة حسن" في كتابهما "الاتساق في الإنجليزية" (عام ١٩٧٦) وهو -أي الاتساق- مفهوم دلالي راجع إلى العلاقات الدلالية بين عناصر النص، والتي تجعل منه نصاً^(٢).

ويدخل الاتساق ضمن إطار أوسع يطلق عليه بشكل عام "الترابط النصي"، وهو من الظواهر التي عني بها علم النص، والتي لا يمكن تفسيرها بشكل كامل ودقيق إلا من خلال ما يسمى بالوحدة الكلية للنص. وتعتمد ظاهرة الترابط النصي على تصور يجمع بين عناصر نحوية تقليدية، وعناصر أخرى تستقي من علوم تتداخل مع النحو في الأصل^(٣).

والترابط النصي يتم بنوعين من الربط، الأول يتحقق من خلال أدوات الربط النحوية أو المعجمية، وهو ما يعبر عنه مصطلح الاتساق، والثاني التماسك الذي يتحقق من خلال وسائل دلالية في المقام الأول، ويتمثل في بنية عميقة على المستوى العميق للنص تقدم أيضاً لطرق الترابط بين تراكيب ربما تبدو غير متسقة أو مفككة على السطح؛ فهو ذو طبيعة دلالية تجريدية

(١) Johnson, K. and H.: *Encyclopedia Dictionary of Applied linguistics*, p. (55)

(٢) المرجع نفسه، ص (٥٥)، وانظر الخطابي، لسانيات النص، ص (١٥).

(٣) بحيري، سعيد، علم لغة النص، ص (١٢٢).

تظهر من خلال علاقات تعكسها العناصر اللغوية في النص^(١). وهذا النوع من الربط هو ما يصح إطلاق مصطلح الانسجام (Coherence) عليه، وسندرسه في مكانه.

والانساق من أهم العناصر التي تحقق نصية النص، وهو يؤدي إلى ربط أجزاء النص ببعضها من خلال علاقات معينة أو ما يسمى بأدوات الانساق أو علاقاته. ويؤكد "ديفيد كرسنال" أهمية عوامل الانساق في توضيح كيفية تعالق الجمل في النص، إلا أن ذلك وحده لا يكفي، إذ قد تكون درجة الانساق في النص عالية جداً ولا يكون منسجماً نصاً^(٢).

ويأتي بمثال على ذلك لنص يوصف بالانساق لكنه غير منسجم، وهذا يشير إلى أن ليس

كل نص متسق أو صحيح نحوياً هو نص منسجم.

ومع ذلك فالانساق من أهم عناصر النصية المؤدية للانسجام، ويمكن تعريفه -

بمفهومه العام - بأنه التماسك النحوي الذي يُعنى بالعلاقات أو الروابط الشكلية التي تسهم في

الربط بين عناصر النص الداخلية، وبين النص والبيئة المحيطة من ناحية أخرى. وعوداً على

بدء فإن دراسة الانساق تعني بشكل أو آخر تحقق النصية للنص، وهذا ما جعل دراسة "هالبيدي

وحسن" يتزامن فيها بحث وسائل الانساق مع بحث ما يميز النص مما ليس نصاً^(٣).

(١) بحيري، سعيد، علم لغة النص، ص(١٢٢-١٢٣).

(٢) انظر: Crystal, David: *The Cambridge Encyclopedia Of language*. P. (119) وانظر النقي، صبحي، علم

اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دار قباء للنشر، ط١، القاهرة، ٢٠٠٠، ج(١) ص(٩٦).

(٣) انظر: الخطابي، لسانيات النص، ص(١٢)

ويشير معظم المهتمين بالدراسات النصية إلى أن أوثق معايير النصية صلة بالنص: الاتساق والانسجام، أو كما يسميهما البعض السبك والالتحام^(١)؛ فالسبك والاتساق بمعنى واحد. ويخصص سعد مصلوح السبك بالوسائل التي تتحقق بها خاصية الاستمرارية في ظاهر النص، أي الأحداث اللغوية التي ننطق بها أو نسمعها في تعاقبها الزمني، والتي تشكل متتاليات خطية متصلة، وتنظم هذه الأحداث بعضها ببعض وفق المباني النحوية.

ويشير إلى أن هذه الوسائل يجمعها مصطلح لغوي عام هو: Grammatical Dependency وترجمه بالاعتماد النحوي، ويتحقق في شبكة هرمية ومتداخلة من الأنواع:

١. في الجملة الواحدة.
٢. بين الجمل المتتالية.
٣. في الفقرة أو المقطوعة.
٤. بين الفقرات أو المقطوعات.
٥. في النص جملة واحدة بوصفه بنية كلية^(٢).

ونلاحظ هنا توسعاً في مفهوم الاتساق يصل إلى حد التداخل بالانسجام، وهذا ما دعا البعض إلى اختيار مصطلح واحد يدل على شكلي التماسك (الاتساق والانسجام) وهو cohesion وترجم هنا بالتماسك بمفهومه العام ويقسم إلى:

١. تماسك شكلي، ويهتم بعلاقات التماسك الشكلية.
٢. تماسك دلالي، ويهتم بعلاقات التماسك الدلالية^(٣).

ويشرح دي بوجراند الاتساق مبيناً أهم أدواته بقوله: "السبك Cohesion، وهو يترتب على إجراءات تبدو بها العناصر السطحية على صورة وقائع يؤدي السابق منها إلى اللاحق،

(١) انظر: دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، ط١، القاهرة، ١٩٩٨، ص(٨). المقدمة.

(٢) انظر: الفقي، علم اللغة النصي، ص(٩٦).

(٣) المرجع نفسه، ص(٩٦)

بحيث يتحقق لها الترابط الرصفي (Sequential connectivity)، وبحيث يمكن استعادة هذا الترابط. ووسائل التضام تشتمل على هيئة نحوية للمركبات Phrases والستراكيب clauses والجمل، وعلى أمور مثل التكرار والألفاظ الكنائية والأدوات والإحالة المشتركة والحذف والروابط^(١).

علاقات الاتساق أو وسائله

نتنقل الآن للحديث عن أهم وسائل الاتساق وساعتمد لتحديدنا على مصادر معينة هي:

١. كتاب "الاتساق في الإنجليزية" لهالدي ورقية حسن، ١٩٧٦.
٢. كتاب النص والخطاب والإجراء، دي بوجراند.
٣. المعجم الموسوعي للغويات التطبيقية.
٤. موسوعة كمبردج للغة، ديفيد كرسنال.

وتكاد هذه المصادر تجمع على المعايير التالية للاتساق:-

علاقات الربط، والإحالة، والاستبدال، والحذف، والعلاقات المعجمية.

١. علاقات الربط التركيبي Conjunction relations^(٢):

يقول دي بوجراند عن الربط: وهو يتضمن وسائل متعددة لربط المتواليات السطحية بعضها ببعض بطريقة تسمح بالإشارة إلى العلاقات بين مجموعات من معرفة العالم المفهومي للنص كالجمع بينها واستبدال البعض بالبعض والتقابل والسببية. أما الأنواع الفرعية للربط فهي

(١) دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص(١٠٣)

(٢) انظر: الخطاب، لسانيات النص، ص(٢٢) دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص(٣٠١-٣٠٢)، المعجم الموسوعي للغويات التطبيقية، ص(٥٦)، كرسنال، موسوعة كمبردج للغة، ص(١١٩).

مطلق الجمع Conjunction والتمييز أو الفصل Disconjunction ، والاستدراك أو التفريع
contrajunction ، والتبعية Subordination^(١).

فالربط إذاً به تتحدد الطريقة التي يترابط بها اللاحق مع السابق في النص بشكل منظم.
ومعنى ذلك أن النص ما هو إلا عبارة عن جمل أو متتاليات متعاقبة خطياً. ولإدراك هذه
المتتاليات وحدة متماسكة أو كلاً موحداً يُحتاج إلى عناصر تصل بين أجزاء النص، وهذه
العناصر يمكن تصنيفها تبعاً لوظيفتها في النص إلى:

- عناصر ربط إضافي.
- عناصر ربط عكسي.
- عناصر ربط سببي.
- عناصر ربط زمني^(٢).

ومن أهم الألفاظ أو التعبيرات التي تستعمل للربط الإضافي أداة الوصل "و" وتتبعها
تعبيرات مثل : على سبيل المثال، أعني، نحو... إلخ .

(١) دي بوجراند، النص والخطاب والاجراء، ص(٣٠١-٣٠٢)، وانظر ص: (٣٤٦-٣٥١) ويعلق "دي بوجراند"
بأن هذه العلاقات المختلفة بين صور المعلومات يمكن في الغالب أن تقع دون التصريح بوسيلة الربط، وذلك
لأن الناس لهم طرق تنبؤية لتنظيم المعلومات، ويرى أن استعمال مصطلح الربط مناسب عندما تكون
الروابط ملفوظة فقط.

(٢) الخطابي، لسانيات النص، ص(٢٣) ويضرب هاليدي المثال الآتي لتوضيح دور هذه العناصر في الربط بين
أجزاء النص:

"قضى اليوم كله في تسلق الجبل الشديد الانحدار، ودون توقف تقريباً،

أ. وطوال ذلك الوقت لم يقابل أحداً (إضافي).

ب. ومع ذلك لم يشعر بالتعب (عكسي).

ج. ولذلك ما إن جاء المساء حتى كانت الواحة تبدو بعيدة في الأسفل (سببي).

د. ثم، في الغسق جلس ليستريح (زمني).

أما تعبيرات الربط العكسي فيقصد بها ألفاظ الاستدراك التي تربط بين جزأين من النص -مثلاً- يكون اللاحق غالباً غير متوقع بالنظر إلى السابق، مثل تعبيرات: لكن، على الرغم من ذلك، ومع هذا... إلخ.

والربط السببي يكون بأدوات توضح العلاقة المنطقية بين الجمل نحو: هكذا، ولذلك، ف... إلخ. ومن العلاقات التي تدرج ضمن هذا الربط علاقات النتيجة والسبب، والشرط، والطلب.

أما الربط الزمني فيتكون من جزأين من النص متتابعين زمنياً، ومن التعبيرات الرابطة في هذا المجال: ثم، وأخيراً، وفي النهاية، وفي المساء... إلخ.

ورغم اختلاف كل نوع من هذه الروابط في وظيفته داخل النص، فإنها تشترك كلها في وظيفة الربط - بشكل عام - بين المتواليات المشكلة للنص؛ فالعلاقات التي تبنى بين متواليات النص -مع تنوعها- تسهم في جعلها مترابطة متماسكة، ولذلك عُدَّ الربط من أهم علاقات الاتساق في النص.

هذه هي بالإجمال أهم ملامح الربط التي تحاول الدراسات النصية الحديثة - والغربية أساسها - كشفها أو الحديث عنها لبلورة مبادئ أو أسس عامة للربط بوصفها من أهم عناصر الاتساق في النص.

وفي الدرس اللساني العربي الحديث ثمة دراسة قيمة، في رأيي، في موضوع الربط في النص، هي دراسة "الأزهر الزناد": "تسيج النص" التي سبقت الإشارة إليها عند الحديث عن النص وتعريفه ومفهومه. ويبدأ الزناد حديثه بأهم ما فيها ضمن سؤال: ما العوامل التي تجعل من شتات من الجمل كائناً واحداً مفرداً هو "نص"؟

ويرى أن الإجابة تتخذ مداخل عدة، يهمنها منها- ضمن ما يتعلق بالربط أو نسيج

النص- المدخل التركيبي الذي يدور حول محورين:

الأول: محور التتابع أو الخطية في الخطاب.

الثاني: محور الاندراج أو التركيب الداخلي.

فالأول يعني العلاقات التي ترتبط بها الجمل، فالنص وحدة تكونت من سلسلة من العناصر، والعنصر: " يكون صوتاً مفرداً يكون مع صوت أو أصوات أخرى مفردة أو عنصراً معجماً، وهذا العنصر نفسه يكون مع عنصر أو عناصر معجمية أخرى وحدة أكبر هي الجملة، وهذه الجملة مع جملة أو جمل أخرى تكون النص، ويمكن في حال التعدد أن يتوافر في الملفوظ الواحد أكثر من نص، ولكنها كلها تلتقي في نص أكبر"^(١).

ومن أمثلة مجموعة النصوص التي تلتقي في نص أكبر السورة القرآنية التي تمثل نصاً أكبر يتضمن نصوصاً صغرى، هي ما يمكن تسميته بالفقرات أو المقطوعات. ومن المعلوم هنا أن ثمة قواعد خاصة تحكم كل مستوى من مستويات الإنجاز التي تؤدي إلى تكوين النص تنتقل تصاعدياً من القواعد الصوتية والفونولوجية إلى القواعد الصرفية، فالقواعد التركيبية في مستوى الجملة، ثم القواعد النصية في مستوى النص، وهذه الأخيرة هي التي تعيننا- أكثر من غيرها - في الدراسة، ومجال عملها هو النص، وعناصرها هي الجمل.

أما المحور الثاني: التركيب الداخلي، فمجال البحث فيه يتعلق بعدد النوى الإسنادية في الجملة، وتنقسم الجملة فيه إلى بسيطة ومركبة، والمركب هو ما يشتمل على جملة فرعية هي ما

(١) الزناد، الأزهر ، نسيج النص، ص(٣٥)

بطلق عليها: الصغرى، أما التركيب الذي يدرس في نحو النص فيتعلق بالجملة النص التي
تتضمن على عدد من الجمل تكون نصاً داخلها^(١).

ويُلخّص الزناد قواعد الربط في مستوى النص في حديثه عن أنواع الربط في النص،

بما يلي:-

١. الربط الخطي الذي يقوم على الجمع بين جملتين متتاليتين في النص، فيفيد مجرد

الترتيب في الذكر، ومن أمثله: الواو.

٢. الربط الخطي الذي يقوم كذلك على الجمع ولكن بإدخال معنى آخر يوضح نوع

العلاقة بين الجملة وأختها، مثل: "الفاء" و"ثم" و"أو" حيث تربط كل منهما عنصرين معاً ربطاً
منطقياً^(٢).

ومما يميز دراسة "الزناد" أنه جعلها دراسة تطبيقية اختبر فيها- من خلال نصوص

متعددة الأشكال- قواعد الربط النصي التي آمن بها، وبذلك تكون من أولى الدراسات التطبيقية
العربية، -فيما أعلم- التي اتخذت من نظريات نحو النص موضوعاً لها^(٣).

وقد حاول توضيح آلية عمل الروابط التركيبية بين أجزاء النص، وتوصل إلى أن هذه

الروابط "وسائل لغوية تنسج الخيوط التي يتوسل بها الفكر في تنظيم عناصر عالم الخطاب عند

الباث مركباً وعند المتقبل مفككاً^(٤) ويشبه النص بالجسم، والجمل -فيه- بالخلايا.

(١) الزناد، نسيج النص، ص(٣٦).

(٢) المرجع نفسه، ص (٣٧).

(٣) أفرد الزناد القسم الأول من كتابه "نسيج النص"، ويتكون من فصلين، لدراسة الروابط التركيبية في
النصوص. انظر: نسيج النص، ص: ٢٣-٦٧.

(٤) المرجع نفسه، ص(٧٦)

٢. الإحالة

تعني دراسة الإحالة عنصراً من عناصر الاتساق في النص، دراسة العناصر الإحالية ووظائفها في تحليل النصوص ونحوها. والعناصر الإحالية تطلق على قسم من الألفاظ لا تملك بذاتها دلالة مستقلة وإنما ترجع إلى عنصر - أو عناصر - في أجزاء أخرى من الخطاب^(١). فهي بذلك لا توجد من غير نص.

ويعرف "دي بوجراند" الإحالة بأنها العلاقة بين الألفاظ والأشياء والأحداث والمواقف في العالم الذي يُدل عليه بالمعوضات في نص ما، إذ تشير إلى شيء ينتمي إلى عسالم النص نفسه^(٢).

ويعرف "كريستال" عناصر الإحالة بأنها العناصر التي لا تفسر من الناحية الدلالية إلا بالرجوع إلى عناصر أخرى في النص^(٣).

وبشكل عام فالإحالة علاقة بين عناصر لغوية يفسر أحدها الآخر. ويمكن تسمية العناصر (المفسرة) بالعناصر المحيلة^(٤)، أو المعوضات^(٥). وهناك من يفضل تسميتها: الألفاظ الكنائية^(٦).

وتشمل هذه العناصر الضمائر وأسماء الإشارة وأدوات المقارنة حسب "هالدي وحسن"^(٧)، ولا تخرج عناصر الإحالة عن واحد من اثنين^(٨):

(١) الزناد، نسيج النص، ص(١١٨)

(٢) دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص(٣٢٠).

(٣) كريستال، ديفيد، موسوعة اللغة، ص(١١٩)، وانظر المعجم الموسوعي لعلم اللغة التطبيقي، ص(٥٦).

(٤) انظر: الخطابي، لسانيات النص، ص(١٦)

(٥) انظر: الزناد، نسيج النص، ص(١١٥)، (١١٨)، وانظر: دي بوجراند، والخطاب والإجراء، ص(٣٢٠).

(٦) هكذا يفضل تمام حسان ترجمتها، وهي تقابل في الإنجليزية Pro-forms، أنظر: دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء ص ٣٢٠.

(٧) انظر: الفقي، علم اللغة النصي، ص(١١٦)، وانظر: الخطابي، لسانيات النص، ص(١٧).

(٨) انظر: كريستال، ديفيد، موسوعة اللغة، ص(١١٩). والمعجم الموسوعي لعلم اللغة التطبيقي، ص(٥٦)،

والفقي، ص٣٨-٤٠، والخطابي ص(١٧)، والزناد، ص(١١٨-١١٩).

• الإحالة الداخلية (النصية): Endophora.

• الإحالة الخارجية (المقامية): Exophora.

فالأولى إحالة على عناصر لغوية واردة في الملفوظ، ويكون ذلك بالرجوع إلى عنصر سابق أو بالإشارة إلى عنصر سيأتي داخل النص، وبذلك فإن الإحالة الداخلية (داخل النص) نوعان:-

١. إحالة على السابق (أو قبلية) Anaphora. وهي تعود على عنصر لغوي مفسر سبق التلفظ به.

٢. الإحالة البعدية أو الإحالة على اللاحق (Catapharo). ومن أوضح الأمثلة على هذا النوع ضمير الشأن في العربية أو غيره من الأساليب، كما في الأمثلة التي يذكرها الزناد:

"من تونس نقدم إليكم نشرة الظهيرة للأنباء، وهذا موجزها...."

"صرح ناطق باسم مجلس قيادة الثورة فقال ما يلي:...."^(١).

وغير ذلك من الأساليب التي ألفنا استقبالها من وسائل الإعلام، والتي تتضمن عودة الضمير على لاحق قصد التشويق، فانتشر استعمالها نحو: "في روايته الأخيرة التي ألفها قبل سنة بعنوان: "الفجر" استطاع الروائي الكبير أسامة أبو زيد توظيف الموروث الديني بشكل غير مألوف".

(١) الزناد، الأزهر، نسيج النص، ص(١١٩) ونشير هنا إلى أن هذا النوع من الإحالة سمي في التراث النحوي العربي بالمرجع المتأخر لفظاً لا رتبة، ومن أمثلته المشهورة، "على نفسها جنت براقش" و"من آمنه يؤتسى الحذر"، ومن الخطاب القرآني:

"فأوجس في نفسه خيفة موسى"، طه٦٧.

"ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون" القصص ٧٨.

"فيومئذ لا يسأل عن ذنبيه إيس ولا جان" الرحمن ٣٩.

أما النوع الثاني من الإحالة فهو الإحالة إلى عنصر خارج النص، وذلك بإحالة عنصر لغوي على عنصر إشاري غير لغوي موجود في المقام الخارجي، كاستعمال ضمير المتكلم أو المخاطب مثلاً الذي يحيل على ذات صاحبه المتكلم، فيرتبط بذلك "عنصر لغوي إحالي بعنصر إشاري غير لغوي هو ذات المتكلم"^(١). فضلاً عن أن العنصر الإحالي قد يشير إلى المقام ذاته. ومع ذلك فإن هناك من يفرق بين نوعين من الإحالة التي تتم داخل النص؛ فإضافة إلى النوع الأول الذي ذكرناه، هناك إحالة نصية أخرى، وهي إحالة عنصر معجمي على مقطع أو فقرة من النص، وذلك باستعمال ألفاظ خاصة نحو: قصة، خبر رأي، فعل... إلخ^(٢).

والأساس الأهم في الإحالة -مهما كان نوعها- أنها علاقة دلالية تخضع لقيود دلالي هو وجوب تطابق الخصائص الدلالية بين المحيل والعنصر المحال إليه^(٣)، أي أن ثمة عنصراً مفترضاً تنبغي الاستجابة له، وكذا يجب التعرف على الشيء المحال إليه سواء داخل النص أو خارجه، ويرى هاليدي وحسن أن نوعي الإحالة: الداخلية والخارجية يتفقان في هذا الأمر، لكنهما يذهبان في الوقت نفسه إلى أن الإحالة الخارجية (المقامية) تسهم في خلق النص لأنها تربط اللغة بسياق المقام، إلا أنها لا تسهم في اتساقه بشكل مباشر، أما الإحالة النصية فدورها فعال في اتساق النص ولذلك اتخذها معياراً للإحالة^(٤).

أما أهم وسائل الاتساق الإحالية كما قدمنا، فهي:-

١. الضمائر: وتقسم إلى منفصلة مثل: أنا، أنت، أنتم، هي، نحن،... إلخ.

(١) الزناد، الأزهر، نسيج النص، علم اللغة النصي، ص(١١٩)

(٢) انظر: المرجع نفسه، ص(١١٩)، والفقي، ص(٦٩-٧١)

(٣) الخطابي، لسانيات النص، ص(١٧)

(٤) انظر: المرجع نفسه، ص(١٧-١٨).

وضمائر متصلة بالفعل أو الاسم نحو: قرأتها، كتبوا لهم، رسالتني، رسالتنا....

إلخ^(١).

وفي علاقة الضمائر بالاتساق، يُمَيِّز بين أدوار الخطاب (أو الكلام) التي تشمل جميع

الضمائر الدالة على المتكلم والمخاطب، وغالباً ما تكون الإحالة مع هذه الضمائر خارجية كاستعمال الضمائر التي تشير إلى المتكلم أو الكاتب، أو الضمائر التي تشير إلى المخاطب.

ويشار هنا إلى أن هالدي وحسن لا يعدان الإحالة إلى خارج النص من عناصر

الاتساق^(٢). ولذلك فهما يفرقان بينها وبين الضمائر الأخرى التي تؤدي دوراً مهماً في اتساق

النص، وتشمل ضمائر الغيبة في الأفراد والتثنية والجمع، وقد صرحا بأنهما عندما يتحدثان عن

الوظيفة الاتساقية للإحالة فإن صيغة الغائب هي المقصودة على وجه الخصوص^(٣).

٢. ألفاظ الإشارة: وأقصد بها أسماء الإشارة المكانية والزمانية، والظروف الدالة

على الاتجاه، أو العناصر المعجمية التي تقوم بعمل الإشارة؛ فهي بذلك تشمل ألفاظاً نحو: "هذا،

هؤلاء، هذه، ذلك... الآن، غداً، هنا، هناك...، شرقاً، غرباً.. الأمام، الخلف...".

(١) هناك اختلاف بين العربية والإنجليزية -مثلاً- في استعمال ضمائر الملكية، فعلى سبيل المثال: My car is very old, what about yours?

مثال متنسق؛ فضمير الملكية (yours) له ميزة مزدوجة، وذلك أنه يتطلب محالين: المالك والمملوك، أما في العربية فإن استعمال هذا الضمير ونظائره من ضمائر الملكية، يقتضي إلغاء تلك الميزة، لأن ضمائر الملكية في العربية تنفصل عن المملوك؛ فالنص السابق يكون في العربية هكذا:

سيارتي قديمة جداً، ماذا عن سيارتك؟ أو باستعمال لفظ (خاصة: خاصتي، خاصتك... إلخ)، واللهجات المحكيسة تسلك طريقاً أخرى في استعمال هذه الضمائر وذلك باستعمال ألفاظ خاصة تشير إلى الملكية مثل، بتاع، تبع، تاع) وغيرها من الألفاظ المشابهة.

(٢) انظر كلام الخطابي على ذلك وتعليقه على كلام هالدي وحسن، محمد الخطابي، لسانيات النص، ص ١٨. استعملنا اللفظ (غالباً) لأنه يمكن استعمال هذا النوع من الضمائر بوصفها عناصر تحيل إلى عناصر داخل النص، وذلك كما في الكلام المستشهد به أو في بعض أنواع النصوص، كالنص السردي (مثلاً) لأن سياق المقام فيه يبنى من النص نفسه، فتكون الإحالة آنذاك نصية.

(٣) الخطابي، المرجع نفسه، ص (١٨)

وتتعلق جميع هذه العناصر اللغوية بالمقام الإشاري، لأنها غير ذات معنى ما لم يتعين

ما تشير إليه، وهي تقوم بوظيفة تعويض الأسماء وتتخذ محتوى مما تشير إليه^(١).

وتقوم هذه العناصر بتحديد مواقعها في الزمان والمكان داخل المقام الإشاري، وهي

كما عناصر الإحالة، لا تفهم إلا إذا ربطت بما تشير إليه، وبذلك تسهم في تحقيق اتساق النص؛

إذ تربط جزءا بجزء سابق، فهي تشير إلى كلمة أو جملة أو فقرة أو نص كامل^(٢).

وقد عد "دي بوجراند" أن هذا النوع من الإحالة يمثل مستوى متقدما، أي عندما تستعمل

الألفاظ الكنائية (اسم الإشارة) للدلالة على قطع طويلة من الخطاب^(٣).

٣. المقارنة: وهي شكل من أشكال الإحالة تحققها أدوات هي عبارة عن كلمات

مخصوصة تشير إلى مقارنة عامة أو خاصة، فالعامة يتفرع منها التطابق والتشابه والاختلاف،

والخاصة تتفرع إلى كمية وكيفية. وبشكل عام فإن المقارنة التي تسهم في اتساق النص، تتطلب

عنصرين لغويين لا يفهم اللاحق إلا من خلال علاقته أو مقارنته بالسابق، ومن أمثلة ألفاظ

المقارنة: نفس، أكثر، أفضل، أجمل، جميل، مثل يشبه، غير...^(٤)

٤. الاستبدال: لا تكاد الآلية التي تحقق بها عملية الاستبدال اتساق النص تختلف عن

تلك التي رأيناها في عملية الإحالة، وذلك أنها عملية تتم داخل النص، ويتم بتعويض عنصر في

(١) انظر: الزناد، نسيج النص، ص(١١٦)

(٢) استعمال اسم الإشارة (ذلك) مشيرا إلى عبارة أو جملة أو نص كثير في القرآن، انظر: النساء (١٣)، المائدة

(١١٩)، الأنعام (١٦)، التوبة(٧٢،٨٩،١٠٠)، يونس(٦٤) الصافات(٦٠)، البروج (١١)، النحل(١٠-١١)

وغيرها كثير.

(٣) يضرب دي بوجراند على هذا النوع من الإحالة المثال الآتي:

"Give your evidence" said the king, "and don't be nervous, or I'll have you excited on the spot". This didn't encourage the witness at all.

حيث يدل اسم الإشارة هذا (This) على مجمل ما قاله الملك. وانظر: كرسنال، موسوعة اللغة، ص(٣٢٣).

(٤) انظر: كرسنال، موسوعة اللغة، ص(١١٩).

النص بعنصر آخر، وهذه هي أهم وظيفة من وظائف الإحالة، غير أن الاستبدال علاقة تتم في المستوى النحوي المعجمي بين كلمات أو عبارات، أما الإحالة فهي علاقة معنوية تقع في المستوى الدلالي^(١).

وينقسم الاستبدال بالنظر إلى العنصر المعوض إلى ثلاثة أنواع:

١. الاستبدال الاسمي: ويقصد به استعمال ألفاظ معينة مكان أسماء وردت في

موضع سابق من النص^(٢). ومن ألفاظه: واحد، واحدة، آخر، أخرى. ومن الأمثلة عليه:

"لقد أصبحت سيارتك قديمة جداً، ألا تفكر بشراء أخرى".

٢. الاستبدال الفعلي، ويكون غالباً باستعمال الفعل (فعل، عمل) مكان فعل خاص، أو

مجموعة معلومات مبنية على أحداث. ومن الأمثلة الواضحة من القرآن:

"يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم

من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي

تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل"

(الممتحنة: ١).

فالفعل "يفعله" يحمل محتوى مجموعة من الأعمال التي نهى الله سبحانه عنها.

(١) انظر: الخطابي، لسانيات النص، ص (١٩).

(٢) انظر: الخطابي، المرجع نفسه، ص (١٩)، و "دي بوجراند" النص والخطاب والإجراء، ص (٣٢٥).

ومن الأمثلة الواضحة عليه أيضاً من القرآن ما ورد في قصة إبراهيم -عليه السلام-

مع قومه عندما حطم أصنامهم: "فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلا كَيْدًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ* قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا

بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ". (الأنبياء: ٥٨-٥٩).

ج. الاستبدال القولي: ومن أمثله:

- ما رأيك بالمرحبة التي شاهدناها معاً؟ هل تعتقد أنها كانت ناجحة في نقد

واقفنا الاجتماعي؟

- أظنها كذلك.

٥. الحذف

وهو علاقة لتساق معجمية نحوية^(١) تتم داخل النص، وتكون بافتراض عنصر

غير ظاهر في النص يهتدي المتلقي إلى تقديره اعتماداً على نص سابق مرتبط به.

والحذف الذي يقع في الجمل والنص أشكال مختلفة بعضها غير مهم من حيث

الاتساق، وبعضها له دور مهم في عملية الاتساق، ولفهم ذلك نعرض لأهم أشكال الحذف من

خلال الأمثلة، ونبدأ بما أشار إليه "دي وجراند" حيث أورد وجهة نظر وصفها بالمتطرفة إلى

حد، وذلك لأن أصحابها يرون أن المثال (أ) الآتي صورة تتسم بالحذف بالنظر إلى المثال (ب)

الذي يليه:

١. فتح نابليون إيطاليا، وبروسيا، والنمسا.

٢. فتح نابليون إيطاليا وفتح نابليون بروسيا وفتح نابليون النمسا.^(٢)

وهذا الشكل من الحذف كثير الاستعمال، وخاصة في سياق العطف، ويكون

يحذف المسند والمسند إليه لوجود ما يدل عليهما، ومنه:

(١) انظر: المعجم الموسوعي لعلم اللغة التطبيقي، ص ٥٦، وكرستال، موسوعة اللغة، ص ١١٩، ودي بوجراند،

النص والخطاب والإجراء، ص ٣٤٠.

(٢) انظر: دي بوجراند، المرجع نفسه، ص (٣٤٠).

- (ذهب طلابي إلى المكتبة فاشتري يوسف قلماً ونور كتاباً وورقاً ومحمد جريدة ومجلة).

- (عندما وصلت كان الطقس بارداً والشارع مظلماً والمحلات مغلقة).
ولعل صورة هذه الأمثلة مع الحذف هي الصورة المثالية بل إن ملء الفراغات بإعادة المحذوف، من غير فائدة معنوية، يضعف النص ويجعله مترهلاً.

وقد أشار "هاليدي وحسن" إلى هذا النوع من أشكال الحذف، وذكر المثل التالي: "يقرأ" جون "قصيدة و"كاثرين قصة"، ويعلق الخطابي بأن الحذف في هذا المستوى غير مهم من حيث الاتساق، لأن العلاقة بين طرفي الجملة علاقة بنيوية لا يقسوم فيها الحذف بأي دور اتساق^(١).

ولعل الحذف المؤثر في الاتساق هو الذي نجده في العلاقة بين الجمل أو النصوص وغالباً ما يكون ذلك في الحوار نحو:-

- أي نوع من الكتب تفضل؟
- اللغوية.

ونحو: * كم سنة قضيت وأنت تعمل لتنتج هذه الموسوعة؟

- تسع سنوات.

ومع أن هذا النوع لا يختلف عن الأول، كثيراً، في سهولة ملء الفراغات المحذوفة في البنية السطحية لاعتمادها على النص السابق، فلا شك أن الحذف هنا يساهم في اتساق الخطاب لأن فهمنا للجزء الثاني من الحوار لا يستقيم إلا في علاقته بالجزء الأول.

وسنرى أن الحذف - بمستويات مختلفة - له حضور قوي في الخطاب القرآني في الحوار والقصص، فيكون النص به أكثر اتساقاً وانسجاماً. ومن أمثلة هذا الحذف ما نجده في سورة يوسف مما يمكن تسميته الحذف المسرحي أو الدرامي، ومنه حوار إخوة يوسف مع أبيهم

(١) الخطابي، لسانيات النص، ص ٢٢.

يعقوب - عليه السلام - بعد انفاقهم على إبعاد يوسف: " قَالَ قَاتِلْ مِنْهُمْ لَّا تَعْلَمُوا يَوْسُفَ وَالْقَوْهَ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَّا كَأَمْنَا عَلَيَّ يَوْسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ."

(يوسف: ١٠-١١)

فالآيتان في مشهدين مختلفين -؛ الأولى في نهايته مشهد اجتماع الإخوة ليقرروا ماذا هم فاعلون بيوسف، والثانية تمثل مشهد اجتماع الإخوة عندما جاؤوا طالبين من أبيهم أن يرسل معهم يوسف في اليوم التالي . فحذف ما بين المشهدين كأن يكون مثلاً: فأجمعوا على ذلك و جاؤوا إلى أبيهم ليسألوه أن يرسل معهم يوسف فيأخذوه لينفذوا خطتهم.

فحذفه القرآن اعتماداً على تمثله أو استحضاره في الذهن ضرورة، فكان المحذوف المستحضر في الذهن رابطاً بين النص (المشهد السابق) والنص (المشهد اللاحق). غير أن المحذوف هنا لا نقره اعتماداً على النص السابق فحسب، وإنما من معرفتنا بالعالم أو إدراكنا للمواقف المشابهة. ومثله ما ورد في سورة يوسف كذلك عندما اتهم إخوته بالسرقة ووجد صواع الملك في رحل أخيه فكان الحكم أن يرجعوا ويبقى أخوهم (الذي وجد الصواع في رحله) فقرر أخوهم الأكبر ألا يعود حتى يأذن له أبوه أو يحكم الله له وطلب إليهم أن يرجعوا إلى أبيهم: "ارْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ، وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ."

قَالَ : بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ

(يوسف ٨١-٨٣).

الْحَكِيمُ ."

فنلاحظ أن هناك محذوفاً بين قول أخيههم وقول أبيهم، كأن يكون مثلاً: " فرجعوا إلى أبيهم

وقالوا له: يا أبانا إن ابنك سرق وأسأل القرية وأسأل العير وإنا لصادقون" ، أو (ففعولوا) قال.....

٦. الاتساق المعجمي : و يعتمد على اختيار المرسل (المتكلم- الكاتب) عناصر

معجمية معينة ترتبط بعناصر سابقة ضمن بعض العلاقات الدلالية المنظمة^(١). وهذه العلاقات يمكن أن تكون:

١. علاقات التكرير، وذلك بإعادة العنصر المعجمي، كما في المثال: " لا أستطيع

الهروب من ذكريات الحرب اللعينة، أثار الحرب في كل مكان، وكل ما نحن فيه الآن بسبب الحرب" حيث يوحى التأثير التراكمي^(٢) لهذا الاستعمال بشدة درجة تأثير الحرب على الناص. ونشير هنا إلى ضرورة وحدة الإحالة وفقاً لمبدأي الثبات والاقتصاد^(٣).

ولا يقتصر التكرير بوصفه شكلاً من أشكال الاتساق المعجمي على إعادة العنصر المعجمي، وإنما يضم صوراً أخرى مثل تكرير المعنى بإيراد مرادف للعنصر السابق، أو شبه مرادف أو عنصر عام يتضمنه^(٤).

ولتوضيح هذه الصور ننظر إلى الأمثلة الآتية:

- المرادف: "كنا دائماً نجتمع قبل سفره لنودعه ونحُثه على العودة سريعاً، لكن رحيله هذه المرة مختلف".

(١) انظر: المعجم الموسوعي لعلم اللغة التطبيقي، ص(٥٧)، والخطابي، لسانيات النص، ص(٢٤-٢٥).

(٢) استخدم هذا التعبير تمام حسان ترجمة لـ: "Accumulative ويورد دي بوجراندي" المثال الآتي في تقرير هذا شاهد عيان يصف أثر طوفان حصل في أريزونا:

There's water through many homes. I would say almost all of them have water in them its just completely under water.

ويعلق بأن تكرار لفظ (الماء) أدى إلى تأثير تراكمي يظهر مدى غزارة الماء خاصة في مكان ينذر سقوط ماء فيه. انظر: دي بوجراندي، النص والخطاب والإجراء، ص(٣٠٣).

(٣) المرجع نفسه، ص ٣٠٣.

(٤) بوردي الباحثان المثال الآتي: شرعت في الصعود إلى القمة (الصعود، التسلق، العمل، الشيء) مهله الغاية. انظر، الخطابي، لسانيات النص، ص (٢٤-٢٥).

- الشبيه بالمرادف: "قضيت السنة كلها في تأليف الكتاب، مع ذلك كان العمل

ممتعاً".

- العنصر العام: "استطعنا في النهاية إقناعه بالعدول عن رأيه، لقد كان امرأ في

غاية الصعوبة".

وتحسن الإشارة هنا إلى أن إعادة العنصر المعجمي أو إيراد مرادفه أو ما يشبهه لا

يشترط فيها تطابق في الصيغة أو الكمية (العدد)؛ فقد يكون الأول مثلاً اسماً، والثاني فعلاً،

وربما كان الأول جملة والثاني مفرداً وهكذا.

وقد أشار "دي بوجراند" إلى هذه المسألة ونبه على أنه يمكن لإعادة اللفظ أن تستعمل

مع انتقال الوظيفة النحوية لعبارة ما، ووصف عملية الانتقال من الصفة- مثلاً- إلى الاسم، بأنها

تشير بشكل واضح إلى عموم الترابط المفهومي مع تجنب الرتابة التي يؤدي إليها مجرد

التكرار، فضلاً عن أن هذا النوع من إعادة اللفظ يعطي منتج النص القدرة على خلق صورة

لغوية جديدة^(١)، ومن الأمثلة على هذا النوع من الاتساق في القرآن:-

"وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن

مستهزئون*الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون". (البقرة: ١٤-١٥)

وقوله: "وإذ يكرهك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير

(الأنفال: ٣٠).

الماكرين".

(١) دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص (٣٠٦).

وقوله: "ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل إنما الغيب لله فاتظروا إنني معكم من

المنتظرين* وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا قل الله أسرع مكرا إن

رسلنا يكتبون ما تمكرون". (يونس: ٢٠-٢١).

ولا أريد هنا تفصيل الحديث في العدول عن صيغة إلى صيغة أخرى، ويكفي القول إن كل صيغة تحمل إichاءات دلالية تختلف عن إichاءات أي صيغة أخرى تشترك معها في الجذر، ولا يكون اختيار صفة ما إلا بما يخدم قصد الناص بحيث لا يصح عنصر في موضع صاحبه. وهذه المسألة عامة في اختيار صيغة اللفظ أساسا، فالخبر الاسم ليس كالخبر الفعسل، والفرق جلي بين الخبر صفة مشبهة مثلا والخبر إذا كان فعلا وهكذا. وهذه مسألة بينها عبقرى العربية عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧٤هـ) في دلائل الإعجاز. يقول في الفرق بين الخبر اسما والخبر فعلا: "وبيانه أن موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئا بعد شيء، وأما الفعل فموضوعه على أنه يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئا بعد شيء"^(١). ويقول عن الفرق بين الخبر صفة مشبهة والخبر فعلا: "وإذا أردت أن تعتبره حيث لا يخفى أن أحدهما لا يصلح في موضع صاحبه فانظر إلى قوله تعالى: "وكلبهم بأسط ذراعيه بالوصيد* الكهف (١٨) فإن أحدا لا يشك في امتناع الفعل ههنا، وأن قولنا كلبهم ببسط ذراعيه لا يؤدي الغرض"^(٢).

(١) الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، قراءة وتعليق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، ط ٣، القاهرة، ١٩٩٢، ص (١٧٤).

(٢) المرجع نفسه، ص (١٧٥).

٢. الاقتران أو التضام (المصاحبات اللغوية).

ويعني توارد عناصر لغوية بعلاقة تلازم أو تضمن بينها، بحيث يتوارد مثلا زوج من الكلمات بالفعل ، وذلك بأن تكون دلالة إحداهما مثلا عكس دلالة الأولى، فتكون علاقة التلازم هي التعارض، أو يتوارد زوج من الكلمات بالقوة وذلك بأن تكون دلالة إحداهما متضمنة في دلالة الأخرى كعلاقة الجزء بالكل مثلا . فمن الأمثلة على علاقة التعارض:

لقد كدت تقتل نفسك من البكاء يا رجل" النساء لا يبكين هكذا" (١).

ومع أن هاليدي وحسن يشيران إلى علاقات التعارض والكل والجزء والجزء الجزء وعلاقة الإطار العام، فإنهما يريان أن إرجاع العناصر اللغوية المتضامة أو المتواردة إلى علاقة واضحة تحكمها ليس دائما أمرا متيسرا، هذا إذا كان ممكنا . أمثال ذلك الأزواج الآتية: المحاولة -النجاح ، المرض - الطب ، النكتة- الضحك. ولذلك لا بد من الاعتماد على الحدس اللغوي للمتلقي، مما يعني اختلاف مستويات التلقي أو التأثر بالنص، وذلك لعدم توافر آلية ضابطة أحيانا تمكننا من الجزم بضم عنصر لغوي إلى مجموعة دون أخرى، وإنما نستطيع إدراك أنه أقرب إلى مجموعة من أخرى (٢).

وهكذا فقد تناولت الدراسات النصية الغربية الاتساق من خلال عناصره أو أدواته التي عرضناها، وكانت دراسة هاليدي وحسن أكثر الدراسات المتخصصة تفصيلا في هذا المجال. وقد قامت دراستهما لوسائل الاتساق على أساس أنها موجودة في النص، وإذا توافر النص عليها تحققت نصيته، وبذلك يكون الاتساق هو السمة الأساسية التي تميز النص من اللانص، غير أن هذا المعيار الحاسم (الاتساق) الذي تعرض عليه النصوص فيثبت نصيتها أو ينفيها عنها، قد أغفل، وبشكل واضح، دور المتلقي في صنع اتساق النص؛ فهما رغم إشارتهما الضمنية إلى

(١)معظم المراجع التي تحدثت عن الاتساق المعجمي ذكرت المثال الآتي:

Why dose this boy wriggle all the the time? Girls don't wriggle.

التطبيقي، ص(٥٧)، والخطابي، لسانيات النص، (ص٢٥).

(٢)انظر: الخطابي، لسانيات النص، ص (٢٥).

المتلقي فإن إشارتهما تلك تفقد قيمتها ما لم يكونا مدركين للدور الأساسي الذي يقوم به المتلقي في الحكم على معطى لغوي بأنه متسق، وبذلك يكون نصا، أو أنه غير متسق فتنتقي عنه النصية.

إن دور المتلقي في الحكم على النص متصل بمعيار القبول ، فمن الممكن أن نكون أمام متواليه من الجمل تتوافر على جميع عناصر الاتساق لكنها لا تكون منسجمة . وقد أشار "كريستال" إلى هذه النقطة ، وجاء بالمثال الآتي:

" يتكون الأسبوع من سبعة أيام ، كل يوم أطعم قطتي ، القطة لها أربعة أطراف ، القطة على البساط ، بساط كلمة تتكون من أربعة أحرف"^(١). فرغم الاتساق المعجمي بين العناصر اللغوية في هذه الجمل المتواليه ، لا يمكن بحال أن نعدها نصا منسجما . وفي حالات أخرى نجد اختلافا في الحكم على معطى لغوي ما نتيجة اختلاف المتلقي ؛ فما يمكن أن يكون نصا لدى متلق ما، لا يراه غيره نصا ، خاصة عندما يكون هذا المعطى اللغوي مرتبطا بسياق أو موقف ما مدرك لدى متلق وغائب عن غيره.

لقد افترض هالدي وحسن أن الاتساق شيء معطى في النص، وهذا كان أساس الانتقاد الذي وجه إلى عملهما، فمن جهة لا يكفي توافر وسائل الاتساق في نص ما ليعد متسقا كما تقدم، ومن جهة أخرى قد نجد معطى لغويا مفككا في الظاهر يخلو من معظم أدوات الاتساق لكنه يكون متسقا كما في المثال:

(١) انظر: كريستال، موسوعة اللغة، ص(١١٩).

حوار مع نجيب محفوظ

"توظيف الموروثات الدينية والشعبية في الرواية العربية"

الخميس : السابعة مساء ، قاعة عرار.

الدعوة عامة.

فهذا يعد نصا متسقا رغم عدم توافر أدوات اتساق، شكلية، فيه . لكن درجة اتساقه تختلف باختلاف المتلقين؛ فالذي يعرف من هو نجيب محفوظ يستطيع التنبؤ بأن ما سيسمعه منه مرتبط بتجربته الروائية، وإذا كان ممن يقرأون أدب محفوظ يستطيع أن يتنبأ باتجاهاته وآرائه . أما ما يتعلق بارتباط الجمل المتتالية أو انسجامها فيسهل إدراكه - مع إمكانية الاختلاف في درجة السهولة - نظرا لتجاورها وافتراض المتلقي الانسجام فيها، وبالتالي يتعامل معها على أساس الانسجام ، فضلا عن تشابه هذا الخطاب مع غيره مما يألّفه المتلقي، فالحوار له موضوع وزمان ومكان.

لقد كان بإمكان الباحثين تجنب الانتقاد لو ربطا الاتساق بقبول النص، أي بإبراز دور المتلقي في صنع الاتساق .

وتجدر الإشارة إلى أنه رغم دقة المنهج الذي اتبعه هالدي وحسن في تتبع قيود استعمال وسائل الاتساق في النص - بشكل مواز مع ما يجعل عينة لغوية نصا - فإن عملهما لم يستطع الاقتراب من حل مسألة مهمة جدا في تحليل النص، هي الأهم في رأبي :

ما الآلية التي يتبعها الناص في استخدام عناصر الاتساق لينتج نصا منسجما (متماسكا

تركيبيا وداليا) ؟

وما هي ضوابط الاختيار الأسلوبي التي تجعل الناص يتجه إلى استخدام عنصر اتساق

ما أو العدول عنه ؟ فمثلا: متى يختار استعمال الحذف أو الإظهار أو التكرار... إلخ ؟ ولماذا ؟

ليس هذا فحسب ، وإنما -ضمن العلاقة الاتساقية الواحدة- هنالك دواعٍ لاختيار أداة

دون أخرى؛ فقد يربط الناص مثلا بين جملتين في النص دون استعمال أداة شكلية، وإن اختار

استعمال الأداة دخل في عملية اختيار أخرى ضمن منظومة أدوات الربط، وهكذا كل ذلك لا بد

متصل بقصد الناص وبما يؤدي إلى تماسك النص تركيبيا ودلالة معا.

بعد ذلك : ما دور المتلقي في عملية إنتاج النص؟ وكيف تتجه العلاقة بينه وبين

النص؟ هل تسير في اتجاه واحد فقط : من النص إلى المتلقي؟

كل هذه التساؤلات لا يسعنا للوصول إلى حلول لها ما قيل عن أدوات الاتساق أو

الربط النحوي، إنما تتجلى أهمية الاتساق وأدواته كخطوة أساسية وأولى عندما نتلقى النص

ونحلله، فننطلق من سطحه لفهم بنيته العميقة، وكذلك لا نستطيع إدراك كيفية حصول الاتساق

وضوابط الاختيارات الأسلوبية قبل أن ندرك دور أدوات الاتساق في النص بوصفها روابط

نحوية دلالية.

ومن هنا لم يكن بد من الاهتمام بهذا الجانب ، لأنه الباب الذي ندخل منه إلى عالم

النص لنحلله أو نفسره أو نفهمه، خاصة وأن هدف التحليل النصي ليس إلا اكتشاف معنى

للنص.

ومع هذا كله ، فإن ثمة تعديلا مهما طرأ على رأي "هالدي" في دور المتلقي في صنع

النص: "إن الناس يذهبون إلى أبعد مدى في تأويل أي شيء متكلم أو مكتوب كنص، وهم

مستعدون لافتراض أن في التعبير أو الإنتاج أو في فهمهم خطأ ما ، بدل قبول أنهم يواجهون لا نصاً^(١).

ويبدو أن رأيه بالنسبة للوسائل التي يتسق بها النص لم يتغير، ومع ذلك فإن الاتساق لم يعد أكثر من مكون من مكونات انسجام النص^(٢): لكي يكون نص ما منسجماً يجب أن يكون منسقاً، لكن يجب أن يكون أكثر من ذلك، يجب أن يستعمل وسائل الاتساق بالطرق التي تبرزها القائمة التي يعد حالة منها، يجب أن يكون مناسباً دلالياً ، وذلك بتحقيقات معجمية نحوية منسجمة، مثلاً يجب أن يكون له معنى، ويجب أن تكون له بنية^(٣).

ورغم قيمة هذا التعديل فيما يتعلق بدور المتلقي في صنع النص ، وبدور الاتساق في انسجام النص، فإن التساؤلات التي طرحناها حول كيفية عمل وسائل الاتساق لتحقيق التماسك النصي في التركيب والدلالة وحول ضوابط الاختيار الأسلوبي ، تبقى ماثلة وتحتاج إلى حل.

ولعل الباحث الهولندي "فان دايك" اقترب كثيراً من حل هذه المسألة وتميز عن هلايدي وحسن في نظريته التي اتسمت بالشمولية وعدم وضع فواصل حاسمة بين الربط النحوي والربط الدلالي - المفهومي في النص، لذلك حاول الإجابة عن السؤال الآتي^(١): ما هي الضوابط أو الشروط التي تحكم عملية الترابط في النص ؟ فذهب إلى أنها عدة شروط:

الأول: العلاقة القائمة بين دلالات الألفاظ الواردة في جمل النص ، كعلاقات التضام والتكرير والتعارض أو التضامن والتلازم التي أشرنا إليها، فالمثال الآتي-مثلاً- متسق ومقبول:

(١) هلايدي، (مدخل إلى النحو الوظيفي)، ص ٣١٤، وفقاً لمحمد الخطابي، لسانيات النص، ص (٢٥٦) يذكر أن كتاب هلايدي: مدخل إلى النحو الوظيفي صدر عام ١٩٨٥م، وكتابه: الاتساق في اللغة الإنجليزية سنة ١٩٧٦م.

(٢) انظر: الخطابي، المرجع نفسه، ص (٢٥٦)

(٣) هلايدي، مدخل إلى النحو الوظيفي، ١٩٨٥، ص ٣١٤، وفقاً لمحمد الخطابي، لسانيات النص، ص ٢٥٦.

لم تنجب أميمة ، فقد كانت عاقرا . وذلك بالنظر إلى العلاقة بين مفهوم (عاقرا) وعدم القدرة على الإنجاب . وهي علاقة التلازم بالتطابق أو السببية بين المفهومين ، والعلاقة الاتساقية في هذا المثال تطابق ما جاء على لسان زكريا في القرآن " قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا " (مريم: ٨) . غير أن هذا الشرط ليس كافيا ليحكم من خلاله باتساق النص ، فاختلاف الإحالة مثلا يؤدي إلى عدم الاتساق ؛ فلو عدلنا المثال السابق ليصبح - مثلا- : " لم تنجب هند ، فقد كانت أميمة عاقرا " ما كان مقبولا ؛ إذ لا يستقيم أن يكون عقر "أميمة" موجبا لعدم إنجاب "هند" ، فهو إذا غير متسق ، والسبب اختلاف الإحالة في جزأي النص . ولذلك كان الشرط الثاني لاتساق النص : التطابق الإحالي .

لكن "فان دايك" تنبه إلى عدم كفاية هذين الشرطين لتحقيق الاتساق في كل نص ، إذ ثمة نصوص يتوافر فيها الشرطان السابقان لكنها لا تكون متسقة كالمثال الآتي :

" قرأت أميمة كتبا كثيرة عن تاريخ الفن ، فقد كانت عاقرا " . إذ يتعذر إدراك الكيفية التي يتعالق بها كون أميمة عاقرا وقراءتها كتب تاريخ الفن ، وكان يمكن لنا فهم ترابط الأحداث لو كانت الكتب التي قرأتها أميمة عن علاج العقم مثلا أو لو أن أميمة حاولت أن تتبنى طفلا ، حتى يتحقق ترابط الأحداث في النص على أساس علاقة السبب والنتيجة .

واستخلص "فان دايك" أن الاتساق يتطلب ترابط الوقائع أو الأحداث في النص ، وأشار إلى أن هذا الترابط لا بد أن يستجيب لبعض الشروط ، وأهمها : صحة الترتيب الزمني ، ويضرب المثاليين التاليين : (٢)

(١) انظر : الخطابي ، لسانيات النص ، ص ٣٢ .

(٢) الخطابي ، لسانيات النص ، ص (٣٢)

١. كان الطقس حارا أمس، فذهبنا إلى الشاطئ.

٢. كان الطقس حارا أمس، فذهبنا إلى الشاطئ الأسبوع الماضي.

فالجملـة (٢) غير مقبولة ومن ثم غير مترابطة (غير متسقة) نظرا للخلـل في

الترتيب الزمني للأحداث خلافا للمثال (١). وثمة شرط آخر مهم في مسألة ترابط الأحداث

سماه: "تعالق العوالم الممكنة"، ويضرب عليه المثال التالي:-

"حلمت أن الطقس حار جدا فذهبت إلى الشاطئ"؛ فهو يمثل نصا غير متسق لأن

واقع كون الطقس حارا في عالم حلم ليس سببا عاديا للذهاب إلى الشاطئ في عالم فعلي^(١).

ويستخلص أن الجمل تكون مترابطة إذا كانت الوقائع التي تشير إليها قضاياها متعلقة

في عوالم متعلقة، ويتحقق هذا التعالق من خلال علاقات مختلفة منها علاقة السبب والنتيجة،

ويضع قانونا لهذه العلاقة:

يسبب:- (أ) الحدث (ب) إذا كان (أ) شرطا كافيا لظهور (ب)، وذلك كما في الأمثلة

السابقة التي قلنا إنها متسقة؛ فالعقم سبب كاف لعدم الإنجاب، كما أن شدة حرارة الطقس سبب

كاف للذهاب إلى الشاطئ.

وذكر علاقات أخرى تسهم في ترابط الأحداث أو الوقائع في النص، وذلك بالنظر إلى

قواعد مشتركة بين هذه الأحداث، وينتهي إلى أن "الشرط الأدنى لترابط القضايا التي تعبر

عنها جملة أو متتالية هو ارتباطها بموضوع التخاطب نفسه"^(٢).

(١) المرجع نفسه، ص(٣٢)

(٢) الخطابي، لسانيات النص، ص(٣٤) ومن العلاقات التي ذكرها "فان داك" وفقا للخطابي ما تسمى بعلاقة

النشاط المتماثل (الترجمة للخطابي) ويضرب المثالين التاليين لتوضيح المسألة:

أ. ذهبنا إلى الشاطئ لكن "بيتر" ذهب إلى المسيح.

ب. ذهبنا إلى الشاطئ وولد "بيتر" في "مانشيستر"

وهكذا نرى أنه يشترط، لتكون الجمل في النص مترابطة ، أن تكون الوقائع فيها مترابطة، فتؤدي المقدمات إلى نتائج تتسق معها. وإذا كان التعالق ظاهرا أو مباشرا قوي الترابط ، ويضعف إذا لم يكن مباشرا ، مع تركيزه على جانب مهم في هذا المجال هو مراعاة قبول المتلقي للنص من الناحية الدلالية.

ومع تطور نظرة "فان دايك" إلى مفهوم الاتساق فإن معظم إسهاماته تركزت على تعالق القضايا في النص ، ومدى ارتباطها بموضوع الخطاب ، وكانت معظم العلاقات التي أشار إليها تمثل أساسا به يحكم على درجة منطقية النص ، وهذا ما جعل كلامه على الاتساق يختلط بما هو من اختصاص موضوع الانسجام رغم إدراكه لمجال كل منهما.

بقيت مسألة أخيرة هي أساس في موضوع الاتساق متصلة بكفاءة النص وفعاليتته، وهي مسألة تتجاوز - إلى حد ما - مرحلة الصحة والقبول المتعلقة بإنتاج النص إلى درجة الكفاءة النصية ومدى قوة النص ، وهي الهدف الذي يستعان بأدوات الاتساق ووسائله لتحقيقه.

إن الكفاءة النصية التي تتحقق باستخدام وسائل الاتساق تتجلى من خلال " صياغة أكبر كمية من المعلومات بإتفاق أقل قدر من وسائل التعبير" (١) . ويقدم "دي بوجراند" تلخيصا لدور أدوات الاتساق في الكفاءة النصية ويظهر هذا الدور بعدة صور منها:

١. ضغط البنية السطحية.

٢. حذف العناصر السطحية.

فالمثال (أ) متسق ومقبول لأن الأحداث فيه مترابطة ، فمع أن علاقة السبب والنتيجة لا تعمل هنا، فإن ثمة علاقة أخرى وهي تماثل النشاط الممارس، بعكس المثال (ب) الذي لا يعد مقبولا لأن الوقائع الواردة فيه متباعدة، انظر: المرجع نفسه، ص ٣٢-٣٣.

٣. استبقاء العناصر التي يراد تميمتها أو رفضها^(٢).

٤. الإشارة إلى المعلومة أو التمييز أو الهوية.

٥. التوازن الملائم بين التكرار والاختلاف في البنية السطحية وفق ما تتطلبه

اعتبارات الإعلامية^(٣).

ويبدو أن دراسة أدوات الاتساق تثبت أن اللغة تقدم بدائل متعددة لاتساق عبارات سطحية أو أجزاء من النص دون إهدار المعلومات الكامنة تحتها، وهذه المجموعات من البدائل تدل المشاركين في الموقف الاتصالي على الجزء النشط من المعلومات الذي سيحدث توسيعه أو تعديله ، وبهذا تعد هذه البدائل التي تقدمها اللغة ضمن ما يسمى بأدوات الاتساق، مساهمة في الكفاءة النصية التي تمثل مدى انتفاع النص في الاتصال بنتائج الاقتصاد في الجهد^(٤).

إن الناظر في ما تحدثه أدوات الاتساق من تغيرات في البنية السطحية لا بد يلاحظ أنها تعمل في تلك البنية على أساس مبدأي الثبات والاقتصاد، فالثبات يؤدي إلى تناسق العبارات السطحية التي تشترك معا في محتوى مفهومي عام مثلث^(١) والاقتصاد - كما تقدم - يتم باستخدام أدوات اتساقية معينة تمكن من تكثيف النص من خلال اختزال حجم العناصر اللغوية ويبلغ ذلك ذروته في حالتي الإحالة لغير مذكور والحذف، أما في الاتساق المعجمي الذي يتم من خلال إعادة العنصر اللغوي في العبارات السطحية ، فإن هذا التكرار على أساس مبدأي الثبات والاقتصاد يتطلب تطابق الإحالة، ولكنها قد تؤدي إلى تضارب في النص ، وذلك عندما يكون

(١) تمام حسان، مقدمة: النص والخطاب والإجراء، ص(٢٩)، وانظر كلام "دي بوجراند"، المرجع نفسه، ص(٢٩٩).

(٢) يقصد بالتنمية: التوسيع أو التطوير أو التعديل.

(٣) "دي بوجراند" ، النص والخطاب والإجراء ، ص(٣٠٢)، وانظر كلام تمام حسان في المقدمة، ص(٣٠).

(٤) دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص(٢٩٩)، وانظر ص(١٠٦).

اشترك في اللفظ مع اختلاف في المدلولات ، وهنا تكون مخالفة لمبدأي الثبات والاقتصاد.
ويرى "دي بوجراند" أن المخالفة المتعمدة لهذين المبدأين يمكن أن تزيد من الإعلامية
والاهتمام^(١). ويؤكد ذلك تمام حسان في مقدمة الترجمة ويضرب على ذلك المثال الآتسي من

القرآن:

" ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة . . . "

(الروم ٥٥).

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

(١) المرجع نفسه، ص(٣٠٢)، (٣٠٤).

(٢) المرجع نفسه، المقدمة، ص(٢٩-٣١) ، وانظر ص(٣٠٤) . والمثال الذي أتى به "دي بوجراند" على ما

سماه بالمخالفة المتعمدة عبارة عن بيت من قصيدة قالها الشاعر قبل إعدامه:

"My glass is full, and now my glass is run".

حيث كلمة (Glass) الثانية تعني الساعة الرملية التي تمثل اقتراب ساعة النهاية.

انسجام النصّ / الخطاب

أسارع في البدء إلى تسجيل أنني لن أقف طويلاً مع الانسجام مفصلاً كما في الاتساق

لسببين بسيطين:

الأول: نستطيع هنا تجاوز المقدمات، إذ أغنت عنها مقدمة الاتساق.

والثاني: التداخل بين المفهومين إلى حد يجعل بعض الباحثين يستخدمون أحد

المصطلحين ليدل عليهما معاً، مع إدراك الفارق بين مفهوم كل منهما.

ولعل أبسط ما يمكن أن يقال أولاً أن الاتساق تماسك يتحقق في المستوى النحوي للنص

بينما الانسجام يكون في المستوى الدلالي والمستوى التداولي (البراغماتي).

إن مصطلح "الانسجام" ترجمة لمصطلح (Coherence) ومن أهم تعريفاته أنه:

"خاصية الوحدة الدلالية، والمغزى المفهوم من الخطاب، وهو ليس الصفة المميزة للأشكال

اللغوية في النص وما ترمز إليه أو تدل عليه -مع مساهمتهما فيه- بل هو الصفة المميزة لتفاعل

الأشكال اللغوية والمعاني لدى المتلقي من خلال المعرفة والمنطقية. وليس الانسجام صفة مطلقة

للنص وإنما يرتبط دائماً بالمتلقي والسياق^(١)". ويعرفه "كريستال" بأنه خاصية تتأغم المفاهيم

والعلاقات في النص، بحيث نستطيع تصور استدلالات مقبولة فيما يتعلق بالمعنى الضمني

للنص^(٢). وبشكل أكثر بساطة يعني الانسجام: العلاقات التي تربط معاني الأقوال أو الجمل في

الخطاب، وتعتمد هذه العلاقات أو الروابط على مراعاة المتلقي و السياق^(٣).

(١) المعجم الموسوعي لعلم اللغة التطبيقي، ص(٥٥).

(٢) كريستال، ديفيد، موسوعة اللغة، ص(١١٩).

(٣) انظر: النقي، علم اللغة النصي، ص(٩٤).

ويفضل سعد مصلوح ترجمة مصطلح (coherence) بالحبك، وعرفه بأنه الاستمرارية الدلالية التي تتجلى في منظومة المفاهيم، والعلاقات الرابطة بين المفاهيم^(١). والاستمرارية الدلالية يقصد بها وجود سلسلة من الجمل تسهم في تطوير الفكرة الرئيسية، وترتبط فيما بينها بعلاقات دلالية، بحيث يظهر النص وحدة دلالية أو كلاً موحداً. واعتماداً على هذا المفهوم، يكون اتساق النص مرحلة مؤدية إلى الانسجام غير أننا نذكر بما قلناه من أن توافر عناصر الاتساق في النص لا يعني بالضرورة قبوله أو انسجامه، فقد نجد نصاً محكم الاتساق بفضل روابطه الشكلية يخلو من علاقات تربط معاني أجزائه، وإذا لا يكون منسجماً. وبالمقابل قد نكون أمام نص من نوع خاص يخلو من أدوات الاتساق الشكلية، لكننا لا نجد صعوبة في تلقّيه أو فهمه أو معرفة مغزاه ... إلخ من خلال تمثّل بنيته العميقة، وعندئذ يكون منسجماً. مع التنبيه هنا إلى أنّ خلو نص من أدوات الاتساق الشكلية لا ينفي اتساقه ضرورة.

ويمكن فهم العلاقة أكثر بين الاتساق والانسجام، بتصور مستوى عمل كل منهما، وقد أولى علماء النص الترابط النصّي - ويشمل كليهما - عناية قصوى، وقدموا تصوراً دقيقاً لصور هذا الربط؛ فالاتساق، وهو الربط النحوي المعجمي،: "خاصية دلالية للخطاب تعتمد على فهم كل جملة مكونة للنص في علاقتها بما يفهم من الجمل الأخرى"^(٢). وهذا يتطلب دراسة العوامل التي يعتمد عليها الترابط على المستوى السطحي للنص مما يتمثل في مؤشرات لغوية مثل صور الربط (بأداة أو من غير أداة)، وأدوات الإحالة، وغير ذلك من العناصر الرابطة والتي تقوم بوظيفة "إبراز العلاقات السببية بين العناصر المكونة للنص في مستواه الخطي المباشر للقول"^(٣). وإذا، فإن الترابط على المستوى السطحي يعتمد على وسائل لغوية ذات وظيفة مزدوجة شكلية (نحوية معجمية) ودلالية. أما الانسجام فهو تماسك دلالي يتجاوز الأبنية النحوية السطحية

(١) انظر: النقي، علم اللغة النصي، ص(٩٤)

(٢) فضل، صلاح، بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عالم المعرفة، ع١٦٤، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٠، ص٢٦٣. وانظر: بحيري، سعيد، علم لغة النص، ص(١٢٣).

(٣) فضل، صلاح، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص(٢٦٣-٢٦٤).

للتصوص ويتصل بمجمل العالم الدلالي للنص، وهو يتجلى في الحالات التي قد يبدو فيها النص مفككاً في السطح، ولكننا لا نلبث أن ننتبين وراءه بنية عميقة محكمة في تماسكها. وقد يعتمد اكتشاف هذه البنية على بعض المفاهيم التي يستخدمها علماء النص، مثل: "المفاهيم المنطقية والدلالية، ومجموعات الحقول الموضوعية المركبة، وطبيعة علاقات الترميز الأدبي" (١).

لقد رافق البحث في التماسك النصي اختلاف بين بعض علماء النص في تحديد المبادئ العامة للانسجام، لكن يمكن القول إنهم توصلوا إلى مفاهيم كلية- وإن اختلفوا في أسمائها- فإذرة على إبراز الانسجام الذي يتوصل إليه- وفقاً لـ "فان دايك"- من خلال ما سماه "البنية الكلية للنص" التي ترتبط بموضوع النص الكلي، وهي بنية تجريدية كاملة تمثل منطق النص أو البنية العميقة الدلالية والمنطقية، حيث يرى فان دايك أن وصف التمثيل الدلالي للجمل يظل غير مناسب دون توضيح الأبنية المجردة التي تتضمنه أو تشكل أساساً له، ومن ثم يجب أن تبحث في مستوى أعلى من مستوى الجمل أو متتاليات الجمل (٢). والبنية النصية تحتاج إلى خيط من علم النحو، وعلم الدلالة، وعلم التداولية الذي اختص علم لغة النص باستيعابه (٣).

ويرى فان دايك أن فهم عمليات الترابط بين المتتاليات النصية والتماسك الوظيفي بين الوحدات الكبيرة قائم على أسس دلالية ومنطقية؛ فالعلاقات التي تقوم بين الجمل أو العبارات في متتالية نصية يمكن أن تركز على الدلالات وهي العلاقات الداخلية، أو على الروابط بين العناصر المشار إليها أو المدلول عليها في الخارج، وهي علاقات الامتداد الخارجية، فإذا لاحظنا الروابط التي تقوم بين العبارات باعتبارها "كلاً موحداً" أمكننا أن نصوغ

(١) بحيري، علم لغة النص، ص ١٢٤.

(٢) المرجع نفسه، ص (١٢٤)

(٣) انظر: المرجع نفسه، ص (١٢٥)

لترابطها المبدأ الآتي: ترتبط العبارتان فيما بينهما، إذا كان مدلولهما، أي الظروف المناسبة إليهما في التأويل، مترابطة فيما بينهما^(١).

إن أهم فرق بين التماسك الدلالي (الانسجام) والتماسك الشكلي (الاتساق) اعتماد الثاني على وسائل لغوية ذات وظيفة تركيبية و دلالية ؛ والأول يعني الوحدة والاستمرار والتشابه ويقوم على قواعد وأبنية تصويرية تجريدية. وكما عرفنا يمثل هذان المعياران أهم معايير النصية، يربط الثاني بين مكونات النص السطحي (علامات لغوية)، والأول يمثل الوظائف التي تتشكل من خلالها مكونات عالم النص، أي انه عملية ربط بين تصورات عالم النص؛ فأحدهما متحقق في مستوى يختلف عن مستوى تحقق الآخر^(٢).

ونظراً لكثرة الاتجاهات والمسميات في بحث مسألة الانسجام النصي، وتشعب الدراسة إلى مجالات متعددة، من خلال جهات نظر تتباين أحياناً، رأيت أن أركز في موضوع مبادئ الانسجام على واحد من أهم من تعرضوا لهذا الدرس - من وجهة نظري وفي حدود ما اطلعت عليه- وهو الباحث اللغوي الهولندي "فان دايك" الذي عرضنا بعض آرائه في تماسك النص^(٣). وهو- وفقاً للبحيري- أبرز من أولى نحو النص عناية غير محددة وقدم تصورات جوهرية في بحثه عن تحليل النص^(٤) بحيث يكاد لا يخلو بحث في علم النص بعده لم يأخذ منه أو يشر

(١) انظر: فضل، صلاح ، بلاغة الخطاب و علم النص، ص(٢٦١).

(٢) بحيري، علم لغة النص، ص(١٤٥-١٤٦).

(٣) حاول محمد الخطابي جمع أهم آراء "فان دايك" وضمنها كتابه: لسانيات النص، مرجع مذكور، ص (٤٦-٣٤)

(٤) انظر: بحيري، علم لغة النص، الباب الثاني ، هامش ، رقم (٤٠)، ص(٣١٠)

إليه. وينظر إليه "صلاح فضل" على أنه المبشر بتحويل البلاغة إلى نظرية النص من خلال بحوثه التي نشرها منذ مطلع السبعينات عن علم لغة النص^(١).

ويقوم مفهوم انسجام النص عند "فان دايك" على أساس جوهري يتمثل في أن عمليات الترابط بين أجزاء النص تقوم على أسس دلالية ومنطقية، يراعى فيها موقف المتلقي من النص، من خلال البنية الكبرى للنص، ولعل ما قدمناه في الصفحة السابقة عن نظرية "فان ديك" إلى الانسجام يمثل المحور الأساسي الذي دارت حوله معظم آرائه في تحليل النص، وبخاصة انسجام النص. وتنبه هنا- قبل عرض مجمل آرائه في الانسجام- إلى أنه ينظر إلى التماسك النصي نظرة كلية، بمعنى أنه لا يكاد يفرق بين مصطلحي "الاتساق" و"الانسجام"^(٢).

يؤكد ذلك الأمثلة التي ناقشناها في نهاية حديثنا عن الاتساق والتي يركز الربط فيها على أسس دلالية واضحة. وعليه يمكن القول إنه يرى الربط الشكلي مهماً جداً لتحقيق انسجام النص، لكن إن لم يكن له معنى فلا قيمة له، إذ الأمر ينظر إليه بمجمله، وانسجام النص يتحقق بمعناه أو إدراك مغزاه.

علاقات الانسجام: تحليل الانسجام

يرى "فان ديك" أن الشرط الأدنى لترابط القضايا التي تعبر عنها أجزاء النص، هو ارتباطها بموضوع النص أو التخاطب^(٣) ويحاول أن يستخلص العلاقات التي تساهم في انسجام

(١) فضل، صلاح، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص ٢٥١.

(٢) أرى أن من الأهمية هنا الإشارة إلى أن الفصل بين الاتساق والانسجام في الدراسة جاء مراعاة لطبيعة عرضهما منفصلين في دراسات معظم علماء النص، وإن كان بالإمكان دراسة الاتساق بوصفه أداة من أدوات الانسجام. وانظر كلام "جون لا بنز" على التماسك والترابط في كتابه: اللغة والمعنى والسياق، ترجمة عباس صادق الوهاب، أفاق عربية، ط١، بغداد، ١٩٨٧، ص ٢١٨-٢٢٠.

(٣) انظر: الخطابي، لسانيات النص، ص (٣٤).

الخطاب بين المقاطع المكونة للخطاب الكلي، فضلاً عن تحليل علاقات الانسجام داخل المقطع الواحد. ويؤكد أن الدلالة المتحصلة من النص دلالة نسبية، لأن الجمل والمقاطع لا تؤول بمعزل عن النص السابق عليها.

ويخلص من تحليل ثلاثة مقاطع من قصة بوليسية^(١)، إلى أن العلاقات التي تساهم في انسجام كل مقطع، ثم العلاقات بين المقاطع، قابلة للتصنيف على النحو الآتي:

علاقة التطابق الإحالي: ويعنى بها التطابق بين الذات والعناصر التي تحيل إليها وهو ما سبق الحديث عنه في دراسة الاتساق.

- علاقات التضمن والاحتواء، نحو علاقة الكل والجزء وعلاقة الملكية

- الحالة العادية المفترضة للعوالم أو الأفكار التي يشتمل عليها الخطاب، وهو

شرط معرفي يعتمد على توقعات المتلقي حول البنيات الدلالية للخطاب.

ولتوضيح هذه العلاقة نضرب المثال التالي الذي يمثل جزءاً من نص (قصة) عالمه أحد

المقاهي:

"دخل عرفة إلى المقهى وهو يشعر برغبة في الحديث مع صديق، تنقل بنظره في وجوه الزبائن الذين امتلأ بهم المقهى، لكنه لم يستطع تبين ملامح معظمهم، فالدخان المنبعث من السجائر كاد يحجب الرؤية. صادفه النادل في طريقه فقال له: كالعادة، قهوة. جلس إلى طاولة فارغة قرب النافذة. خلع معطفه وجلس، ثم جاءه النادل. تناول جريدته من جيب معطفه وبدأ يتصفحها وهو يرتشف قهوته، إلا أنه لم يلبث أن غادر المكان دون أن يتكلم مع أحد".

(١) انظر: الخطابي، لسانيات النص، ص(٣٤-٣٥).

فإن معرفتنا بالعالم المتعلق بالمقهى - إن صح التعبير - الذي يستوعب الحديث عن القضايا المتضمنة في جمل النص السابق تساهم في تحديد توقعاتنا حول البنى الدلالية للخطاب، وتحقيق الانسجام.

فالقضايا (أو الأحداث) التي يتضمنها النص تتعالق -بوصفها حالات عادية- مع العالم المفترض لمحور المقهى:

- يتردد إلى هذا المكان منذ تقاعد
- نظر في وجوه الزبائن.
- الدخان يحجب الرؤية.
- جلس إلى طاولة.
- مجيء النادل.
- قرأ الجريدة.
- شرب القهوة.

في حين تكون الجمل الآتية غير مقبولة، وغير منسجمة مع الحالات العادية للعالم

المفترض:

- انقطع عن المجيء إلى المقهى منذ تقاعد
- جلس تحت الطاولة
- صلى قرب النافذة
- صنع القهوة
- لبس معطفه (في مكان خلع معطفه)

وعدم قبولها أو انسجامها هنا لا يعني عدم انسجامها في خطابات أخرى، إن

تحققت لها السياقات المناسبة^(١)

ونعود إلى النص لنستعرض -باختصار- كيفية توظيف العلاقات التي أشرنا إليها في

بداية الحديث عن تحليل الانسجام، ولننظر إلى علاقة التطابق بين الذات والعناصر التي تحيل

إليها، فمثلاً تستمر هذه العلاقة من بداية المقطع إلى نهايته بالإحالة إلى "عرفة":

عرفة: يشعر (هو) / يتردد (هو) / تقاعد (هو) / جلس (هو) / غادر (هو) ... إلخ كما أن

هناك تطابقاً بين "المقهى" و"المكان".

أما علاقة التضمن فمن أمثلتها علاقة الجزء بالكل:

الطاولة والنافذة / النادل ← المقهى = مكان خاص

ومن أمثلة علاقة الملكية:

المعطف والجريدة والقهوة ملكيات لـ "عرفة".

البنية الكلية للنص (موضوع الخطاب)

يقوم مفهوم البنية الكلية على فكرة أساسها أن المعنى الكلي للنص والمعلومات التي

يتضمنها، أكبر من مجرد مجموع المعاني الجزئية للجمل والمقاطع التي تكونه، أي أن هذه

الدلالة (الكلية) لنص تنشأ عنه بوصفه بنية كبرى شاملة، هي موضوع علم النص، فالنص "ينتج

(١) كل جملة إن تحققت لها سياقاتها المناسبة تساهم في الانسجام، فالجملة الأولى مثلاً: "انقطع عن المجيئ إلى

المقهى منذ تقاعد"، هي الأكثر انسجاماً لو كان المقهى المقصود قريباً من مكان عمل الشخص موضوع

الحديث، وكان من عادته الذهاب إليه كل يوم في استراحته، والجمل الباقية لكل منها سياق لا يصلح مكانها

فيه غيرها.

معناه بحركة جدلية لا تتمثل في الانتقال من الجزء إلى الكل، وإنما على وجه الخصوص بالتكليف الدلالي للأجزاء في ضوء البنية الكلية الشاملة للنص^(١).

وإذا كانت الأبنية الكبرى دالة على الوحدات البنيوية الشاملة للنص، فإن أبنية أجزاء النص، والمنتاليات فيه، يمكن أن تسمى "الأبنية الصغرى". والفائدة من تحديد ذلك في علم النص، أن منتاليات الجمل التي تمتلك أبنية كبرى، هي التي تسمى من وجهة النظرية خصوصاً. وينقل "صلاح فضل" عن (فان ديك) أن البنية الكبرى للنص هي تمثيل تجريدي للدلالة الشاملة للنص، فإذا كان ينبغي للمنتاليات أن تحقق شروط التماسك الخطي أو الأفقي، فإن النصوص لا تكفي بتحقيق هذه الشروط، لمجرد أنها مجموعة من المنتاليات، بل لابد لها من تماسك بنيوي شامل^(٢).

ويتبنى فضل أقوال "فان ديك"، في نظرتة إلى البنية الكبرى للنص بأنها بنية تجريدية للدلالة الشاملة للنص؛ يقول: "فالتحليل النصي إذا بدأ من البنية الكبرى (Macro-structure) المتحققة بالفعل، وهي تتسم بدرجة من الانسجام والتماسك. ويشرح لنا علماء النص الشروط التي تتيح لنا أن نعرف ما إذا كانت المتوالية النصية متماسكة أو لا، على اعتبار أن هذه الشروط هي التي يتوقف عليها وجود النص أو الاعتداد به^(٣).

وانطلاقاً من هذه الرؤية للبنية الكلية (أي أنها بنية تجريدية) يقترب مفهومها من مفهوم موضوع الخطاب، بل إنهما شبه مترادفين عند "فان ديك"، ولذلك يرى بعهد تحليله بعض الخطابات أن وصف مفهوم موضوع الخطاب (أو جزء من الخطاب) يتطابق مع وصف البنيات الكلية، أي أن البنية الكلية لمنتالية ما من الجمل هي تمثيل دلالي من نوع ما^(٤). ويفهم من ذلك

(١) انظر: فضل، صلاح، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص(١٠٧)

(٢) المرجع نفسه، ص(٢٥٥)،(٢٥٦)، نقلاً عن "فان ديك" La ciencia del texto، ١٩٨٤، ص٥٣، وفقاً لصلاح فضل.

(٣) الكلام لصلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص(٢٥٤).

(٤) الخطابي، لسانيات النص، ص(٤٤)، نقلاً عن "فان ديك" النص والسياق، ١٩٧٧، ص(١٣٧).

أن كلا من موضوع الخطاب والبنية الكلية تمثل دلالي، إما لقضية ما، أو لمجموعة من القضايا، أو لخطابٍ بأكمله^(١)، من هنا فإن لكل مقطع من مقاطع النص بنيته الكبرى، وتجمع هذه البنى لتكون بنية النص الكبرى.

وتكمن أهمية موضوع الخطاب عند "فان ديك" في أنه يعد بنية دلالية يوصف بواسطتها انسجام الخطاب، إذ يختزل موضوع الخطاب الإخبار الدلالي للمتاليات، مترابطةً، وينظمه ويصنّفه^(٢).

أما الكيفية التي يتوصل من خلالها المتقون -القراء مثلاً- إلى تحديد البنية الكبرى للنص، فتقوم على اختيار عناصر مهمة في النص، قد يختلف تحديدها من شخص إلى آخر، نظراً لتباين المعارف والثقافات والاهتمامات ووجهات النظر، مما يؤدي إلى تغير البنية الكبرى بتغير المتلقي، ومع ذلك فإنه على مستوى التفسير الإجمالي لنص ما، لا بد من توافر توافق كبير بين مستخدم اللغة، وهو ما يتأسس على القواعد المشتركة بينهم، وبغير هذا التوافق الذي تحدده نظريات الاتصال في استعمال اللغة، يستبعد كل فهم ضروري لانتقال المعلومات. وعليه فإن اختلاف البنى الكبرى يتم جزئياً^(٣).

وقد سمي "فان ديك" العمليات التي يسلكها المتلقي لبناء البنية الكلية (موضوع الخطاب) بالقواعد الكبرى، وهذه القواعد هي: قاعدة الحذف، وقاعدة الاختيار، وقاعدة التعميم، وقاعدة التكوين والبناء^(٤).

وبالإجمال، فإن جميع هذه العمليات قائمة على الحذف أو اختزال عناصر لغوية من

النص، ولكن بما يخدم قانوني الاقتصاد والثبات، غير أن هذا الحذف يتم بطريقتين؛ الأولى:

(١) المرجع نفسه، ص(٤٤).

(٢) المرجع نفسه، ص(٤٢).

(٣) فضل، صلاح، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص(٢٥٦).

إلغاء عناصر لغوية من النص، كما في القاعدتين الأولى والثانية.

والثانية: استبدال مفاهيم عامة أو كلية بعناصر خاصة أو جزئية كما في القاعدتين الثالثة والرابعة، وبذلك فإن هذه القواعد تتطلب القيام بعملية تجريد وتعميم، شرط أن لا يؤدي ذلك إلى فقدان النص محتواه الأصلي، ودلالته المقصودة. ولتحقيق ذلك تراعى عملية التضمن المباشر، بحيث يختار التصور الأعلى مباشرة، وهو ما يقابل في علم الحساب "القاسم المشترك الأكبر"؛ فمثلاً لا يتم الانتقال من مجموعة (اليهودية والمسيحية والإسلام) إلى أديان فحسب، وإنما إلى أديان سماوية وهكذا.

وبالنتيجة فإن البنية الكبرى للنص مرتبطة بموضوعه الكلي، وتتجلى في ضوئها كفاءة المتلقي في التعامل مع النص، إذ يقوم بتحديد الإطار الذي يرى من خلاله البيانات الواردة دلاليًا في النص، ولذلك فإن أهم بنية دالة على وجود بنية كلية في الخطاب أو عدمه هي استجابات المتلقي أو ردود فعله عندما يتعرض لنص ما، فإذا قبل مجموعة من المتتاليات وكانت عنده منسجمة، تكون ذات بنية كلية، أما إذا لم يتوصل إلى موضوع الخطاب مثلاً، أو لم يدرك هدفه، أو لم يكن له معنى لديه، كان الخطاب مفتقراً إلى بنية كلية تجمع شتاته، ولذلك يكون غير منسجم وغير مقبول في سياق تواصله^(١).

ويحاول الخطابي بعد عرض جهود "فان دايك" تقديم رؤية مختصرة لمفهوم البنية الكلية وقواعد الوصول إليها، يقول: "نخلص مما تقدم إلى أن لكل خطاب بنية كلية ترتبط بها أجزاء الخطاب، وأن القارئ يصل إلى هذه البنية الكلية عبر عمليات متنوعة، تشترك كلها في سمة الاختزال. على إن البنية الكلية ليست شيئاً معطى، حتى وإن كانت هناك بينات متنوعة أو

(١) انظر: المرجع نفسه، ص(٢٥٧-٢٥٩) والخطابي، لسانيات النص، ص(٤٤-٤٥).

(٢) انظر: فضل، صلاح، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص(٢٦٠-٢٦١) والخطابي، لسانيات النص، ص(٤٥).

مؤشرات على وجود هذه البنية وإنما هي مفهوم مجرد (حدسي) به تتجلى كلية الخطاب ووحدته
...»^(١).

تحليل الخطاب

أول ما أنبه إليه - وأنا استعمل تحليل الخطاب عنواناً هنا - أن هذا المنهج في
الدراسة اللغوية للنص (الخطاب) لا يمثل نوعاً جديداً من الدرس اللغوي مخالفاً لما قدمناه في
"نحو النص" و"لسانيات النص"، وإنما هو مستوى يتسع لكليهما يهتم - أكثر ما يهتم - بدراسة
الملفوظات والأقوال والنصوص في الاستعمال التواصلية، أي مرتبطة بسياقاتها. وكما أن
"لسانيات النص" شاملة لنحو النص، فإن علم "تحليل الخطاب" أضحى المنهج الأكثر شمولية
واتساعاً من "علم لغة النص"، وجول انشغال الدارسين إليه، ذلك أن التحليل الكلي للخطاب
يتطلب دراسته ضمن سياقاته، مع مراعاة عناصر هذه السياقات من متلقين وقناة اتصال والقصد
من الخطاب... إلخ.^(٢) وعليه فإن "تحليل الخطاب" توسيع لمجال الدراسة اللغوية للنصوص،
يشتمل دراسة الخطاب ضمن ظروفه المصاحبة.

(١) الخطابية، المرجع نفسه، ص(٤٦).

(٢) عرفنا أن نحو النص يسعى إلى صياغة قواعد لغوية أو دلالية تحكم توالي الجمل وترابطها في نص ما،
وبذلك هو فرع من لسانيات النص، (انظر المعجم الموسوعي لعلم اللغة التطبيقي، ص(٣٥٢) Text
grammar) ، ويشير المعجم إلى أن "تحليل الخطاب" قد حل مكان "لسانيات النص"، في حين استبدل بنحو
النص ما يسمى بتحليل المقولات أو الأنماط النصية: Genre Analysis وهو مصطلح حديث نسبياً ويقصد
به: تحليل أشكال الخطاب (المكتوب أو المنطوق) المتعارف عليه في مجتمع لغوي ما، ومن أمثلة هذه
الأشكال التي يعنى بها هذا التحليل: المحاضرات والمحادثات والخطابات والملفوظات والإعلانات
والروايات ... إلخ، أي أنها تشمل كل مستويات الخطاب الاتصالي، (انظر: المعجم الموسوعي لعلم اللغة
التطبيقي)، ص(١٤٠) (Genre). أو هو تحليل استعمال اللغة في المواقف العملية. وانظر: Vijay K.
Bhatia, *language use in professional settings: Analysing Genre*. Longman Group, UK limited, 1993.
P:13.

وانطلاقاً من التكامل بين "تحليل الخطاب" و"نحو النص"، فإن كل ما قدمناه عن نحو النص ووسائل الاتساق والأنسجام لا شك داخل أساساً في "تحليل الخطاب"، ولذلك سنحاول التركيز هنا على جديد هذا المنهج، وسنعرض لأهم القضايا التي شكلت ملامحه.

ويعرف تحليل الخطاب بأنه دراسة الكيفية التي بها تتوصل المقاطع النصية المتتالية المستعملة في الاتصال اللغوي إلى تأدية الدلالة والقصد بين مستعمليها^(١).

أي كيف يتحقق الأنسجام بين طرفي التواصل عند استخدام اللغة؟ فالأنسجام لا ينتج كلية من الأشكال اللغوية والمحتوى الإبلاغي في النص، ولا ننفي إمكانية مساهمتها في تحقيق هذا الأنسجام، لكنه ينتج بشكل أساسي من تفاعل النص مع المشاركين/ أطراف الاتصال، ولذلك لا يكون الأنسجام خاصية مطلقة، وإنما هو متصل بالسياق الذي يظهر فيه الخطاب^(٢). ويسهم هذا السياق في تواصلية الخطاب وفي انسجامه أصلاً. والسياس يتشكل باختصار من المرسل والمتلقي والزمان والمكان.

ومن أهم المؤلفات في مجال تحليل الخطاب كتاب: (تحليل الخطاب) لمؤلفة "براون وبول"^(٣)، الذي يعده محمد الخطابي نقلة نوعية في هذا المجال.

أما المحور الذي تدور دراستهما لتحليل الخطاب حوله، فيتلخص في محاولة الإجابة عن تساؤل ورد في مقدمة كتابهما: "كيف يستعمل الإنسان اللغة من أجل التواصل؟ وعلى الخصوص، كيف ينشئ المرسل رسالات لغوية للمتلقي، وكيف يشغل المتلقي في الرسائل اللغوية بقصد تأويلها؟"^(٤).

(١) المعجم الموسوعي لعلم اللغة التطبيقي، ص(٩٩): Discourse analysis

(٢) المرجع نفسه، ص(٩٩)

(٣) Brown and - Yule, *Discourse Analysis*, Cambridge University press, 1983.

(٤) انظر: المرجع نفسه، المقدمة، ص(٤) : IX والخطابي، لسانيات النص، ص(٥٠).

والظاهر أن دراسة "تحليل الخطاب" وبخاصة لدى "براون ويول" تعنى بالخطاب بوصفه عملية تواصلية لا مجرد منتج لغوي معزول عن السياق وأطراف التواصل. ولأن "تحليل الخطاب" يعني التعامل مع اللغة عملية تواصلية، فإنه يشير إلى أن الانسجام نسبي يتأسس على تعامل المتلقي مع النص، وليس شيئاً معطى، ومن هنا فليس ثمة نص منسجم في ذاته ونص غير منسجم في ذاته باستقلال عن المتلقي، فالانسجام مستمد من فهم المتلقي وتعامله مع النص، وهذا يؤكد ما قلناه سابقاً من أن خلو النص من الروابط الشكلية لا ينفي بالضرورة انسجام النص، وبالمقابل فإن توافر الأدوات الاتساقية والروابط الشكلية في نص ما لا يعني -دائماً- إن النص منسجم، إذ لا يملك النص في ذاته المقومات الكافية لانسجامه، ولا بد من متلقٍ يسند هذه المقومات.

أما أهم مبادئ الانسجام وعملياته -وفقاً لـ "براون ويول"- فيمكن تلخيصها بما يلي:-

١. السياق الخارجي: ويُعني به جميع العناصر (غير اللغوية) المحيطة بالنص التي تسهم في تأويله. فاختلاف السياق أو عنصر واحد فيه يؤدي إلى اختلاف في فهم مدلول النص أو هدفه^(١). مبدأ تقييد التأويل أو ما يسمى بالتأويل المحلي^(١): وهو مبدأ على أساسه

-
- (١) هناك عناصر متعددة يمكن أن تدخل في مفهوم السياق، ويمكن تصنيف أهمها فيما يلي وفقاً لـ براون ويول:
 - أ. المرسل.
 - ب. المتلقي.
 - ج. المشاركون: وهم متلقون غير مباشرين وغير مقصودين بالخطاب، إلا أنهم يؤثرون في تخصيص الحدث الكلامي.
 - د. الموضوع.
 - هـ. المقام: وهو كل ما يتعلق بالحدث التواصلية: زمانه ومكانه، والعلاقات بين أطراف التواصل.
 - و. القناة: وهي الوسيلة التي بها تم التواصل بين المشاركين في الخطاب: كلام، كتابه، إشارة.
 - ز. النظام: اللغة أو اللهجة أو الأسلوب اللغوي المستعمل.
 - ح. شكل الرسالة اللغوية: جدال، عظة، خطبة.

ينبغي للمتلقي أن لا ينشئ سياقاً أكبر مما يحتاجه للوصول إلى تأويل ما، وذلك بتقييد تأويل النص اعتماداً على تراكمية الخطاب، والنظر إلى اللاحق بناء على السابق، ولذلك فإن أي تأويل للنص لا بد أن ينسجم مع المعلومات الواردة في الخطاب، وبشكل عام يجب أن يتضمن الخطاب مؤشراً يدعم تأويلاً ويبعد غيره.

٢. مبدأ التشابه^(٢)، ويقصد به التعامل مع الخطاب من خلال علاقته بخطابات سابقة شبيهة فالتجربة السابقة مهمة جداً في تعامل المتلقي مع الخطاب، وتتجلى أهميتها في المساهمة في إدراكه للاطرادات عن طريق التعميم، وفي قدرته على التوقع.

٣. التخريض^(١): ويعني خدمة بؤرة الخطاب، وذلك بافتراض أن في الخطاب مركز جذب، تحوم حوله أجزاء النص. وهذا المركز قد يكون عنوان النص، أو الجملة الأولى فيه مثلاً. وبما أن الخطاب ينتظم على شكل متواليات خطية من الجمل، فإن هذه الخطية ستتحكم في تأويله بناء على أن بداية النص ستؤثر في تأويل ما يليها.

ويتم التخريض بعدة صور منها: التكرير، واستعمال الضمائر مثلاً، ومن أهم وسائله: العنوان الذي يؤثر كثيراً في تأويل المتلقي، لأنه يثير لديه توقعات قوية حول ما يمكن أن يكونه موضوع الخطاب، وهو من أهم مفاتيح الخطاب. وننبه هنا إلى اختلاف العنوان عن موضوع الخطاب.

ط. المفتاح: ويقصد به تقييم الرسالة، (موعظة حسنة، نص مضحك).

ي. الغرض أو القصد الناتج عن الحدث التواصلية.

ولا يشترط توافر جميع هذه العناصر لدى محلل الخطاب في جميع الأحداث التواصلية، إلا أنه كلما زادت معرفة المحلل لخصائص السياق كلما كان أكثر قدرة على التنبؤ بما يحتمل أن يقال. الخطابي، لسانيات

النص، ص(٥٢-٥٣). وانظر: بروان ويول، *Discourse Analysis* ، ص(٣٨-٤٠).

(١) محمد الخطابي، لسانيات النص، ص(٥٦)

(٢) المرجع نفسه، ص(٥٧)

وقد أقام "براون ويول" على هذه المبادئ ما يسمى بعمليات الانسجام، وأهمها المعرفة الخلفية أو المسبقة التي تنظم في ذاكرة الإنسان ثم تنتشط في عملية فهم الخطاب من خلال بعض المفاهيم التي تسهم في كشف الكيفية التي يتوصل بها المتلقي لفهم الخطاب وتأويله، وهذه المفاهيم هي: الأطر، والمدونات، والسيناريوهات والخطاطة، والاستدلال التجسيري، والاستدلال كرابط مفقود. ويخلصان - فيما يتعلق بالاستدلال - إلى أن المتلقي يلجأ إلى الاستدلال عندما يتعطل فهم النص وتأويله نتيجة فراغات أو تقطعات ينبغي أن تملأ للوصول إلى تأويل معين^(٢).

ما يهمنا هنا أن كل ما قيل في مجال تحليل الخطاب، بوصفه عملية تواصلية لا يكاد يخرج عن تحليل الخطاب وفق المقولة القديمة: لكل مقام مقال، ومراعاة المقال لمقتضى الحال، سواء من جهة المرسل أو من جهة المتلقي. ومن المهم أن نفهم علاقة هذا المنهج باللسانيات الاجتماعية التي تعنى بالتغيرات الأسلوبية للغة، ومدى مساهمة عناصر المجتمع في هذه التغيرات، والتي بها تفهم علاقة اللسانيات بالنقد الأدبي.

وثمة وجهة نظر يجدر الاهتمام بها، فيما يتعلق بتحليل الخطاب، قدمها "مازن الوعر" في ورقة يعرض فيها لإشكاليات التداخل بين القضايا اللسانية، وتتلخص في أن تراكمية العلم أدت إلى أن تحل الأسلوبيات محل البلاغة، كما أن علم تحليل الخطاب يحل يوماً بعد يوم محل الأسلوبيات، فهو - على حد قوله - نظرية قامت على أنقاض الأسلوبيات ومناهجها المتعددة * ذلك لأن هذا العلم هو أكثر تطوراً وأشد حساسية تجاه النص الأدبي الذي لم تستطع البلاغة

(١) الخطابي، لسانيات النص، ص(٥٩)

(٢) انظر المرجع نفسه، ص(٦١-٧٥)

والأسلوبيات أن تتعامل معه على نحو توافقي عميق، فقد استطاع هذا العلم التعامل مع الشبكات الدلالية والثقافية والاجتماعية والدينية والنفسية والسيمولوجية للنص الأدبي بعمق^(١).

ومع أن الكلام هنا يركز على النص الأدبي، فإنه ينسحب على كل نص يمثل رسالة تواصلية. ويشير الوعر إلى أن الغاية من علم تحليل الخطاب مساعدة المتلقي على معرفة ما لا يمكن معرفته باستخدام المناهج الأسلوبية القديمة، وتمكينه من فهم النص بشكل يتناسب والسياقات الاجتماعية والنفسية والتاريخية واللغوية والجمالية للمرسل والمتلقي، ويشبه النص الأدبي بخاصة بـ "كيسولة" مضغوطة ومشحونة بالمعلومات ذات الأبعاد الحضارية المتشابهة، ويمثل فتح هذه الكيسولة وتفكيك عناصرها ثم توزيعها توزيعاً وظيفياً ثم إعادة تركيبها أولى مهمات علم تحليل الخطاب^(٢).

ويرى الباحث أن نظرية "تحليل الخطاب" هي نفسها نظرية "الأسلوبيات" وما بعد الأسلوبيات ولا تناقض، وفقاً لصفة تراكمية العلم، حيث يضمن القديم من الجنس المعرفي نفسه في الحديث، كما أن الحديث يضمن في ما هو أحدث منه في حركة التاريخ^(٣).

إن "تحليل الخطاب" يحاول الكشف عن بنية الخطاب الدلالية وتحديدتها من خلال دلالة اللغة ودلالة ما وراء اللغة، فالخطاب يخرج عن ذاته لإنجاح عمليتي الإيصال والتواصل بأدوات يستعيرها من خارج اللغة (سيمولوجيا، وعي القارئ، السياق الزماني والمكاني... إلخ). ولكن عندما تتم عملية الفهم والإفهام تصبح هذه الأدوات جزءاً لا يتجزأ من الخطاب^(٤) ومع ذلك فإن

(١) الوعر، مازن، قضايا لسانية، إشكاليات التداخل، مجلة المعرفة، وزارة الثقافة، الجمهورية العربية السورية، ع(٣٧٩). نيسان، ١٩٩٥. ص(١٣٨).

(٢) الوعر، مازن، المرجع نفسه، ص(١٣٨).

(٣) الوعر، قضايا لسانية، ص(١٣٦).

(٤) المرجع نفسه، ص(١٤٠).

اكتفاء الخطاب باستعمال أدوات من داخل اللغة والابتعاد عن الأدوات غير اللغوية - السيميولوجية مثلاً - يؤدي إلى ما يسمى مثالية النص، وإلى أن يفسر الخطاب نفسه بنفسه لتحقيق الإيصال والتواصل.

ويشير الباحث إلى مسألة في غاية الأهمية، خاصة ونحن ندرس تحليل الخطاب القرآني، وهي إن عبقرية الناص تتلخص في قدرته على كشف ما لا يسهل على الإنسان العادي كشفه في اللغة ليوظفه في خدمة النص، من خلال العدول به إلى أبعد مسافة من مسافات العدول، ويؤى، ورأيه حق، أن حقيقة مفهوم الإعجاز القرآني تكمن في هذه المسألة، وذلك بأنه استطاع - من داخل اللغة العربية وشبكاتهما الصرفية والنحوية والدلالية والسياقية اللغوية- أن يولد اللامتاهي في أدوات متناهية، وبذلك استطاع أن يحقق للغة العربية مفهوم "التوالد" اللغوي من داخل اللغة ليوظفه ويستثمره داخل اللغة نفسها، وذلك للتعبير عن الكون المرئي واللامرئي، فلا أحلى ولا أجمل من البنية القرآنية العربية التي تتطلق من اللغة نفسها لتعدل عنها إلى أقصى درجات العدول (حذفاً وتقديراً وتأخيراً وتضميناً وتشبيهاً واستعارة وكناية وحصراً وتقيداً،... إلخ) وبذلك تحقق البنية النظرية المثلى للغة العربية^(١). والصحيح أن من أهم أسس تحليل الخطاب القرآني محاولة الكشف عن ملامح قوته وجودته وتميزه من خلال اختياراته الأسلوبية^(٢)، التي توظف فيها اللغة توظيفاً دقيقاً محكماً، فكل لفظ هو الأصلح في سياقه، لا يستقيم فيه غيره، وكذلك كل تركيب، أو ما زاد عن ذلك أو قل؛ فأهمية التقديم مثلاً في النص تكمن في اختصاصه بفائدة لا تكون مع التأخير، وكذا تختص كل صورة من صور الاختيار الأسلوبية بفائدة لا تكون مع غيرها، فما كان نكرة لم يصلح معرفة، وكذلك في الحذف والذكر

(١) الوعر، قضايا لسانية، ص(١٤٣).

(٢) أقتراح استعمال مصطلح الاختيار الأسلوبية بدلاً من العدول أو الانزياح، وهما الأكثر تداولاً، وذلك لسببين: الأول: إن مفهوم الاختيار الأسلوبية أشمل، والثاني: إن العدول يفهم منه ترك الأصل أو المثال إلى غيره، وهذه مسألة تقديرها نسبي، إذ ليس ثمة اتفاق دائماً على شخصية الأصل.

والتقديم والتأخير وغيرها من الصور التي يمثل كل زوج منها طرفين لا يقوم أي منهما مكان الآخر وما ينبغي له.

بقيت مسألة مهمة متصلة بتحليل الخطاب، تعد منهجاً من مناهجه، وتصلح له أساساً لا يستغنى عنه، وهي البراغماتية اللغوية التي أميل إلى استخدام مصطلح "المقاميات" ترجمة لها^(١). وهي متصلة بالسياق الذي يراعى في الحدث التواصلية إنتاجاً واستقبالاً وتحليلاً، فهي تعنى بالعلاقة بين النص وعناصر الموقف التواصلية المرتبطة به بشكل منظم، أي سياق النص، وهو مفهوم تجريدي تستخدمه "المقاميات" يدل على الموقف التواصلية، ولذلك تعنى " بالشروط والقواعد اللازمة للملاءمة بين أفعال القول ومقتضيات المواقف الخاصة به، أي للعلاقة بين النص والسياق"^(٢). كما أنها علم يعنى بالشروط اللازمة لكي يكون الخطاب مقبولاً وناجحاً وملانماً في الموقف التواصلية، وبذلك تحقق تكاملاً مع النحو والدلالة حيث يعنى النحو بتوضيح

(١) مصطلح المقاميات استخدمه سعد مصلوح نقلاً عن نبيل علي، وهذه الترجمة لمصطلح (Pragmatics) فهي رأيي موفقة إلى حد كبير أو هي على الأقل أكثر توفيقاً بين الترجمات الأخرى التي استعملت وشاعت، ومنها:

- الذريعات: استخدمها عبد القادر الفاسي الفهري، انظر: المصطلح اللساني، أشغال الملتقى الدولي الثالث في اللسانيات، تونس، ١٩٨٦، ص(٥٥٢).
- التداولية: وهي الترجمة الأكثر شيوعاً في الدراسات اللغوية، (انظر: فصل، صلاح، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: ١٠، ٢٤، ٢٥، ٢٦ وغيرها) وانظر: بصل، محمد إسماعيل، نحو رؤية لسانية لوضع المصطلح، مجلة المعرفة، وزارة الثقافة، الجمهورية العربية السورية، ع(٣٧٨)، آذار، ١٩٩٥، ص(١٤١). وانظر: الوعر، مازن، إشكاليات التداخل، مرجع مذكور، ص(١٤٦). وانظر: بحيري، سعيد، علم لغة النص، ص(١٢٤-١٢٥-١٢٧).
- الذرية: انظر: العجمي، فالح، الربط الذري في النص العربي، مجلة أبحاث اليرموك، سلسلة الآداب واللغويات، مج ١٢، ١٤، ١٩٩٤، ص(٢٥٣). ورغم شيوع هذه المصطلحات فإن المصطلح المعرب: البراغماتية ظل مستعملاً، انظر مناقشة هذه المسألة في: محمد إسماعيل بصل، المرجع السابق، ص: ١٣٢-١٣٨-١٣٩، وفالح العجمي، ص ٢٥٣.

(٢) صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص(٢٥) وانظر: Nerlich, Brigitte and Clarke David: *language, action and context. Linguistic pragmatic in Europe and America (1800-1950)*, journal of Pragmatics, (22), 1994. P: 441-442.

الشروط المحددة والقواعد التي تضمن صياغة الخطاب جيداً، وتهتم الدلالة بالشروط التي تجعل الخطاب مفهوماً وقابلاً للتفسير.

وواضح أن مفهوم البراغماتية اللغوية القائم على الاهتمام بالسياق الذي يحيط بالخطاب، لا يخرج عن مفهوم المناسبة ومراعاة مقتضى الحال التي عرفها التراث العربي، يؤكد ذلك صلاح فضل - وهو يترجم البراغماتية بالتداولية - حين تحدث عن السياق وعلاقته بالنص في "التداولية" يقول: "ويأتي مفهوم "التداولية" هذا ليغطي بطريقة منهجية منظمة المساحة التي كان يشار إليها في البلاغة القديمة بعبارة "مقتضى الحال" وهي التي أنتجت المقولة الشهيرة في البلاغة العربية لكل مقام مقال..."^(١)، ويرى إن "البراغماتية" واحدة من مجموعة التحولات المعرفية والمنهجية التي جددت في نظرية اللغة، وأصولها، ومستوياتها، ووظائفها، وهي جميعاً تمس بشكل مباشر مفهوم الخطاب، وطرق تحليله، ووظائفه المتعددة، بشكل كلي شامل^(٢).

وبشكل عام فإن "البراغماتية" اللغوية تدرس العوامل التي تحكم اختيارنا اللغوية في التفاعل التواصل الاجتماعي، وكذلك أثر هذه الاختيارات "الملفوظات" على الآخرين^(٣). غير أن أهم جانب في البراغماتية يكمن في تحليل الخطاب ضمن سياقه، خاصة عندما يختلف معنى العبارة (المعنى المباشر) عن قصد المتكلم؛ فكثيراً ما يقصد الناس أكثر مما تدل عليه عباراتهم؛ فمثلاً قد نقول: "الطقس حار هنا" ونقصد: "من فضلك افتح النافذة" أو "هل يمكن أن أفتح النافذة؟" وبذلك قد يختلف المعنى الذي يقصده المرسل عن معنى عبارته ولا يجد المتلقي صعوبة

(١) صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص ٢٦. لمزيد تفصيل حول مسألة السياق ودور البلاغيين العرب في ربط الدلالة بالسياق ينظر: الشايب، فوزي، محاضرات في اللسانيات، وزارة الثقافة الأردنية، ط١، عمان، ١٩٩٩، ص ٤٦١-٤٦٣.

(٢) فضل صلاح، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص ٢٦.

(٣) ديفيد كرسنال، موسوعة اللغة، ص (١٢٠).

في فهمه والتفاعل معه، وذلك بالاستعانة بسياق الخطاب^(١). وتبرز أهمية هذا الكلام عندما يقصد المرسل عكس ما يقول، للتهكم أو السخرية مثلاً، ولذلك فإن "البراغماتية" تدرس تحليل الخطاب في سياقه، وتكشف عن مدى المفارقة بين دلالة القول ودلالة الخطاب، وأثر الاختيارات الأسلوبية في كفاءة النص وقبوله وملاءمته للموقف التواصلية.

من ثمة يتضح أن البنية النصية بنية معقدة تحتاج إلى ذلك الخليط المتكامل من علم النحو وعلم الدلالة، والبراغماتية اللغوية الذي اختص علم لغة النص بالتعامل معه واستيعاب التداخل بين مكوناته: إذ أنه علم يجمع شتات الجزئيات المبعثرة في فروع معرفية مختلفة، في إطار نظرية متكاملة، وينقده الباحثون فيه بالخواص التركيبية والاتصالية التي تجمع بين نصوص معينة^(٢).

ويحاول الباحث "حسن حنفي" تلخيص الهدف من "تحليل الخطاب" بأنه يشمل استيعاب كل الدلالات اللغوية والمعنوية والواقعية والفعلية للخطاب، ووضع النص في سياقه الاجتماعي وفي آلياته الاتصالية، ومعرفة النص بأكثر قدر من الموضوعية والشمول، للوصول إلى بنية الموضوع.

وبناء على ذلك فإن "تحليل الخطاب" يهدف إلى ضبط اللغة من أجل إحكام معاني الألفاظ، دون الوقوع في الإنشاء، ومعرفة المعاني الواضحة ضد مخاطر الاشتباه، ورصد

(١) للاطلاع على تفصيل هذه المسألة انظر: Thomas, Jenny: *Meaning in Interaction, an Introduction to*

pragmatics, Longman, 1995. P. (1-27). وانظر الكلام على الفرق بين معنى الجملة (الملفوظ) ومعنى

التعبير (القصد) في: أبو العدوس، يوسف، الاستعارة في النقد الأدبي الحديث، الأبعاد المعرفية والجمالية،

الأهلية للنشر، ط١، عمان، ١٩٩٧، ص٩١-٩٥ وذلك في سياق الحديث عن آراء "سورل" حول الفرق بين

الكلام غير المباشر من ناحية والمفارقة والسخرية والاستعارة من ناحية أخرى .

(٢) بحيري، علم لغة النص، ص(١٢٥).

البواعث والمقاصد في الخطاب لمعرفة مساره وتوجهاته^(١). وبذلك يشير إلى توظيف المستويات الثلاثة: مستوى اللغة ومستوى الدلالة والمستوى التواصل (البراغماتي) في عملية تحليل الخطاب.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

(١) حنفي، حسن ، مقال بعنوان: "تحليل الخطاب"، مؤتمر تحليل الخطاب العربي، المؤتمر العلمي الثالث، أيار ١٩٩٧، منشورات جامعة فيلادلفيا عمان، ١٩٩٨، ... ص ٣٧.

الباب الثاني

استكشاف التراث

© Arabic Digital Library Yarmouk University

تحليل الخطاب في تراث المتقدمين

لا تقصد الدراسة في هذا الجزء إلى اتخاذ موقف أو اطلاق حكم فيما يتعلق بمساهمة المتقدمين من اللغويين العرب في مجال "تحليل الخطاب"، بقدر ما تحاول الوقوف حقيقة على أهم ما أسسوه في هذا المجال، أو ما يتصل به مما يدخل فيما يمكن تسميته -توسعاً- لسانيات الخطاب، بما يتضمنه من مصطلحات ومفاهيم سبق الكلام عليها مثل: نحو النص، والاختيارات الأسلوبية وغيرها.

وبدءاً لا بد من تسجيل حقيقة مفادها أن علم النص وما يدخل فيه من موضوعات نحو: لسانيات النص، أو نحو النص بات يمثل علماً مستقلاً متفرعاً عن علم اللسانيات الذي يعد أقدم العلوم موضوعاً، وأحدثها نشأة إذا ارتبطت النشأة بالاستقلال^(١). من ثمة كان تعاملنا مع الحاضر، إذ ابتدأنا به وانطلقنا منه، وفي عودتنا هنا زمنياً لتراثنا اللغوي بعد وصف الحاضر ينبغي محاوره بل مساعلة هذا التراث، وخاصة ما ارتبط منه بالممارسة النصية، لإعادة الحياة إليه وتقدير إسهامات المتقدمين في الدراسات اللغوية والتعامل مع النصوص، وذلك من أجل البحث عن -تأصيل- بموضوعية- لما يسمى "لسانيات الخطاب"، فنذكر ما أسهموا فيه، ونقف على ما تركوه، متخذين -عند الحديث عن إسهاماتهم- منهجاً انتقائياً نراعي فيه جاهدين إنصافهم وتقديم أهم ما لديهم بإيجاز إذ ليس الهدف الأساس من الدراسة بحث جهود المتقدمين في تحليل الخطاب، مع صعوبة تحقيق هذا المبتغى - إن أردناه-، لذلك فإننا سنكتفي بالإشارات الموجزة، والوقوف على أهم أقوالهم وآرائهم، قارنين ذلك كله بالنصوص والأمثلة. كل ذلك طمعاً في

(١) انظر: الزناد، نسيج النص، ص(١٨).

محاولة صياغة مبدئية لملامح "علم تحليل خطاب" عربي، وليكون هذا الجزء تمهيداً لدراستنا التطبيقية في تحليل الجدل القرآني.

غير أننا سنختار من التراث اللغوي أبواباً معينة نخدم ما نحن فيه، وهذه الأبواب هي:

- النحو بما تضمنه وما سكت عنه فيما يتعلق بنحو النص وتحليل الخطاب.
- التراث البلاغي.
- علم التفسير.

ولم تذهب الدراسة إلى الفصل بين هذه الأبواب إلا لغاية تنظيمية إذ الواقع في التعامل مع النص يقتضي تكاملاً بين جهات مختلفة، تجتمع وتتداخل وتتشابك، لتخدم النص إنتاجاً وتحليلاً. ولعل من المفيد هنا أن نذكر أن من أهم القضايا التي تبحث في لسانيات النصوص، قضية الفصل بين لسانيات النصوص وعلوم أخرى تدرس النص، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، الفصل بين لسانيات النص ولسانيات الجملة.

1. الإشارات النحوية

أول ما أسجله هنا اعترافي بأن اختيار عنوان "الإشارات النحوية" بدلاً من "الإسهام النحوي"، مثلاً، أو الجهود النحوية، يوحي باتخاذ موقف مسبق من مدى مساهمة النحو العربي في مجال لسانيات النص وتحليل الخطاب، يتمثل في أن هذه المساهمة لم تتجاوز كونها إشارات، أي غير مقصودة لذاتها، فضلاً عما يوحيه لفظ إشارة من بلوغ أقصى الغاية في الاختصار، مما يفهم أن مساحة الكلام في تحليل الخطاب في النحو العربي ضئيلة جداً. ولعل السبب في اختيار هذا اللفظ أن التسمية كانت بعد بحث جهود النحويين ولم يكن لفظ، في رأبي، أقرب لوصف هذه الجهود من ذلك اللفظ.

ومع ذلك فإن ثمة ما يسوغ ذلك للنحو العربي، إذا سلم بأن النحو العربي القديم نحو جملة -وأنا أخذ بذلك-، إذ عندها لا يطلب من النحو العربي -وما ينبغي أن يطلب- مساهمة في مجال تحليل الخطاب الذي منه نحو النص، فلا يعيب النحو أننا نأخذ خلوه من تلك المساهمة من جهة أن منهج كل نحو مختلف، وأن غاية كل منهما - كذلك - تختلف، فضلاً عن الاختلاف في الأدوات والتحليل.

ينتمي النحو العربي التقليدي إذاً إلى نحو الجملة الذي قيد معالجته بحدود الجملة أو القول المفيد فائدة يحسن السكوت عليها، ويرى فيها أكبر وحدة لغوية يطمح إلى تحليلها وتقييدها مع خلاف بين المدارس اللسانية في مفهوم التقعيد. وكما يشير "سعد مصلوح" فإن النحو العربي ليس بدعاً في خضوعه المطلق لفكرة نحو الجملة، إذ "سيطر نحو الجملة على صياغة القواعد في جميع لغات العالم المعروفة في القديم والحديث إلى يومنا هذا ولم يبدأ الاتجاه إلى "نحو النص" في أن يفرض وجوده إلا مع بدايات النصف الثاني من هذا القرن (العشرين) حين نشر "زيليج هاريس (Zellig Harris) دراستين اكتسبتا أهمية منهجية في تاريخ اللسانيات الحديثة، تحت عنوان تحليل الخطاب"^(١).

ويؤكد مصلوح أن الدعوة إلى التوجه في الدراسة المنهجية إلى نحو النص، لا تحمل أية تهمة موجهة إلى التراث النحوي، يقول: "إن الإلحاح على ضرورة إنجاز هذه النقلة المنهجية في دراسة النص العربي، هو بريء كل البراءة من شبهة الزرابة على التراث النحوي العربي، أو الإدلال على الأسلاف، وإنما هو ثمرة إجلال لهم، واعتراف بعظمة جهودهم، ورغبة صادقة في

(١) سعد مصلوح، العربية: من نحو الجملة إلى نحو النص، مقالة في الكتاب التذكري المهدى إلى الأستاذ عبد السلام هارون في ذكره الثانية، جامعة الكويت، كلية الآداب، ١٩٨٩-١٩٩٠، ص ٤٠٧-٤٠٨.

أن نعالج قضايا لغتنا في هذا العصر بمثل الجدية التي عالجها بها الأسلاف في عصرهم^(١). ويرى أن مكنم الخطر في قضية النحو العربي، يتجاوز انتفاء التحليل النحوي للنصوص، إلى عدم إحساس بالحاجة إليه أصلاً، مع أن الهدف الأساسي من هذه النقلة المنهجية محاولة الخروج بالنحو العربي من أزمة المقيدة التي تضعف دوره الفاعل في دراسة العربية ونتائجها وإبداعاتها الأدبية، وتتمثل هذه الأزمة في ارتباطه بغاية ضئيلة لا تليق بجلاله وراثته ركزت على عصمة اللسان من الزلل كما حددها ابن جنّي (ت ٣٩٢هـ): "لَيْتَحَقَّ مِنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِأَهْلِهَا فِي الْفَصَاحَةِ فَيَنْطِقَ بِهَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ، وَإِنْ شَذَّ بَعْضُهُمْ عَنْهَا رَدَّ بِهِ إِلَيْهَا"^(٢). وبذلك انحصر جل عمل النحو العربي في دائرة "قل ولا تقل" وكان لذلك ما يبرره حين نربط هذه الغاية بالسبب الذي من أجله بدأت الدراسات النحوية.

وقد كان النحاة واضحين في تحديد إطار الدرس النحوي، ومدركين أن كل ما تجاوز نحو الجملة وإنما ينتقل إلى مجال آخر من الدرس اللغوي، يقول "ابن هشام" في كلامه على حذف الجمل: "الحذف الذي يلزم النحوي النظر فيه، هو ما اقتضته الصناعة، وذلك بأن يجد خيراً بدون مبتدأ، أو بالعكس، أو شرطاً بدون جزاء، أو معطوفاً بدون معطوف عليه. وأما قولهم في نحو "وذلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل" (الشعراء: ٢٢) إن التقدير: ولم تعبدني، ففضول في فن النحو، وإنما ذلك للمفسر..."^(٣).

(١) مصلوح، العربية: من نحو الجملة إلى نحو النص، ص (٤٠٨-٤٠٩).

(٢) ابن جنّي، أبو الفتح، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، ط ٢، ج ١، ص ٣٤.

(٣) ابن هشام الأنصاري، جمال الدين، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: بركات يوسف هبود، دار الأرقم، ط ١، بيروت، ١٩٩١، ج ٢، ص ٣٣٠.

وهذا وعي واضح لغاية فن النحو عندهم، فضلاً عن إشارة مهمة هي أن تجاوز نحو

الجملة لتحليل النص لا بد - كي يصل إلى غايته- أن يفيد من نحو الجملة.

ويشير مصلوح، في كلامه على النحو العربي بين النحوية والنصية، إلى مسألتين في

غاية الأهمية توجهان الحكم على النحو، الأولى حقيقة غائبة، وهذه عبارته، عن كثير من أهل

النظر، على بدايتها، وهي أن "النحو العربي ليس اللغة العربية، وأن فرق ما بينهما هو الفرق

بين ظاهرة موضوعة للدراسة وعلم يحاول به العلماء دراسة الظاهرة، والكشف عن قوانينها

بإعمال مناهج ومقولات علمية معينة... وينشأ عن ذلك ضرورة وجوب التمييز بين "اللغة" و

"النحو" وبين حدائث المنهج أو قدمه والمادة اللغوية المدروسة"^(١). ولعل أهمية هذا المسألة تكمن

في أن معالجة اللغة بمنهج حديث كنحو النص لا يمكن بحال أن تمثل استغناء عن التراث

اللغوي، ولا هدماً له، وإنما هو منهج آخر في التعامل مع اللغة نفسها، يقول مصلوح: "إن أي

محاولة لإصلاح النحو العربي، أو استبدال نحو آخر به، لا يمكن أن تعني هدماً للعربية بقرآنها

وتراثها وتاريخها العريق. إن استحداث المجهر بدلاً من العين المجردة في فحص الأشياء -على

سبيل المثال- لم يغير من طبيعة المرئيات، ولكنه كشف لنا عن خصائص وعلاقات كانت

خارجة على سلطان الملاحظة والتسجيل، ومن ثم كان على الباحث أن يرجع البصر كرتين

ليعيد تقويم الظاهرة المدروسة في هذه المسألة من جديد"^(٢). والواقع أن ليس ثمة ما يختلف فيه

معه حول هذه المسألة شرط أن لا يقصد بإصلاح النحو العربي أو استبدال نحو النص به، أكثر

من استعمال منهج آخر يقدم ما لم يقدمه النحو الأول- لاتساقه مع غايته- ويكشف عن

(١) سعد مصلوح، العربية: من نحو الجملة إلى نحو النص، ص ٤٢٢-٤٢٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ٤٢٣.

خصائص وعلاقات خارجة عن مجال الأول، دون أن يلغي المنهج الجديد المنهج الأول أو يحل محله.

أما المسألة الثانية التي يشير إليها - أو كما يسميها "الضابط الثاني" - فتبدو مناقضة لاتجاه الأولى، ويصفها بأنها حقيقة تفرض نفسها على المعاصرين المشتغلين باللسانيات العربية، وهي "أنهم لا يبدءون - وما ينبغي لهم أن يبدءوا - من نقطة الصفر المنهجي. إن البدء من الصفر المنهجي في هذا المقام يعني إهدار أربعة عشر قرناً من النتاج اللساني المتميز، الذي هو إنجاز قوم من أعلم الناس بفقهِ العربية وأسرار تراكيبيها، وذخائر تراثها. وما يكون لنا - إذا كنا حقاً من أولي الألباب، إن نلوي رؤوسنا إعراضاً عن كنوز هي عمر هذه الأمة، ومركب جوهرية من مركبات ثقافتها"^(١). وليس يخفى في قوله هذا ما يستحقه علماء اللغة المتقدمون من إنصاف وإدراك لقيمة ما ورثوه لنا.

وبذلك - أي بالأخذ بما أشار إليه مصلوح في المسألتين - يكون منهج متوازن يبحث عن جديد مستحضراً التراث اللساني، للبناء عليه أو مساعلته أو محاكمته، وتجدر الإشارة هنا إلى أن العلماء - منذ ابن مضاء (٥٩٢هـ) إلى يوم الناس هذا - لم يغفلوا عن الدعوة إلى معاودة النظر في النحو، إحساساً بالحاجة لذلك خدمة للنحو. ولا تقوت "مصلوح" الإشارة إلى هذا الأمر مع تقليل أهمية معظم المحاولات الداعية لمراجعة النحو تحت أسماء وألقاب مختلفة، كاصلاح النحو وإحيائه وتحريره ونقده وتهذيبه وتيسيره، وكذلك ما جاء منها "تعتاً لصورة جديدة من صور النحو، يهدف الباحث إلى صياغتها ودعوة الناس إليها، مثل النحو "الجديد" و"المعقول" و"الواضح" والمصفي^(٢) ولعل السبب في عدم فعالية هذه المحاولات توجهها إلى التقعيد، وذلك

(١) مصلوح، العربية: من نحو الجملة إلى نحو النص، ص ٤٢٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ٤٢٤.

لجعل النحو أكثر ملاءمة مع غايته الأصلية، وهي تقويم اللسان أو إصلاح المنطق أو تجنب اللحن، وبذلك ظل النحو يراوح مكانه ولم تستطع تلك المحاولات تحريره من قيوده أو إخراجه من إطاره التعليمي المقيد، ومع كل هذا كانت تلك المحاولات دالة على إحساس قوي بضرورة التغيير^(١).

وبالنتيجة فإن "سعد مصلوح" مع إجلاله للتراث اللساني العربي، يرى أن النحو العربي بصورته المألوفة، لا يصلح أن يكون نحواً نصياً، ويقدم ليدعم رأيه مبررات أربعة نورد خلاصتها^(٢):

أولاً: إن النحو العربي موضوع لتحليل الشاهد والمثال، وكثير من ذلك جمل مجتزأ أو مصنوعة، فضلاً عن أن ثمة شواهد هي أخبار آحاد، أو بقايا لهجات قديمة اختلط بعضها ببعض فصارت عبثاً على القواعد ووسعت دائرة الشذوذ والجواز^(٣).

ثانياً: غلبت على النحو سمة تشريعية ذات طابع تعليمي معياري، فحدت من قدرته على التحليل الخالص للظواهر اللغوية بعيداً عن مبحث الصواب والخطأ، إلا في قليل من كتب أصول النحو التي تأثرت بعلم الأصول ومصطلح الحديث نحو كتاب المزهري للسيوطي^(٤).

(١) يشير سعد مصلوح إلى أن من أهم المحاولات القليلة التي اتسع أفقها ليعالج مسائل العلم المتصلة بوظيفة النحو البحثية وغاياته الأكاديمية كتاب تمام حسان: اللغة العربية، معناها ومبناها، الذي يمكن إن يعد منطلقاً لدخول آفاق جديدة يكون النحو فيها أهم الطرق التحليلية في دراسة النص. والحقيقة أن كتاب تمام حسان من أهم المحاولات التي عالجت هذه المسألة.

(٢) يسمي سعد مصلوح هذه المبررات: المعوقات المنهجية لنجاح استخدام النحو العربي في التحليل النحوي للنصوص. انظر: العربية: من نحو الجملة إلى نحو النص، ص ٤٢٥-٤٢٦.

(٣) المرجع نفسه، ص ٤٢٥.

(٤) المرجع نفسه، ص ٤٢٦.

ثالثاً: إن النحو العربي بتأثير من وقف الاحتجاج عند منتصف القرن الثاني الهجري - على رأي الجمهور - استبعد مطلقاً فكرة التغير اللغوي، وعد أي مظهر من مظاهر التغير الحادثة لاحقاً ينبغي البراءة منه، وهذا الموقف من التغير اللغوي يمثل نقطة افتراق بين النحو العربي واللسانيات الحديثة التي تعترف بإمكان دراسة اللغة تزامنياً Synchronic أو تعاقبياً Diachronic وفكرة الزمانية من التصورات المنهجية الهامة لصياغة نحو النص، أما النحو العربي فهو لا زماني (Achronic)^(١).

رابعاً: إن مراعاة السياق أو المقام في قواعد النحو يشغل حيزاً هامشياً، وقد ظل هذا الطابع الغالب على كتب النحو منذ اتخذت صورتها المستقرة في القرن الرابع الهجري^(٢). ومع ذلك فإن مصلوح يشير إلى بعض الملاحظ المهمة في كتب المتقدمين من النحاة مثل "سبويه" التي أعانت فيما بعد على اجتماع تيارَي البحث النحوي والدرس البلاغي ليتشكل منهما "علم المعاني" وهو نوع من النحو المقامي.

وتكاد المصادر تجمع على أن الجرجاني (٤٧١هـ) هو واضع أصول هذا العلم، وهو رجل نحوي في الأساس فصاغ أسس هذا العلم إحياءً لروح المعنى والحس والتذوق في علم

(١) المرجع نفسه، ص ٤٢٦. يطلق على المنهج التزامني: التزامني والتعاصري، وعلى التعاقبي التطوري. أما مصطلح Achrony فهو التجرد عن التعاقبية والتزامنية، وهو مفهوم يستعمله السيميائيون لخص نظرية دي سوسير في التعاقبية والتزامنية وللتأكيد أن البنات المنطقية الدلالية العميقة تقع خارج إطار الزمن. انظر: يعقوب، إميل، وبركة وشيخاني، قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية، دار العلم للملايين، ط١، بيروت، ١٩٨٧، ص: ١٠٩، ١٢٠، ١٣٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ٤٢٦-٤٢٧.

النحو بعد أن "أجهز النحاة على كل هذا بتعليقاتهم وتحليلاتهم وحججهم الدائرة حول قضية الإعراب، فحولوه هدفاً أولاً وأخيراً"^(١).

وهكذا يحاول سعد مصلوح أن يعرض أهم المعوقات المنهجية - كما يسميها - المانعة من صلاحية الموروث النحوي للتعامل مع نحو النص، ويقرر أن النحو العربي قد افتقد خاصية النظامية المنهجية التي تعترف للغة بمستويات تحليلية ينهض لدراستها علم من علوم اللسان، فكان من الطبيعي أن تغيب عنه فكرة تحديد العلاقة بين هذه المستويات ...^(٢)، ويستثني من هذا الحكم كتاب المفتاح للسكاكي (٦٢٦هـ) الذي يصفه بأنه نسيج وحده في الجمع بين مستويات البحث اللساني جمعاً على وجه التدرج واللزوم مما يؤهله أن يعد إنجازاً متميزاً يسهم في وصف البنية النحوية للنصوص، ويراه صيغة مناسبة يمكن الاستعانة بها للدخول في حوار منهجي مع الأسلوبيات اللسانية^(٣).

ومع هذا كله، ومع أننا نتفق مع مصلوح في معظم ما ذهب إليه^(٤) من أن الموروث النحوي لم يخدم ما نسميه الآن علم تحليل الخطاب ونحو النص، ولا يصلح بصورته التقليدية -

(١) الجرجاني، عبد القاهر، المقصد في شرح الإيضاح، تحقيق: كاظم بحر المرجان، وزارة الثقافة، العراق، ١٩٨٢، مج ١، مقدمة المحقق، ص ١٤.

(٢) مصلوح، العربية: من نحو الجملة إلى نحو النص، ص ٤٢٨. لا يقصر سعد مصلوح هذا الوصف على النحو وإنما يعممه على أي معالجة للظواهر اللسانية في التراث التي تأتي مفرقة أشتاتاً، حتى إن الظاهرة الواحدة لتعالج في علوم مختلفة، أو تعالج في العلم الواحد تحت أبواب متفرقة، ومع أن التراث اللساني العربي قد تضمن معالجات علمية متميزة لكثير من مسائل الأصوات والصرف والنحو والدلالة فإنه لم يستثمر فكرة المستوى التحليلي الذي ينتظم مفردات المسائل ويفسر علاقاتها النظامية فيما بينها، ويعالج علاقات المستوى الواحد بغيره من المستويات التي تقع دونه أو فوقه في سلم العلاقات الوظيفية.

(٣) سعد مصلوح، العربية: من نحو الجملة إلى نحو النص، ص ٤٢٨، ٤٣١-٤٣٢.

(٤) يجد المدقق في كتاب مفتاح العلوم أن السكاكي لم يتحقق له ما أراده من الكتاب بشكل كامل، ومع أن سعد مصلوح يرى أنه من أوفق الصيغ التراثية للدخول في حوار منهجي مع الأسلوبيات المنهجية وصياغة نحو النص العربي، بناء على ما قرره السكاكي في مقدمة الكتاب، وبناء على أسلوبه في الجمع بين مستويات

لذلك، فإننا نعود لنقرر ما بدأناه من أن ذلك لا يعيب النحو العربي، ولا يحمل له اتهاماً بالتقصير، من جهة أن درس النحوي له إطار محدد كان النحاة واضحين في رسم معالمه، وله منهج وهدف واضحا محددان مختلفان عما لنحو النص، كما أن اتفاقنا معه لا يتعارض مع القول بأن الموروث النحوي تضمن إشارات في كتب النحاة نظروا فيها إلى الجمل متعلقة بسياق تواصلية، وهي ما يمكن تسميته بالجمل النصوص مفردها: (جملة نص)^(١). وهي الجمل التي يجب أن تحقق غرضاً تواصلياً سماه النحاة "الفائدة"، ولسنا هنا نقصد الفائدة بمفهومها العام عند النحاة، وإنما نهتم بالفائدة التي جعلت شرطاً يجيز الخروج عن القاعدة الأصل.

ومن الأمثلة على ذلك كلام النحاة على تقديم المبتدأ النكرة، أو تقديم النكرة على الفعل، فالأصل في الأول تقدم الخبر على المبتدأ: "... كل موضع حصل فيه الفائدة جاز تقول: عندي مال، فيكون مال، مبتدأ مع كونه نكرة، لأصل حصول الاختصاص في الخبر، إذ كل واحد لا يعلم إن عندك مالاً، ويلزم في هذا النحو تقدم الخبر على المبتدأ فلا يكاد يقال: مال عندي، وإنما يجيء ذلك في حال قريبة من الاضطرار"^(٢).

البحث اللساني جمع تدرج ولزوم، فإن السكاكي لم ينجح كثيراً، من الناحية العملية، في الربط بين تلك المستويات وتوظيف فائدة كل مستوى في الذي يليه، رغم أن هذا كان من أهم أهداف الكتاب، ولو تحقق للسكاكي ما أراد لكان كتابه فتحاً عظيماً في مجال درس اللساني العربي وبخاصة في استثمار مستويات البحث اللساني في التحليل النصي. أنظر: السكاكي، مفتاح العلوم، ضبط وتعليق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت: ١٩٨٣، ص(٨).

(١) عرفنا أن النص يكون جملة ويكون دون الجملة من الناحية الشكلية (الملفوظة أو الظاهرة على الورق)، والجملة -النص هي الجملة التي تحقق غرضاً تواصلياً.

(٢) الجرجاني: عبد القاهر، المقتصد في شرح الإيضاح، مج١، ص٣٠٧-٣٠٨، وانظر: حسين، عبد القادر، البحث البلاغي، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٨، ص٥٩-٦٠.

ولعل الحال القريبة من الاضطرار، هي ذاتها الفائدة التي بحصولها يجوز الانحراف عن المؤلف، وهي مسألة متصلة بالسياق وبمراعاة مقتضى الحال وطرفي الاتصال (الناس، والمنلقي)، ونحاول توضيح المسألة بالمثال الآتي:

نقول: في البحر سمك، على الأصل الذي قال به النحاة، بأن جاء المبتدأ نكرة متأخرة وجوباً، فالمعنى في الجملة مما لا ينكر مثله، لكنك لو كنت تتحدث عن بحر مخصص لم يعهد الناس أن يروا فيه سمكاً ولا سمعوا بذلك وفجأة رأيت فيه سمكاً، لا بد من أن تقدم المسند إليه، لأنه المخصوص بالخبر، ولأنك تخبر عنه بما هو غير معهود به، ولا متوقع عنه فنقول:

"سمك في البحر" وبذلك كنت تربط العبارة بما يحيط من السياق مخبراً بما ينكر مثله، ونحو ذلك قولك: "رجل في بيت النساء" مخبراً بما لا ينتظر أو يتوقع وقوعه متعجباً. وتظهر أهمية دور المقام في التعامل مع هذه النصوص عندما تكون الجملة ذاتها بالنظر إلى مراعاة المقام مستقيمة مرة وغير مستقيمة في أخرى، من ذلك المثال الآتي:-

"رجل في المكتبة" لا يستقيم عند النحاة لوجوب تأخير المبتدأ النكرة، ولا يجوز التقديم لانتهاء الفائدة والاضطرار، فليس كون "رجل" في المكتبة مما ينكر مثله، بل هو أمر عادي مألوف. لكن ذلك ينعكس بتخصيص المقام بأن يكون الوقت مثلاً ساعة متأخرة من الليل معلوم لكل واحد أن المكتبة تكون خالية من الناس ومغلقة، فتحصل بالتقديم هنا الفائدة وهي حال اضطرار. وليس يخفى هنا أن الغرض التواصل هو الموجه للتقديم والتأخير.

أما تقديم النكرة على الفعل فليس بمختلف عما تقدم، وقد شرحه الشيخ النحوي عبد القاهر في دلالة قال: "إذا قلت: "رجل جاعني" لم يصلح حتى تريد أن تعلمه أن الذي جاعك رجل لا امرأة، ويكون كلامك مع من قد عرف أن قد أنك آت، فإن لم ترد ذلك كان الواجب أن

تقول: جاعني رجل" فتقدم الفعل، وكذلك إن قلت: "رجل طويل جاعني" لم يستقم حتى يكون السامع قد ظن أنه قد أتاك قصير، أو نزلته منزلة من ظن ذلك".^(١)

فالأساس المعتمد في صلاح الكلام إذا مراعاة المقام والغرض التواصلية بين الناص والمتلقي، وهو من أهم العناصر التي يهتم بها تحليل الخطاب.

أما الإسهام الأكبر للنحاة في مجال تحليل الخطاب فيتمثل فيما قدموه من إشارات شكلت بدايات مهمة، وإضاءات لما اصطلح على تسميته بعلم المعاني في البلاغة وهو نوع من النحو مجاله النص، وذلك كان السبب في بحثه ضمن مفردات البلاغة، لأنه باب من النحو تجاوز مجاله الجملة وارتبط بالدلالة والمقام، ولما كان الدرس اللغوي يقوم على الفصل بين النحو-في مفهومه المتعارف- والبلاغة^(٢)، لم يحاول النحاة الخوض في علم المعاني- أو ما يمكن تسميته النحو المقامي أو المقاميات-^(٣) لنلا يتجاوزا مجال النحو الذي حدوده بالجملة. وما كان خروجهم إلى قضايا النحو المقامي إلا بالقدر الذي يخدم ما هم فيه، ضرورة، فاقترص كلامهم فيه على إشارات متناثرة هنا وهناك في كتبهم أفاد منها علماء البلاغة. ويورد نهاد الموسى أمثلة مهمة جداً في سياق كلامه على إدراك سيبويه للعالم المحيط بالنص وتوظيفه البعد الخارجي في تحليل النص، وأشار(الموسى) إلى أن هذه الأمثلة التي تجمع بين التفسير اللغوي وملاحظة السياق تصلح إشارات تؤكد شعور متقدمي النحاة بالحاجة إلى ربط اللغة في نظامها

(١) الجرجاني، دلائل الإعجاز، قراءة وتعليق: محمد محمود شاكر، مطبعة المدني، ط٣، القاهرة، ١٩٩٢ص١٤٣.

(٢) انظر: الزناد، نسيج النص، ص١٩.

(٣) انظر: سعد مصلوح، العربية: من نحو الجملة إلى نحو النص، ص٤١٨.

الخاص بالحياة في مجالها الخارجي العام ، أو أنهم أدركوا أن بين اللغة وسياقها الاجتماعي علاقة عضوية^(١).

ومن أهم أبواب النحو المقامي (علم المعاني) التي أسهم النحاة في تأسيسها أو الكلام عليها أو التنبيه إليها، وكان لملاحظاتهم وإشاراتهم فيها أثر في تطور الدرس البلاغي؛: التقديم والتأخير^(٢)، والفصل والوصل^(٣)، والحذف^(٤)، وخروج الكلام عن مقتضى الظاهر^(٥)، وتعريف المسند إليه وتكثيره^(٦)، وغيرها من القضايا التي اهتم بها البلاغيون، واستثمروا إشارات النحويين المتعلقة بها، وتجلت هذا الاستثمار في عمل عبد القاهر الجرجاني العظيم *دلائل الإعجاز* الذي وظف فيه معرفته بالنحو ليؤلف بين علمي النحو والبلاغة اللذين فصل الدرس اللغوي قبله بينهما، وسنعود للحديث عن إنجازاته وإسهامه في علم الخطاب في موضعه من البحث بإذن الله.

وأيا كان الأمر فإن التراث النحوي قدم تحليلات جزئية مهمة لبعض الجوانب الخاصة بالعلاقات بين أجزاء الجملة- وهو ما يخدم نحو النص من مستوى الجملة وما دونها من حيث الشكل- والمتواليات الجمالية، وشروط الفصل والوصل، ومعاني الأساليب، وأشكال السياقات

(١) الموسى ، نهاد ، نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث ، دار البشير ، ط٢ ، عمان ، ١٩٨٧ ، ص ٩٧-١٠٢ .

(٢) انظر: سيبويه، الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، طبعة دار الجيل، ط١، بيروت، ١٩٩١. ج١، ص٣٤. وانظر: ابن جني، الخصائص. ج٢، ص٣٨٢-٣٩٠. وانظر: حسين عبد القادر ، أثر النحاة في البحث البلاغي. ص٨١، ٣١٤.

(٣) انظر: حسين عبد القادر ، المرجع نفسه. ص٨١-٨٢، ٩٧-٩٨.

(٤) الخصائص ج٢، ص٣٦٠-٣٨١.

(٥) الكتاب، ج١: ص٧٤، ١١١-١١٢، ج٢: ص٤٧-٤٨، وانظر: الخصائص، ج٢، ص٤١١-٤٢١. وانظر: حسين عبد القادر ، المرجع نفسه، ص٦٢-٦٣.

(٦) الكتاب، ج١، ص٤٧-٤٨.

والدلالات الخاصة، وغيرها من الظواهر التي تختص بنحو الجملة. ولم تخرج الدراسة عن إطار الجملة إلا في إشارات دقيقة إلى العلاقات الدلالية العميقة التي تربط بين الجمل وبين المتواليات الجمالية^(١).

٣. التراث البلاغي يصوغ أساساً لتحليل الخطاب

قدمنا أن الدرس اللغوي القديم فرض على نفسه الفصل بين مكوناته من العلوم، فاتخذ كل علم مجالاً له لا يطلع فيه على غيره إلا ضرورة، فكان أن استقل البحث النحوي عن البحث البلاغي، مما منع النحو من التعامل مع النص، وأفسح المجال للبلاغة لدراسة موضوعات تتعلق بتحليل الخطاب، وبلاغته، وجودته، وآليات التماسك والانسجام، والجمال في النص، وكيف يؤثر ذلك كله في المتلقي، إلى غير ذلك مما يعد أساساً مهماً في علم النص وتحليل الخطاب.

وسيقوم البحث في تتبعه ملامح تحليل الخطاب في التراث البلاغي، بالتركيز على جهود الشيخ النحوي عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) المتصلة بعلم النص وتحليل الخطاب إدراكاً لدوره الرائد في هذا المجال.

وقد كان لاختيارنا "عبد القاهر" ميررات منها أن الرجل نحوي حاول وصل ما انقطع بين علوم اللغة، وبخاصة بين النحو والبلاغة وعلم الدلالة، وأنه نجح في صياغة مبادئ مهمة - في نظري - في تحليل الخطاب، وأسس قوة الخطاب وجودته، لا بد من استثمارها خاصة ونحن ندرس الخطاب القرآني الذي قام "الدلائل" أصلاً ليبين أن جهات الإعجاز فيه تلتقي في النظم والانسجام والاختيارات الأسلوبية فيه مما تضمنه النحو المقامي. وقبل ذلك وبعده فإن الجرجاني

(١) انظر: سعيد بحيري، علم لغة النص، ص ١٣٤.

أسس نظرية لغوية أفاد منها من جاء بعده وبخاصة علماء التفسير كالزمخشري الذي يعد كتابه "الكشاف" تطبيقاً عملياً لنظريات الجرجاني في علم النص وتحليل الخطاب على النص القرآني. وبالإجمال فإن الجرجاني - وبخاصة في دلائل الإعجاز - قد وظف فهمه الدقيق لعلم النحو في صياغة نظرية جديدة في علم النحو، نجح - وصولاً إليها - في جمع العلوم الخادمة للغة، صفياً واحداً في اتساق وانسجام وتكامل. وقد ركز على إظهار هذه المسألة وهو يشرح غايته من صنع كتاب دلائل الإعجاز، يقول في مدخل الكتاب: "هذا كلام وجيز يطالع به الناظر على أصول النحو جملة، وكل ما به يكون النظم دفعة، وينظر منه في مرآة تراه الأشياء المتباعدة الأمكنة قد التقت له حتى رآها في مكان واحد، ويرى بها مشئماً قد ضم إلى معرق، ومغرباً قد أخذ بيد مشرق"^(١).

كذلك فإن الدراسة ستتعامل مع ما هو شديد الارتباط بتحليل الخطاب، وانسجام النصوص وترباطها، وسنوجه اهتمامنا نحو المظاهر التي درسها البلاغيون - وإمامهم عبد القاهر - الكاشفة عن وعيهم وإدراكهم لمبادئ تحليل الخطاب، والطرق التي تميز بها النصوص وأسس اتساقها وانسجامها. وأهم هذه المظاهر كلام عبد القاهر الجرجاني على النظم الذي ليس إلا نسج النص وصناعته وبناءه على ما يقتضيه علم النحو (بمفهومه العام) الذي يشمل مستويات مختلفة من البحث، وليس سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض،^(٢) يقول الجرجاني:

"اعلم أن ليس "النظم" إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه "علم النحو" وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيع عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا

(١) انظر: دلائل الإعجاز، المدخل ص ٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ٤.

تخل بشيء منها، وذلك أنا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في "الخبر" إلى الوجوه التي تراها في قولك: "زيد منطلق" "وزيد ينطلق" وينطلق زيد" و"منطلق زيد" و"زيد المنطلق" و"المنطلق زيد" و"زيد هو المنطلق" و"زيد هو منطلق"^(١).

بهذا النص يبدأ الجرجاني شرحه لمفهوم النظم وسر جمال الخطاب وبلاغته، وظاهر جلياً إدراكه الدقيق أن علم النحو هو الأساس الذي يختار الناص نظمته وفقاً لما يقتضيه. ويبدأ بباب الخبر وأن كل وجه من وجوه نظمته مؤدٍ لمعنى لا يؤديه غيره^(٢)، وهي مسألة غاية في الأهمية عند التعامل مع الخطاب القرآني واختياراته الأسلوبية.

ثم ينتقل الجرجاني إلى الشرط والجزاء ثم إلى الحال مبيناً في كل منها وجوهاً مختلفة من النظم، وأن الناظم لا بد أن يعرف لكل من ذلك موضعه، ويحيى به من حيث ينبغي له. ثم يشير إلى أهمية أن ينظر الناظم في الحروف التي تشترك في معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى، فيضع كلاً من ذلك في خاص معناه^(٣).

أما أهم ما جاء به -في حديثه عن النظم- مما هو متصل بنحو النص وتحليل الخطاب، فيتمثل في إدراكه الواضح للمسافة بين نحو الجملة ونحو النص، حين يذكر الربط بين أجزاء النص ومعاني أدوات الربط، وهو ما سماه "الفصل والوصل" الذي يعد أساساً مهماً لا يمكن تجاوزه في الحديث عن نحو النص، يقول الجرجاني: "وينظر (أي الناظم) في الجمل التي تسرد،

(١) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ٨١.

(٢) للجرجاني كلام علمي دال على حس لغوي دقيق، وذلك عندما تحدث عن الفروق الدقيقة بين أشكال الخبر في تعليقه على قوله تعالى: "وكلبهم باسط ذراعيه بالصيد" ولم اختار الناص "باسط" دون "يبسط" مثلاً. وكذلك حديثه عن الفروق الدقيقة بين "زيد منطلق" و"زيد المنطلق". انظر: المرجع نفسه، ص ١٧٣-١٧٨.

(٣) المرجع نفسه، ص ٨١-٨٢.

فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل، ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع "الواو" من موضع "الفاء" وموضع "الفاء" من موضع "ثم"....^(١).

ويصل إلى أساس مهم من أسس تحليل الخطاب عندما تحدث عن الاختيارات الأسلوبية التي بها يتوصل إلى دلالة الخطاب وقصد الناص، وبها تدرك مزايا النص ومظاهر قوته، يقول: "ويتصرف في التعريف، والتكثير، والتقديم، والتأخير، في الكلام كله، وفي الحذف، والتكرار، والإضمار، والإظهار، فيصيب بكل من ذلك مكانه ويستعمله على الصحة على ما ينبغي له، هذا هو السبيل فلست بواجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً، وخطؤه إن كان خطأ، إلى "النظم" ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو معنى من معاني النحو، قد أصيب به موضعه، ووضع في حقه، أو عومل بخلاف هذه المعاملة، فأزيل عن موضعه واستعمل في غير ما ينبغي له"^(٢).

وبهذا يبين الجرجاني الأسس التي بنى عليها نظريته، وجعلها الجهة التي أتى منها إعجاز القرآن، وأهم ملامحها وضع كل عنصر في النص موضعه الذي ينبغي له، ولا يصلح لغيره ولا يستقيم غيره مكانه، وهذه الأسس هي المبادئ التي ستوجه تحليلنا لخطاب الجدل القرآني، كما سيتبين في الجزء التطبيقي من الدراسة.

ويرى الجرجاني أن النظم الأسلوبي "أو كما سماه التخير" هو الأساس الذي عليه يفضل خطاب خطاباً، ولا فضيلة لما وجب بمعناه أو بمتون ألفاظه دون نظمه وتأليفه لأنه: "لا فضيلة حتى ترى في الأمر مصنوعاً، وحتى تجد إلى التخير سبيلاً، وحتى تكون قد استدركت صواباً"^(٣).

(١) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ٨٢.

(٢) المرجع نفسه، ص ٨٢-٨٣.

(٣) المرجع نفسه، ص ٩٨.

فمزاياء النظم وتفاضل النصوص لا تكون إلا بحسب الموضوع، وبحسب المعنى الذي يريدُه الناص، والقصد الذي يؤمُه، ولذلك يختار الناص من معاني النحو ما يؤدي بدقة مطلوبه، أي أنه يتخير للمعنى الأسلوب الذي يناسبه تماماً كما يتخير الرسام أصباغه فيأخذ أنفُسها ويتخير مكانها ودرجاتها وأسلوب مزجها وتركيبها وترتيبها، وهي الجهات التي منها تحصل المزية لنص على آخر^(١).

ولذلك فإن الجرجاني يركز على أنه لا يكفي القول بانسجام الخطاب، وأنه "خصوصية في كيفية النظم، وطريقة مخصوصة في نسق الكلم"^(٢)، بل لا بد من وصف تلك الخصوصية وبيانها وذكر أمثلة لها كما يذكر لك من تستوصفه عمل الديباج المنقش ما تعلم به وجه دقة الصنعة، أو يعمله بين يديك، حتى ترى عياناً كيف تذهب تلك الخيوط وتجيئ؟ وماذا يذهب منها طولاً وماذا يذهب منها عرضاً؟ وبم يبدأ بم يثني وبم يثلث؟ وتبصر من الحساب الدقيق ومن عجيب تصرف اليد ما تعلم معه مكان الحدق وموضع الأستاذية"^(٣).

ولعل هذه المسألة التي يركز عليها الجرجاني هي جوهر اهتمامنا في تحليل خطاب الجدل القرآني، إذ ليس قصد الدراسة إثبات الثابت للقرآن، أي أنه نص منسجم، وإنما تبحث في آليات هذا الانسجام التي ساهمت في تفوقه على النصوص، وكان منها مصدر الإعجاز، لذلك فإنه عندما يتحدث عن جهات إعجاز القرآن يرى أن ما بهر العرب "أنهم تأملوه سورة سورة، وعشراً عشراً، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها، ولفظة ينكر شأنها، أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه، أو أخرى وأخلق، بل وجدوا اتساقاً بهر العقول، ونظاماً والتتاماً،

(١) انظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ٨٧-٨٨.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٦.

(٣) المرجع نفسه، ص ٣٦.

وإتقاناً، وإحكاماً، فلم يدع في نفس بليغ منهم ولو حك بيافوخه السماء موضع طمع، حتى خرس
الألسن عن أن تدعي وتقول^(١).

وهذا النص من أهم النصوص التي تكشف عن وعي الجرجاني الدقيق بعلم النص
وتحليل الخطاب -بمفهومه الحاضر- فهو من جهة ينظر إلى القرآن نصاً واحداً متماسكاً تؤلفه
نصوص متماسكة في داخلها، مترابطة فيما بينها، ومن جهة أخرى نراه يستعمل -عدا النظم-
المصطلحات الدالة على التماسك الدلالي والتماسك الشكلي، فيستعمل مصطلحات نحو: الالتئام،
والتناسق الدلالي، والتعليق، والاتساق؛ فالإعجاز آتٍ لما بين معاني الألفاظ من الاتساق
العجيب^(٢). ومن أوضح الأمثلة التي تثبت وعيه لمسائل تحليل الخطاب ومبادئ الانسجام فيه،
ما علق به على قوله تعالى: "وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَأْسَمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ
وَاسْوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ". (هود: ٤٤).

يتساءل "وهل تشك إذا فكرت في قوله تعالى (الآية)، فتجلى لك منها الإعجاز، وبهرك
الذي ترى وتسمع، أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة، والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع
إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث "لاقت
الأولى بالثانية، والثالثة بالرابعة وهكذا إلى إن تستقرها إلى آخرها، وأن الفضل تنتج ما بينها

(١) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ٣٩.

(٢) الجرجاني، دلائل الإعجاز، شرح وتعليق: محمد أنتنجي، دار الكتاب العربي، ط ١، ١٩٩٥. ص ٤٥، وانظر
ص ٥٩، ٥٦، ٥٤. وانظر: الفقي، علم اللغة النصي، ص ١٢٥-١٢٨، وانظر فضل، حسن عباس، إعجاز
القرآن، منشورات جامعة القدس المفتوحة، ط ٢، عمان، ١٩٩٧، ص ٩٣. حيث يقرر المؤلف أن الإبداع في
تصوير الإعجاز وقف عندما قرره عبد القاهرة في نظريته. والكتاب يلخص نظرية النظم، ويهتم بالجانب
التطبيقي لها، انظر: ص ٧٥-٩٢.

وحصل من مجموعها^(١). وليس هذا المجموع إلا البنية الكلية للنص، والارتباط الذي يذكره ما هو إلا التماسك الشكلي والدلالي بين أجزاء النص الموحد الذي هو أساس النظم، ولذلك يقرر في موضع آخر أن "لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض، ويبني بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك"^(٢).

ويمثل ما تقدم من نصوص الجرجاني وإشاراته عينة واضحة تثبت له إسهامه الريادي في صياغة مبادئ لنحو النص العربي وتحليل الخطاب، وتدرك ذلك تماماً عندما نفهم أنه حاول أن يقيم في دلائل الإعجاز مبادئ نحوية للتحليل النصي، ليسهل من بعد التعامل مع النص القرآني. واستعار لصياغة هذه المبادئ أدوات من مباحث لغوية متعددة جمعها في إطار واحد خدمة لعلم النص الذي لا يؤمن بالفصل بين المناهج التي تتعامل مع النص درساً وإنتاجاً وتحليلاً.

لقد صاغ الجرجاني مبادئ مهمة جداً لنحو النص وتحليل الخطاب وهو يعرض لموضوع الفصل والوصل الذي يعد من وجهة نظري -أهم أساس في نحو النص لا يمكن بحال لأي دارس لعلم الخطاب أن يتجاوزه.

ويركز الجرجاني جهده في باب الفصل والوصل على " ما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض، أو ترك العاطف فيها والمجيء بها منثورة، تستأنف واحدة منها بعد أخرى"^(٣). فالعلم به من أسرار البلاغة، ولا يصل إلى تمام الصواب فيه إلا الأعراب الخالص الذين طبعوا على البلاغة وأوتوا فناً من المعرفة في نوق الكلام هم بها أفراد، بل إنه قد جعل

(١) دلائل الإعجاز، طبعة دار الكتاب، ١٩٩٥. ص ٥٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ٥٩.

(٣) دلائل الإعجاز، مطبعة المدني، ١٩٩٢. ص ٢٢٢، وانظر: تعليق محمد الخطابي، لسانيات النص، ص ١٠٠.

حداً للبلاغة^(١). وقد حاول محمد الخطابي التوصل إلى المبادئ التي تحكم وصف الجرجاني للفصل والوصل وتحليله له - نعد الفصل والوصل باباً واحداً - وذلك لبلورة المبادئ العامة والخاصة التي صاغها الجرجاني، سواء أكان ذلك بطريقة صريحة أم ضمنية^(٢).

وقد انطلق الجرجاني وهو يصوغ مبادئ الفصل والوصل في الخطاب من أسس نحوية دلالية وتداولية، وأفاد من حديث النحاة في عطف المفرد على المفرد عندما تكلم على عطف الجملة على الجملة التي لها محل من الإعراب - بتعبير النحاة، - وهذا المستوى من الخطاب يبيح نحو الجملة وتعرف مواطن الوصل (العطف بالواو خاصة) فيه وفق مبدأ نحوي هو أن العطف بين جملتين يقوم على وجود حكم مشترك بينهما، ويكون حكم الجملة حكم المفرد إذ لا يكون لها موضع من الإعراب حتى تكون واقعة موقع المفرد.

أما العطف بين الجمل التي لا محل للمعطوف عليها من الإعراب فلا يتم وفق ذات المبدأ النحوي، إذ لا يوجد حكم مشترك بين هذه الجمل^(٣). ولذلك ذهب الجرجاني إلى اعتماد مبدأ آخر يحصل به معنى الجمع بينهما، وهو أن ورود المسند إليه (محور الخطاب) في الجملة الثانية كائن بسبب من ورود المسند إليه في الجملة الأولى، يقول الجرجاني: " لا تقول: زيد قائم وعمرو قاعد، حتى يكون عمرو بسبب من زيد، وحتى يكونا كالنظيرين والشريكين، وبحيث إذا عرف حال الأول عناه أن يعرف حال الثاني، بذلك على ذلك أنك إن جئت فعطفت على الأول شيئاً ليس منه بسبب، ولا هو مما يذكر بذكره ويتصل بحديثه لم يستقم فلو قلت: خرجت اليوم من داري"، ثم قلت: "وأحسن الذي يقول بيت كذا" قلت ما يضحك منه"^(٤). وبهذا يقرر الجرجاني

(١) المرجع نفسه، ص ٢٢٢.

(٢) يشير الجرجاني في كلامه على "الفصل والوصل" بين جملتين لا محل للمعطوف عليها من الإعراب إلى أن الإشكال إنما يعرض في "الواو" دون غيرها من الحروف العاطفة، وذلك لأن غيرها تفيد مع الإشراك معاني أخرى، فمثلاً "فاء" توجب الترتيب من غير تراخ، و"ثم" توجه مع تراخ، فإذا عطفت بواحدة منها الجملة على الجملة، ظهرت الفائدة. انظر: دلائل الإعجاز، مطبعة المدني، ١٩٩٢، ص ٢٢٤.

(٣) انظر: الخطابي، لسانيات النص، ص ١٠٠.

(٤) الجرجاني، دلائل الإعجاز، مطبعة المدني، ١٩٩٢، ص ٢٢٤-٢٢٥.

مبدأ مهماً من مبادئ الانسجام في عطف الجمل المكونة للنص متصلاً بمراعاة حال المتلقي وافترضه أن النص المتلقى يجمع بين نظيرين أو شريكين - نحو زيد وعمر هنا - فيكون ذا مبرراً للعطف.

ويضيف الجرجاني مبدأ آخر متصلاً بالأول المحقق لمعنى الجمع، وهو أن يكون الخبر عن الثاني مما يجري مجرى الشبيه والنظير أو النقيض للخبر عن الأول، فلو قلت: "زيد طويل القامة وعمرو شاعر" كان شاذاً، لأنه لا مشاكلة ولا تعلق بين طول القامة وبين الشعر، وإنما الواجب أن يقال: "زيد كاتب وعمرو شاعر"، "زيد طويل القامة وعمرو قصير"^(١). فالمعتمد هنا توافر علاقة التضام أو المصاحبات اللغوية المرتبطة بما يسمى الحقول الدلالية، وهي داخلية فيما يسميه علماء الخطاب المعاصرون: الاتساق المعجمي - النحوي، حيث يختار الناص عناصر معجمية معينة ترتبط بعناصر سابقة ضمن علاقات دلالية منظمة، يهتم فيها الخطاب بالمتلقي الذي يستطيع التعامل مع معطيات النص وفهم قصد الناص، ولذلك فإن مقبولية العطف في الخطاب - من زاوية المتلقي - ترجع إلى أسباب براغماتية تعتمد على مدى علاقة المتلقي بالناصر وعناصر النص.

أما الفصل الذي به يحصل تماسك الخطاب بلا ربط شكلي، فقد حدد له الجرجاني مبادئ تسوغ ترك العطف أهمها:

١. أن تكون الجملة مؤكدة للتي قبلها مبينة لها^(٢)، نحو قوله تعالى: "الم * ذَلِكَ

الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ" (البقرة، ١-٢). وقوله: "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ

(١) المرجع نفسه، ص ٢٢٥، وانظر: الخطابي، لسانيات النص، ص ١٠٣.

(٢) دلائل الاعجاز، مطبعة المدني، ١٩٩٢، ص ٢٢٧-٢٢٩.

تذرههم لا يؤمنون* ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم"

(البقرة: ٦-٧).

٢. أن تكون الجملة أجنبية مما قبلها: (تغير صيغة الخطاب^(١)) وذلك أن تكون جملة

مثلاً- حكاية والتي قبلها خبراً أو العكس، ومنه قوله تعالى: "وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس

قالوا أتؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون* وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا

إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون* الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون"

(البقرة: ١٣-١٥).

والظاهر أن المسألة أكثر من مجرد الاختلاف بين خبر وحكاية، ويمكن توسيع مبدأ

الفصل لينسحب على انقطاع الصلة بين موضوعي الخطاب.

٣. مبدأ الاستجابة لنص غائب: (الاستفهام المقدر) وهو مبدأ مهم من مبادئ انسجام

الخطاب وتحليله لتشكيل البنية الكلية للخطاب وتعليق النص الظاهر بمقدر. ومن أبرز الأمثلة

على هذا المبدأ ما جاء في القرآن في نصوص حوار أو جدل من استعمال لفظ "قال" مفصلاً

غير معطوف، ومنه قوله تعالى في جدل موسى -عليه السلام- مع فرعون: "قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا

رَبُّ الْعَالَمِينَ* قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنتُمْ مُوقِنِينَ* قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ* قَالَ

رَبِّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ* قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ(٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ

(١) الجرجاني، دلائل الإعجاز، مطبعة المدني، ١٩٩٢، ص ٢٣١.

وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ* قَالَ لَنْ أُنَاقِظَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ* قَالَ أَوَلَوْ جِئَكَ بِشَيْءٍ

(الشعراء: ٢٣-٣٠).

مبين

وهذا المبدأ تناوله السكاكي وبين المبادئ البراغماتية (المقامية)، التي تسوغ تقدير السؤال: تنزيل السؤال بالفحوى منزلة الواقع لا يصرار إليها إلا لجهات لطيفة: إما لتنبية السامع على موقعه، أو لإغثائه أن يسأل، أو لئلا يسمع منه شيء، أو لئلا ينقطع كلامك بكلامه، أو للقصد إلى تكثير المعنى بتقليل اللفظ^(١).

ويمكن القول - إضافة لمبدأ الاستفهام المقدر - بأن الفصل واقع في مثل هذا النوع من الخطاب لأن لفظ القول ليس داخلاً في الخطاب الواقع (المقول)، ولذا صار أجنبياً منه. فخطاب الجدل الذي تم بين موسى - عليه السلام - وفرعون مثلاً هو: كل ما ورد في النص دون ألفاظ القول الرابطة.

وليس يخفى أن هذه المبادئ التي يصوغها الجرجاني في الفصل والوصل، من المبادئ المهمة التي يتوسل بها علم الخطاب المعاصر - سواء بألفاظ الجرجاني أو بغيرها - لصياغة نحو النص وأسس تحليل الخطاب وانسجامه.

أما كلام الجرجاني في عناصر تحليل الخطاب التي بها تقاس قوة النص، أو جودته، والمفاضلة بين نص ونص، وهي ما يمكن تسميته بنحو الأسلوب أو التخيير، بعبارة الجرجاني، فقد لخصها في النص الذي أثبتناه عندما تكلم على مفهوم النظم، وكيف أن الناص يتصرف في

(١) السكاكي، محمد بن علي، مفاتيح العلوم، ضبطه وعلق عليه: نعيم زرزورة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣، ص ٢٥٢.

التعريف والتكبير، والتقديم والتأخير، في الكلام كله، وفي الحذف، والتكرار، والإضمار، والإظهار، فيصيب بكل من ذلك موضعه، ويستعمله على الصحة على ما ينبغي له^(١).

ويشكل استعمال هذه الاختيارات الأسلوبية مبدأ مهما من مبادئ تحليل الخطاب يتمثل في الإجابة عن التساؤلات الآتية: ما دور الاختيار الأسلوبي في البنية الكلية للنص؟ ما المسافة الدلالية بين طرفي كل زوج من هذه الاختيارات؟ فمثلا في التقديم نتساءل: ما الفائدة منه؟ وماذا تكون المحصلة الدلالية وأثر النص لو لم يقع التقديم؟ كل ذلك لابد أن يعمل الناص فكره فيه واعيا لأن قوة النص آتية من أثره، فيتشكل الخطاب وفق قصد الناص، وبما يضمن التأثير في المتلقي مع استحضار كل عناصر السياق. والتقديم والتأخير عنده ظاهرة ليس قيمتها التجميل، وإنما هي ظاهرة يتراتب على تغيير ترتيب الألفاظ فيها تغيير في المقاصد والمعاني^(٢).

ويحاول الجرجاني صياغة مبادئ مهمة في استعمال التقديم أو التأخير، ووظيفة كل منهما في انسجام الخطاب. ويبدأ باستنكار أن يكتفى بالقول في أمر التقديم أنه قد قدم للعناية، ولأن ذكره أهم. ويؤكد أن هذه النظرة السطحية القاصرة إلى "التقديم والتأخير" قد هونت أمره عند الدارسين وغفلت عن أثره في انسجام الخطاب وقوته وقال: "وكذلك صنعوا في سائر الأبواب، فجعلوا لا ينظرون في الحذف والتكرار، والإظهار، والإضمار، والفصل والوصل، ولا في نوع من أنواع الفروق والوجوه، إلا نظرك فيما غيره أهم لك، بل فيما إن لم تعلمه، لم

(١) انظر: دلائل الإعجاز، مطبعة المدني، ١٩٩٢، ص ٨٢-٨٣.

(٢) انظر: الجطلابي، الهادي، قضايا اللغة في كتب التفسير، كلية الآداب- سوسة، ط ١، الجمهورية التونسية، ١٩٩٨، ص ٤٥٦.

بضرك^(١). ولذلك يرفض هذه النظرة ويرى فيها ضعف رأي، وبعدا من حسن التدبر ويرى أنه بهذه الأمور يكون خطاب أشرف من خطاب.

كذلك فإنه يرفض أن يجعل تقديم الشيء أو تأخيره مفيدا في بعض الكلام وغير مفيد في بعض، ذلك أنه لا يكون في جملة النظم ما يدل تارة ولا يدل أخرى، فالعنصر الذي يقدم مثلا يختص بفائدة لا تكون مع التأخير؛ ففي قوله تعالى في جدال قوم إبراهيم -عليه السلام-: "قالوا أنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم" (الأنبياء: ٦٢)، لم يرد قومه أن يقر لهم بأن تكسير الاصنام قد كان، ولكن أن يقر بأنه منه كان، ولذلك كان جواب إبراهيم -عليه السلام-: "قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون" (الأنبياء: ٦٣)، "وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب".

(المائدة: ١١٦).

ومن الأمثلة على ذلك ما سبق ذكره من تقديم المبتدأ النكرة، أو تقديم النكرة على الفعل، نحو: "رجل في البيت" و"رجل جاعني" ففي التقديم في كل واحدة فائدة تحقق غرضا تداوليا لا تكون مع التأخير^(٢).

(١) دلائل الإعجاز، مطبعة المدني، ١٩٩٢، ص ١٠٩.

(٢) لمزيد تفصيل انظر كلام الجرجاني، وأمثله في "دلائل الإعجاز" على أهم مظاهر الاختيار الأسلوبية، المرجع نفسه، التقديم والتأخير، ص ١٠٦-١٤٥. الحذف: ص ١٤٦-١٧٠، التعريف والتكسير: ص ١٧٧-١٧٨، ١٧٩-٢٠١.

وستنخذ المبادئ التي صاغها الجرجاني لخدمة تحليل الخطاب أساسا نتكئ عليه في

تعاملنا مع تحليل النص القرآني.

٣. النص القرآني وتحليل الخطاب

(تطبيق مبادئ نحو النص وتحليل الخطاب في التفسير)

لا يمكن تصور حديث عن دراسة الخطاب القرآني وتحليله لا يتخذ علوم القرآن مصدرا أساسا ومنطلقا لبحث جهود المتقدمين ممن درسوا النص القرآني، وبخاصة المفسرون الذين توسلوا للتعامل مع النص باللغة، فوظفوها لتفسيره وتأويله وبيان جهات جماله وتفوقه على النصوص.

وليس يخفى أن مفهوم تحليل الخطاب القرآني يتقاطع في مساحة كبيرة مع التفسير وفق المنهج اللغوي الذي يقدم الأداة اللغوية على غيرها من الأدوات في التعامل مع النص، ولا بد من التأكيد هنا أن مسائل تحليل الخطاب القرآني التي نهتم بها هي التي تعتمد النص أساسا، فتتعلق منه لتعود إليه، والغاية فهم النص وكشف أسرار قوته لا تحليله، وإنما التحليل وسيلة يتوصل بها إلى الغاية.

ويمثل المدخل اللغوي في التعامل مع الخطاب القرآني أساس البحث ومركزه، والبسبب الرئيسي إلى قضايا النص بما هو نظم وإنجاز لغوي، وكونه كذلك لا يلغي دور العناصر الأخرى المتعلقة بالنص والمحيط به، فتحليل الخطاب المستند إلى اللغة بحث أسلوبى "لا يحلحل

لغة النص لمجرد التحليل وإنما هو مؤلف بينها وبين بقية العناصر المكونة للنص^(١) لفهمه وتأويله.

وقد انقسمت مناهج التفسير بالنظر إلى اللغة ثلاثة أقسام التفاوت بينها كائن في درجة الاتكاء على اللغة؛ فمنها المنهج اللغوي المعتمد على اللغة اعتماداً كلياً، وبالمقابل هناك المنهج غير اللغوي، وبينهما المنهج المستعين باللغة، وهو نوعان: منهج يقدم اللغة على غيرها من عناصر النص، وهو ما يعنينا أكثر من غيره، ومنهج يقدم على اللغة أدوات أخرى للتعامل مع النص^(٢).

أما فيما يتعلق بمبادئ نحو النص وأساسه فإن جهود المفسرين تعد ميداناً مغرياً بالبحث فيها، عن إشارات أو ملامح لنحو نص تراشي، ذلك أن التفسير ينتظر منه أن يكون تحليلاً للنص القرآني، ومحاولة للوقوف على تماسكه وترابط أجزائه، ولا يمكن بحال الحكم على إسهامات المتقدمين في نحو النص بشكل كامل ومنصف إن لم نقف على معالجاتهم العملية للنصوص الطويلة كالنص القرآني.

(١) الجطلابي، قضايا اللغة في كتب التفسير، ص ١٥.

(٢) من الأمثلة على القسم الأول (المنهج اللغوي) كتب إعراب القرآن، وتفسير البحر المحيط لأبي حبان الأندلسي (٧٤٥هـ). أما القسم الثاني (المنهج المعرض عن اللغة) فينقسم إلى: تفسير خارجي نقلي؛ وهو تفسير مستند إلى خارج النص، كمناسبات النزول، وتفسير داخلي باطني (رمزي) توجهه قواعد فكرية أو مذهبية. والقسم الثالث "المنهج المستعين باللغة" وهو نوعان:

١. المعتمد على اللغة أساساً، وأهم أمثله تفسير الكشاف للزمخشري.

٢. المؤخر للغة، كالنفسير بالمأثور، وأهم أمثله تفسير الطبري الذي كان معتمده الأساس التفسير النبوي بالمأثور، وكانت الاستعانة باللغة مصدراً ثانوياً. لمزيد فائدة وتفصيل انظر: الجطلابي، قضايا اللغة في

كتب التفسير، ص: ٤٧-١١٢.

ولا يخفى على الناظر سعة المساحة التي يغطيها نتاج التفسير في المكتبة العربية لِمَا للنص القرآني من مكانة وحظوة في النفوس لا تكونان لغيره، فالقرآن منذ بدء نزوله وهو يشكل بؤرة اهتمام المسلمين وعلمائهم ومحج أنظارهم.

ويمكن القول إن الجهود التفسيرية الفعلية المقصودة الأولى بدأت بابن عباس- رضي الله عنه- في التفسير المنسوب إليه الموثوث في كتب التفسير، ويروى أن لقبه كان ترجمان القرآن^(١). ومهما يكن من أمر، ومع أن ثمة اختلافاً بين الرواة في حجم التفسير المأثور عن ابن عباس وفي صحة ما نسب إليه، فإنه يمثل مرحلة في التفسير يمكن تسميتها مرحلة التأسيس أو النشأة للتفسير اللغوي، وأنه يعدّ المفسر الرسمي الأول^(٢).

ومنذ أواخر القرن الهجري الثاني كثر التصنيف في علوم القرآن، ومنها التفسير، وكانت معظم مصنفات التفسير تدور في موضوعاتها تحت مصطلح واحد من ثلاثة مصطلحات اشتهرت: غريب القرآن، وإعراب القرآن، ومعاني القرآن، كان أصحابها لغويين وخاصة من النحاة، فضلاً عما تضمنته كتب النحو من شرح وتفسير لشواهد قرآنية، مثال ذلك مناقشة سيبويه لآيات قرآنية في مواضع متعددة من كتابه^(٣)، وإن كان الشاهد القرآني يستدعي مدعماً لرأي نحوي.

(١) يروى أن الرسول- عليه الصلاة والسلام- لقبه بهذا اللقب، ورد ذلك في الحديث الذي يرويه ابن مسعود: " نعم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس" وفي رواية مجاهد: قال ابن عباس: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم-: " نعم ترجمان القرآن أنت". انظر: السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، تحقيق عصام الحرمستاني، دار الجبل، ط١، بيروت، ١٩٩٨، ج٢، ص٥٥٧-٥٥٨، وانظر: الجطلوي، قضايا اللغة في كتب التفسير ص٤٤-٤٦.

(٢) انظر: الجطلوي، قضايا اللغة في كتب التفسير، ص٤٥.

(٣) انظر: الكتاب، ج١، ص٢١٢، ج٣، ص١٤٥-١٤٨، ١٥٥-١٥٦، ١٧٢-١٧٣.

وبتطور الدراسات اللغوية ظهرت التفاسير المتخصصة والشاملة للنص القرآني وتميز
منها كثير، منها تفسير الطبري (٣١٠هـ) " جامع البيان عن تأويل القرآن " وتفسير الكشاف
للزمخشري (٥٨٣هـ) وتفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (٧٤٥هـ) على اختلاف ما
بين كل منها والآخر في المنهج.

على أن ما يهمننا بالتحديد في جهود المفسرين، الوقوف على ما يشعر بإدراكهم لوسائل
التماسك والانسجام في النص القرآني التي تسهم في جعله كلاً موحداً^(١)، وكذلك ملامح نحو
النص وتحليل الخطاب ومميزات النص الأسلوبية في شروحاتهم.

ومن أهم كتب التفسير القوية الارتباط بتحليل الخطاب وبحث انسجام النص وترابطه-
من وجهة نظري- كتاب الكشاف للزمخشري. ولذلك لأنه لا يمكن تتبع موضوعات تحليل
الخطاب في جميع كتب التفسير، ولأننا نهتم بما هو شديد الصلة بموضوعنا، فإن البحث سيتعامل
مع تفسير الزمخشري بشكل أساسي وسيعتمد مرجعاً أساسياً أيضاً في الجزء التطبيقي من
الدراسة. أما دواعي اختيار كتاب الزمخشري فضلاً عما تقدم فيمكن إيجازها فيما يلي:-

١. الزمخشري لغوي نحوي في المقام الأول، والذي يهمننا في الدراسة المدخل
للغوي في تحليل الخطاب القرآني، لذلك توقعنا أن يسلك المنهج اللغوي في تفسيره مقدماً إيـاه
على غيره من أدوات التحليل، وبالفعل فقد كان منهج الزمخشري في تعامله مع النص القرآني

(١) يحاول محمد الخطابي، عرض إسهامات المتقدمين من المفسرين وعلماء القرآن في صياغة مبادئ التماسك
والانسجام من خلال إشاراتهم وكلامهم على الوسائل والعلاقات والآليات التي تفتنوا إلى مساهمتها في
جعل النص القرآني آيات وسوراً كلاً واحداً موحداً، رغم اختلاف أوقات نزوله وأسبابه انظر: الخطابي،
لسانيات النص، ص ١٦٥-٢٠٤.

منهجاً لغوياً من "أشد المناهج اللغوية نضجاً واكتمالاً في القرآن بل يمكن أن نعدّه نموذجاً للشرح اللغوي القرآني"^(١).

٢. تفسير الزمخشري تفسير كامل وضعه في عصر اكنمت فيه العلوم الدينية

واللغوية جميعاً وأنت أكلها، استثمر الزمخشري أفضل ثمراتها في خدمة النص القرآني^(٢).

٣. اعتمد الزمخشري في تفسيره على المبادئ التي صاغها عبد القاهر الجرجاني

في نظم الخطاب، فكان عمله يمثل دراسة في تحليل الخطاب القرآني أو استثماراً لمبادئ النظم وأسس تحليل الخطاب في دلائل الإعجاز لتطبيقها على النص القرآني.

٤. تميز الزمخشري باهتمامه في تفسيره، بكل ما تعلق ببلاغة الخطاب القرآني

وأسلوبه.

٥. الكشاف، بالدرجة الأولى، نموذج تطبيقي لتوظيف اللغة في خدمة الدلالة، وكان

الإشكال الأكبر المطروح في هذا التفسير: "كيف السبيل إلى الانتهاء إلى المعنى عن طريق اللغة؟ وكيف السبيل إلى إدراك مظاهر الإبداع والجمال في النص إدراكاً لغوياً؟"^(٣).

وسنكتفي لندلل على وعي الزمخشري المبكر لنحو النص وآليات الانسجام في الخطاب

القرآني - بعرض بعض المسائل والأمثلة، ولا ننوي دراسة نحو النص في تفسير الزمخشري إلا

بالمقدّر الذي يوضح باختصار مدى إسهامه في مجال تحليل الخطاب، وسنعرض لهذه المسائل

ولموضوعات الاختيار الأسلوبي (نحو التّخير) وإسهاماته في مكانه من التحليل التطبيقي لخطاب

الجدل القرآني، خاصة أن الدراسة تعتمد تفسيره مصدراً مهماً للتعامل مع النص القرآني.

(١) الجطلوي، قضايا اللغة في كتب التفسير، ص ٧٩.

(٢) الجطلوي، قضايا اللغة في كتب التفسير، ص ٩٣.

(٣) المرجع نفسه، ص ٩٨، وانظر: عباس، فضل، إعجاز القرآن، ص ٩٣.

وقد كان الزمخشري حريصاً على إظهار تماسك الخطاب القرآني، والكشف عن وسائل الربط بين أجزاء النص (بين الجملة والجملة وبين الفقرة والفقرة) ولذلك اهتم بالربط (الفصل والوصل) والإحالة، والاتساق المعجمي، والحذف، والعلاقات البيانية والتداولية، في الخطاب، إلى غير ذلك من المسائل التي تصوغ الإطار العام لنحو النص، فضلاً عن إشاراته الكثيرة إلى ما يميز الخطاب القرآني من اختياراته الأسلوبية.

الربط:-

يتكلم الزمخشري في تفسيره قوله تعالى: "أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًىٰ مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"

(البقرة: ٥) عن الربط بالواو يقول: "فإن قلت: لم جاء مع العاطف؟ وما الفرق بينه وبين قوله: "أولئك كالأنعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون" (الأعراف: ١٧٩). قلت: قد اختلف الخبيران وهنا فلذلك دخل العاطف، بخلاف الخبرين ثمة، فإنهما متفقان، لأن التسجيل عليهم بالغفلة وتشبيههم بالبهائم شيء واحد، فكانت الجملة الثانية مقررة لما في الأولى، فهي من العطف بمعزل"^(١). وليس يخفى من كلام الزمخشري أن الربط بالواو جاء لاختلاف الخبرين، مع أن المتحدث عنه واحد (أولئك)، وهي الحالة المسماة في التراث بالتوسط بين الكمالين: كمال الاتصال وكمال الانقطاع، حيث يتم الربط بين نصين فأكثر، برابط معنوي لاشكلي، وهو ما عرف بالفصل، وقد اهتم الزمخشري بهذا النوع من الربط كثيراً، ومن أمثلة ذلك كلامه السابق على قوله تعالى: "أولئك كالأنعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون" لم يحسن العطف لأن الجملة الثانية أكدت الأولى وقررت معناها. وقد ذكرنا أن الجرجاني قد فصل في مسألة الفصل

(١) الزمخشري، أبو القاسم جار الله، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ترتيب وضبط وتصحيح: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٩٥. ج١، ص ٥٤.

والوصل، ووصف الجمل التي ترتبط بلا رابط شكلي بأنها تتصل من ذات نفسها بالتّي قبلها، وتستغني بربط معناها لها عن حرف عطف يربطها، وهي " كل جملة كانت مؤكدة للتّي قبلها، وتستغني بربط معناها لها عن حرف عطف يربطها، وهي كل جملة كانت مؤكدة للتّي قبلها ومبينة لها، وكانت إذا حصلت لم تكن شيئاً سواها، كما لا تكون الصفة غير الموصوف، والتأكيد غير المؤكد".^(١) وقد ركز الزمخشري على هذه المسألة في كلامه على قوله تعالى: "الم ﴿١﴾ ذَلِكَ

الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ" (البقرة: ١-٢) حيث جاءت كل جملة (بعد الأولى) مؤكدة للتّي قبلها، مقررّة معناها من غير رابط شكلي، وذلك لمجبتها متأخية آخذاً بعضها بعنق بعض، وهو ما عبر عنه بكمال الاتصال، تتصل الجمل فيه بالفصل، أي بلا رابط شكلي.

ومنه تعليق الزمخشري على قوله تعالى: "وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى

شِيَاتِئِنهْم قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ" (البقرة: ١٤).

يقول: "فإن قلت: أنى تعلق قوله: "إنما نحن مستهزون" بقوله "إنما معكم" قلت: هو توكيد

له لأن قوله (إنما معكم) معناه الثبات على اليهودية، وقوله (إنما نحن مستهزون) رد للإسلام ودفع له منهم، لأن المستهزئ بالشيء المستخف به منكر له، ودافع لكونه معتدّاً به، ودفع نقيض الشيء تأكيداً لثباته"^(٢).

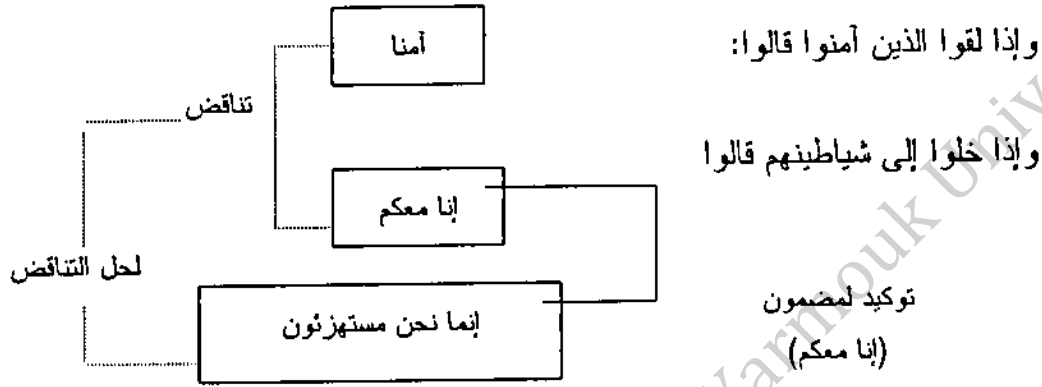
ونلاحظ استعمال الزمخشري مصطلح (التعلق) بين الجمل، ولا ريب أن كلامه هنا على

الربط بين الجمل، وتعالقها بلا رابط شكلي من أهم ما يدرس في علم النص ونحوه، وفيه قياس

(١) دلائل الإعجاز، طبعة دار الكتاب، ١٩٩٥، ص (١٧٧).

(٢) الكشاف، ج ١، ص ٧٤.

لارتباط النص بالنص (أيا كان مستوى النص) على الارتباط بين المفرد والمفرد؟ فهو يقيس الارتباط بين النصين على الارتباط بين التأكيد والمؤكد للاتفاق في الوظيفة والاستعمال.



فالجملـة (إنما نحن مستهزونون) توكيد لمضمون (إنا معكم) وبهذا اجتمع للتوكيد ثلاثة أمور: التكرار (تكرار مضمون الخبر) والاسمية (فـي الجملتين) واستخدام أدوات التوكيد والحصـر.

أما الاستغناء عن العاطف للاختلاف، فقد ذكره الزمخشري كثيراً، ومن الأمثلة على ذلك تعليقه على قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ" (البقرة: ٦)، حيث يقول: "فإن قلت لم قطعت قصة الكفار عن قصة المؤمنين ولم تعطف لنحو قوله: "إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم" وغيره من الآي الكثيرة؟ قلت: ليس وزان هاتين القصتين وزان ما ذكرت؟ لأن الأولى فيما نحن فيه مسوقة لذكر الكتاب، وأنه هدى للمنتقين،

وسبقت الثانية لأن الكفار من صفتهم كبت وكبت، فبين الجملتين تباين في الغرض والأسلوب، وهما على حد لا مجال فيه للعطف^(١).

فليس ثمة مناسبة أو جهة جامعة بين النصين تسوغ الربط بالأداة، لأن أداة العطف معناها الجمع، وهذا ما سماه المتقدمون كمال الانقطاع.

ولعل من أهم ما يمثل وعي الزمخشري لآليات الانسجام في الخطاب القرآني، كلامه على الترابط بين الأجزاء الأولى من سورة البقرة التي قسمها إلى ثلاثة موضوعات، قال الزمخشري: "افتتح سبحانه وتعالى بذكر الذين أخلصوا دينهم لله، وواطأت فيه قلوبهم ألسنتهم، ووافق سرهم عنهم، وقولهم. ثم ثنى بالذين محضوا الكفر ظاهرا وباطنا وقلوبا وألسنة. ثم ثلث بالذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، ووصف حال الذين كفروا في آيتين، وحال الذين نافقوا في ثلاث عشرة آية، نعى عليهم فيها خبثهم ومكرهم وقصة المنافقين عن آخرها معطوفة على قصة الذين كفروا كما تعطف الجملة على الجملة"^(٢).

ويظهر في كلام الزمخشري إشارته إلى موضوع الخطاب وتغيره، وما يتبع ذلك من ربط بين أجزاء النص.

وهو يستخدم مصطلح (القصة) ليدل به على نص، داخل النص الكلي، يميزه عن النصوص المجاورة الموضوع أو الإطار، ويتم الربط بين نص ونص، من حيث هو ربط شكلي أو معنوي، تبعا لعلاقة كل منهما بالآخر وقوة اتصالهما أو انفصالهما ولذلك رأينا أن النص الأول (قصة المؤمنين) ارتبط بالنص الثاني (قصة الكافرين) بلا رابط شكلي لتباين النصين في

(١) الكشاف، ج ١، ص ٥٥.

(٢) الكشاف، ج ١، ص ٦٢.

الغرض الأسلوب بعبارة الزمخشري^(١)، فتم الفصل لكمال الانقطاع، بعبارة المتقدمين، أما النص الثالث (قصة المنافقين) فقد ارتبط بنص الكافرين بالواو، لأن بينهم اشتراكا واختلافا، فهم يتفقون مع الكافرين بأن قلوبهم لم تؤمن وختلفوا معهم في إظهار الكفر، فالحال بينهم شبه كمال الاتصال بعبارة المتقدمين وهي الحال المسوغة لمجيء العاطف.

ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم يتقون والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك ... أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون. (قصة

المؤمنين)



فصل لتباين الغرض والأسلوب (كمال الانقطاع).



إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم. وعلى أبصارهم غشاوة... (قصة الكافرين)

وصل لاتفاقهم في أمور واختلافهم في أمور (شبه كمال الاتصال).

و

من الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله .. (قصة المنافقين)

(١) المرجع نفسه، ج ١، ص ٦٢.

ولعل أهم ما في نص الزمخشري السابق قياسه ربط النص بالنص على ربط الجملة بالجملة، وفي ذلك إدراك واعٍ لآلية الربط بين نص ونص، من مستوى ما فوق الجملة، وهي أهم مسألة في نحو النص، بمفهومه الحاضر. وهو لا يفرق في آلية الربط بين ارتباط نصين من مستوى فوق الجملة، وارتباط نصين من مستوى الجملة؛ إذ عطف نص (مكون من توالي جمل) على نص من مستواه كما تعطف الجملة على الجملة.

ومن المسائل المهمة في نحو النص وتحليل الخطاب مما أشار إليه الزمخشري بوعسي وإدراك، كلامه على ما يسمى في حاضر نحو النص: الاتساق المعجمي، يقول عن الاستئناف بإعادة عنصر لغوي، أو بذكر عنصر من حقله الدلالي: "واعلم أن هذا النوع من الاستئناف (الكلام على قوله تعالى: "أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) يجيء تارة بإعادة من استؤنف عنه الحديث كقولك: قد أحسنت إلى زيد، زيد حقيق بالإحسان. وتارة بإعادة صفته كقولك: أحسنت إلى زيد، صديقك القديم أهل لذلك منك، فيكون الاستئناف بإعادة الصفة أحسن وأبلغ لانطوائها على بيان الموجب وتلخيصه"⁽¹⁾.

وهو بذلك يعد الاتساق المعجمي بإعادة عنصر لغوي، أو مرادف أو شبيه له، يمثل أداة مهمة من أدوات التماسك في النص، ومسوغاً لربط الجمل، بلا رابط شكلي (حرف عطف)، فضلاً عن إشارة غاية في الأهمية تظهر دقة الزمخشري في تعامله مع هذا النوع من أدوات تماسك الخطاب، وهي إشارته إلى أن الاستئناف بإعادة الصفة أبلغ، لتضمن الصفة بيان الأول وما يشير إلى موقف المتكلم والسبب الموجب لمضمون الخبر.

وحسبنا في هذا المقام ما قدمناه من إشارات مهمة تدل بقوة على وعي الزمخشري المبكر لمسائل نحو النص وتحليل الخطاب، وقد وقفنا مع بعض مسائل تماسك الخطاب التي تكلم

عنها الزمخشري - على سبيل المثال والاختيار -، وسنشير إلى إسهاماته المتميزة على سبيل المثال في المسائل المتبقية من مسائل نحو النص في موضعه من الدراسة التطبيقية للخطاب القرآني، ومن هذه المسائل التي تدرس في نحو النص، كلامه على الحذف وتعليق عناصر لغوية بعناصر غير ظاهرة في النص^(١)، وكلامه على التحليل التداولي للخطاب أو الاستئناف البياني^(٢)، وكذلك كلامه على تغير الخطاب وتنظيمه وترتيبه وما يطرأ عليه من تأخير وتقديم لأجزائه^(٣).

كل ذلك يؤكد أهمية إسهامات الزمخشري وقوة إدراكه لمسائل نحو النص وتحليل الخطاب، واستحضاره هذه الأدوات وهو يتعامل مع النص القرآني بوصفه كلاً موحداً مكوناً من نصوص مترابطة متماسكة، وبوصفة نصاً تميز عن النصوص باختياراته الأسلوبية ونظمه. والزمخشري بذلك كان مثلاً دالاً بقوة على إسهام المتقدمين من اللغويين العرب في علم النص وتحليله، وكان لمعالجتهم النصوص الطويلة، والقرآن أهمها، أثر مهم في إبراز أفكارهم المنظمة، التي تصلح لأن تكون أساساً مهماً لصياغة إطار لنحو عربي للنص.

(١) الكشاف، ج ١، ص ٥٣.

(٢) انظر: الكشاف، ج ١، ص ١٤٣، ص ١٤٥، ١٤٧، ١٥٩، ١٧١، ١٨٤.

(٣) انظر: الكشاف، ج ١، ص ٢٤-٢٥، ٤٦-٤٧، ٥٢-٥٣، ٧١، ٧٤-٧٥، ٩٢.

(٤) انظر: المرجع نفسه، ج ١، ص ٥٦، وانظر كلام الزمخشري على قصة "البقرة" في تفسير سورة البقرة الآيات: ٧٦-٧٣، الكشاف، ج ١، ص ١٥٥-١٥٦.

الباب الثالث

خطاب العدل القرآني

ممارسة نصية تطبيقية

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

الفصل الأول

الجدل القرآني

تمهيد: مفهوم الجدل

معنى الجدل في اللغة:

تدور المعاني اللغوية للفظ (جدل) في معاجم اللغة حول جامع دلالي واحد، أركانه الشدة والاستحكام والصراع الكلامي واللد في الخصومة؛ قال ابن فارس: "الجيم والذال واللام أصل واحد وهو من باب استحكام الشيء في استرسال يكون فيه، وامتداد الخصومة ومراجعة الكلام"^(١).

وفي اللسان: هو اللدد في الخصومة والقدرة عليها، وجادله: أي خاصمه مجادلة وجدالاً، والاسم: الجدل، هو شدة الخصومة.

وأصل الاشتقاق من الجدل، وهو شدة الفتل، وجدل شيء يجذله جذلاً: أحكم فتلته^(٢). والجدال والمجادلة مفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة^(٣)، وصراع لساني فيه إحكام وشدة.

(١) ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٩٧٩. ج ١، ص ٤٣٣، (جدل).

(٢) انظر: ابن منظور، لسان العرب، طبعة دار صادر، بيروت، (بدون رقم الطبعة وتاريخها). (جدل) ج ١١، ص ١٠٣-١٠٥.

(٣) انظر: حسن، عثمان علي، منهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد، دار إشبيلية للنشر والتوزيع، ط ١، الرياض، ١٩٩٩، ج ١، ص ٢٤.

الجدل في الاصطلاح:

كثرت تعريفات الجدل في الاصطلاح، وتباينت تبعاً لاختلاف الفنون، أو العلوم التي تهتم بالجدل، وتباين النظرة إليه تحسناً وتقيحاً، وقصد أصحاب كل فن منه؛ إذ يختلف كل من الفلاسفة والمناطق، والفقهاء والأصوليون، والمتكلمون في النظر إليه^(١). ومهما يكن من أمر الاختلاف في تعريفه، فإن ثمة اتفاقاً -إلى حد ما- على أنه: المفاوضة أو الخصومة أو المنازعة في البيان والكلام لإلزام الخصم، بإبطال مدعاه وإثبات دعوى المتكلم^(٢).

ويعرفه أبو البقاء الكفوي (ت ١٠٩٤هـ)، في الكليات بأنه "عبارة عن دفع المرء خصمه عن فساد قوله بحجة أو شبهه، وهو لا يكون إلا بمنازعة غيره"^(٣).

وليست تخفى المناسبة التي بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي، فالجدل محتاج إلى إحكام وشدة وصراع بين أطراف يحاول كل واحد منهم قتل الآخر عن رأيه^(٤).

ومما تجب الإشارة إليه أن ثمة ألفاظاً ومصطلحات تتفق مع مصطلح الجدل أو المجادلة في مفهومها ومعناها أو تقترب، وقد يدل بعضها على ما يدل عليه الجدل تماماً وتستعمل بدلاً منه^(٥)، ومن أهم هذه المصطلحات:

(١) المرجع نفسه، ج ١، ص ٢٤-٢٨.

(٢) انظر: الأكمي، زاهر، مناهج الجدل في القرآن الكريم، ط ٢، ١٤٠٠هـ، ص ٢٠.

(٣) الكفوي، أبو البقاء، الكليات، تنظيم عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، ط ١، بيروت، ١٩٩٢، ص ٣٥٣. وفي موضع آخر يقارن الكفوي بين المجادلة (وهي مساوية للجدل عنده) و المكابرة والمعاندة، يقول: "المجادلة هي المنازعة في المسألة العلمية لإلزام الخصم سواء كان كلامه في نفسه فاسداً أو لا. وإذا علم بفساد كلامه وصحة كلام خصمه فنازعه فهي المكابرة، ومع عدم العلم بكلامه وكلام صاحبه فنازعه فهي المعاندة" انظر: المرجع نفسه، ص ٨٤٩.

(٤) انظر: خلف الله، محمد أحمد، مفاهيم قرآنية، سلسلة عالم المعرفة، ع (٧٩)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، تموز ١٩٨٤، ص ١٦٦-١٦٧.

(٥) انظر: عمر، أحمد مختار، وآخرون، المكنز الكبير (معجم لغوي مهني متخصص للمترادفات)، إصدار مؤسسة التراث، ط ١، الرياض، ٢٠٠٠، ص ٧٤٦.

١. **المحاجة أو الحجاج:** وهي المغالبة بالحجة، وقد وردت في القرآن في إطار مفهوم

الجدل، في ثلاثة عشر موضعاً^(١)، منها قوله تعالى: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ

الْمُلْكَ... (البقرة: ٢٥٨)، وقوله: "هَاتُوا هُؤُلَاءِ حَاجِبْتُمْ فِيهَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ

لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ" (آل عمران: ٦٦)، وقوله "أَمْ حَدَّثْتَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ

لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ" (البقرة: ٧٦).

٢. **المحاورة،** وهي المراجعة في الكلام، وجدل المتعلمين والمعلمين، ومنها قوله تعالى:

"وَكَانَ لَهُ تَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ

أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا" (الكهف: ٣٤، ٣٧).

وقوله: "قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ مَحَاوِرُكُمْ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ

(المجادلة: ١).

بَصِيرٌ"

(١) انظر: الآيات (٢٥٨، ١٣٩، ٧٦) من سورة البقرة، والآيات (٢٠، ٦١، ٦٥، ٦٦، ٧٣) من سورة آل عمران.

والآية: (٨٠) من سورة الأنعام، والآية: (٤٧). من سورة غافر، والآية (١٦) من سورة الشورى.

٣. المراء والممارة: وهو صراع جدلي مع شك أو سخرية بكلام الآخر، أو

استصغار لرأيه، وقد ورد أصل اللفظ بهذا المفهوم، في القرآن في عشرين موضعاً^(١)، منها قوله:

"يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ" (الشورى: ١٨)، وقوله: "وَأَنَّهُ لَعَلَّمِ السَّاعَةَ فَلَا تَمُرُّنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ" (الزخرف: ٦١)، وقوله: "فَيَأْتِي آلَاءِ رَبِّكَ تَمَارَى؟" (النجم: ٥٥).

٤. المنازعة: وهي صراع على شيء ما يطلبه كل طرف، في الغالب. وقد ورد أصل

اللفظ في القرآن ثماني مرات^(٢)، منها قوله تعالى: "... فَإِنَّ تَنَارِعَمَ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ..." (النساء: ٥٩)، وقوله: "... حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَارَعَمَ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ ..." (آل عمران: ١٥٢).

(١) انظر: الآيات: البقرة (١٤٧)، وآل عمران، (٦٠) الأنعام: (٢، ١١٤)، يونس (٩٤). هود (١٧، ١٠٩)، الحجر (٦٣) الكهف (٢٢)، مريم (٣٤) الحج (٥٥) السجدة (٢٣) فصلت (٥٤) الشورى (١٨) الزخرف (٦١) الدخان (٥٠) النجم (١٢، ٥٥) القمر (٣٦).

(٢) انظر الآيات: (آل عمران (١٥٢)، النساء (٥٩)، الأنفال (٤٦، ٤٣) الكهف (٢١)، طه (٦٢)، الحج (٦٧) الطور (٢٣).

٥. **المخاصمة والخصام**، وقد استعمل اللفظ بمعنى الجدل والمخاصمة اللسانية في

القرآن في ستة عشر موضعاً^(١)، منها قوله تعالى: " وَقَالُوا آلِهَتَنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ

هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ" (الزخرف: ٥٨) وقوله تعالى: " (ص ٦٩)، وقوله: " قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ

قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ" (ق: ٢٨).

٦. **المناظرة**: وهي تردد الكلام بين طرفين يقصد كل منهما تصحيح قوله، وإبطال قول

صاحبه، مع رغبة كل منهما، في ظهور الحق^(٢). ومن هنا فرق بعضهم بينها وبين الجدل، إذ

الجدل بمفهومه العام مدافعة لإسكات الخصم، لأن كلاً من المجادلين يقصد إلى حفظ مقالته،

ونقض مقال خصمه. وذهب بعض العلماء إلى عدم التفريق بين الجدل والمناظرة وإن فرق وإن

فرق بينهما على طريقة اللغة، نظراً لاختلاف أصل اشتقاق كل منهما، وقالوا بعدم التفريق بين

المناظرة والمجادلة والجدل^(٣). ولم يرد استعمال أصل لفظ المناظرة، بمعنى الجدل، في القرآن.

القرآني إلا المناظرة فلم يرد ذكرها، لكنها شاعت في الاستعمال واقتربت كثيراً بلفظي الجدل

والمجادلة . وثمة مصطلحات أخرى تدور في فلك مفهوم الجدل نكتفي بذكرها نقلاً عن "المكنز

الكبير" الذي جمعها في حيز واحد وهي: المساجلة أو السجال، والمباحثة والمناقشة، واللجاج أو

(١) انظر الآيات: البقرة (٢٠٤)، آل عمران (٤٤)، النساء (١٠٥) النحل (٤)، الحج (١٩)، الشعراء (٩٦)،

النمل (٤٥) يس (٧٧، ٤٩)، ص (٦٩، ٦٤، ٢٢، ٢١)، الزخرف (٥٨)، ق (٢٨).

(٢) انظر: الأعمى، مناهج الجدل في القرآن الكريم، ص ٢٥.

(٣) انظر: حسن ، عثمان علي ، منهج الجدل والمناظرة، ج ١، ص ٣١.

الملاحة، والمفاوضة، والمعارضة، والمشادة أو الشداد، والمجاوبة، والمراجعة، والمداورة،
والملاحاة، والمماحكة، والمماحلة^(١).

ومع أن كل مصطلح من هذه المصطلحات متضمن دلالة تميزه عن غيره، فإنها جميعاً تشترك
في قاسم دلالي مشترك واحد، هو أن كلاً منها يمثل جهداً إقناعياً يختلف في درجته وأساليبه تبعاً
لسياقه وحقله الوظيفي

الأشكال اللغوية للجدل القرآني

قبل تحديد مفهوم "الجدل" الذي سيتعامل على أساسه الباحث مع الخطاب القرآني، نذكر
النصوص التي ورد فيها أصل لفظ الجدل في القرآن، وتبلغ تسعة وعشرين موضعاً نوردتها
حسب ترتيبها في المصحف.

- "... فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ... " البقرة: ١٩٧
- " وَلَا يُجَادِلُ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ... " هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ
يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ ... " النساء: ١٠٧، ١٠٩.
- " وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْمَعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةَ آيَةٍ لَّا
يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ " . " وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ

(١) عمر، أحمد مختار، وآخرون، المكنز الكبير، ص ٧٤٦.

يُذَكِّرُ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِئْسٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ

. (الأنعام: ١٢٥، ٢٥)

- "... أَمْجَادِ لَوْ تَبِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَسْمَاءٌ وَأَبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ..."

. (الأعراف: ٧١)

- "يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ" (الأنفال: ٦)

- "قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْنَاكَ فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ" " فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ

إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ" (هود: ٧٤، ٣٢)

- "وَسَبَّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ

فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ" (الرعد: ١٣)

- "يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ بِجَادِلٍ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ" "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ

رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِآيَاتِي هِيَ أَحْسَنُ ..."

. (النحل: ١١١، ١٢٥)

- " وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا " وَمَا تُرْسِلُ

الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا

الكهف: (٥٦،٥٤).

هُزُوا

- " وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ " وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ

بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ " وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ .

الحج: (٦٨،٨،٣).

- " وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ... "

العنكبوت: ٤٦

- " أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً

وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ " لقمان: ٢٠ .

- " مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ

وَالْأَخْرَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرُسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَيُجَادِلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ

فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِي " . " الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَنَا هُمْ كَبِيرٌ مَعًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ

الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُكَبِّرٍ جَبَّارٍ " . " إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ

سُلْطَانِ أَمَانِهِمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِيغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ" . " أَلَمْ

تَرَى إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ" . غافر: (٤-٥، ٣٥، ٥٦، ٦٩).

- "وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ" . الشورى: ٣٥.

- "وَقَالُوا آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ" الزخرف: ٥٨.

- "قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ

سَمِيعٌ بَصِيرٌ" المجادلة: ١.

إن الناظر في النصوص السابقة يلحظ ببسر أن بعضها يدعو إلى الجدل ويحث عليه، وبعضها ينهى عنه ويحذر منه، وليس الأمر محتاجاً إلى طويل مناقشة وتحليل، فليس الجدل خارجاً عن كونه كلاماً، وكل كلام أياً كان نوعه ومنه الجدل أيد الحق، أو أفضى إليه بنية خالصة وطريق صحيح، فإنما هو مشروع أو مستحب أو واجب، وكل جدال - بالمقابل - ظاهر الباطل أو أفضى إليه منهى عنه مذموم. ولا أفهم سبب خوض كثير من الباحثين في مسألة الجدل الممدوح والجدال المذموم، وانقسام بعضهم بين قائل بمشروعيته وقائل بمنعه^(١)، والنص القرآني ذاته يدعو إلى مجادلة أعداء الحق بالحجة والبرهان، فضلاً عن كثرة نصوص الجدل في القرآن، وتنوع أساليبها وغاياتها، والتي ستشكل ميدان دراستنا التطبيقية لتحليل خطاب الجدل

(١) انظر تفصيل هذه المسألة في: الألمعي، مناهج الجدل في القرآن الكريم، ص ٥٤-٥٥، وحسن، عثمان علي،

منهج الجدل والمناظرة، ص ٢٧٩-٣١٤.

القرآني، نحو جدال القرآن مع منكري البعث ومع أهل الكتاب، وجدال الرسل -عليهم السلام- مع أقوامهم وأعدائهم، وغير ذلك كثير من صور الجدل الموثقة في النص القرآني.

ومع ذلك فليس ثمة تعارض بين أدلة المانعين للجدل والمثبتين له، لأن أدلة المانعين ترجع إلى ذم الجدل بالباطل، وهو كل جدال ناصر الباطل أو أفضى إليه، وأدلة المثبتين تدل على وجوب الجدل أو استحسانه لنصرة الحق وإقامة الحجة والبرهان، لتبليغ رسالة الله والدفاع عنها، وهذا واجب الدعوة، وبهذا يندفع الإشكال إذ واضح أن الجدل المأمور به غير الجدل المنهي عنه.

ولا بد للجدل أن يكون بالحق وبعلم: " وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ " (الحج: ٣) "كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب" (غافر: ٥)، وهو أسلوب مهم من أساليب النصح والدعوة، من أجل ذلك كان الرسل كلهم مجادلين بالحق مدافعين عن رسالاتهم ناصحين صادقين لأقوامهم؛ انظر إلى جواب نوح -عليه السلام- عندما قال له قومه: "يأتوح قد جادلنا فأكثرت جدالنا فإنا بما بعدنا إن كنت من الصادقين" (هود: ٣٢)، قال: " إِمَّا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ * وَلَا يَنْفَعُكُمْ تَصْغِييَ إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ "

(هود: ٣٣-٣٤).

رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ "

أما مفهوم الجدل القرآني الذي نؤسس عليه تعاملنا مع الخطاب القرآني، فيتضمن كل محاوره فكرية وردت في القرآن قائمة على مغالبة أو منازعة بين طرفين، ولم أقصر الجدل القرآني على ما جاء في القرآن من براهين وأدلة توصل بها مجادلاً لهداية أعداء القرآن، وإلزام المعاندين، وإن كانت تشكل المساحة العظمى من الجدل القرآني، ليشتمل كل حوار جدلي أياً كان أطرافه وغايته.

وعليه فإن البنية الحوارية للنص هي الأساس الأول والأهم في تتبع خطاب الجدل القرآني، والحوارية تقتضي الثنائية، أي أن ثمة طرفين - على الأقل - يمثلان المرجعية الخارجية للمقولات اللغوية التي تكون النص، ويتبادلان إنتاج الرسالة اللغوية وتلقيها؛ فكل منهما مرسل ومستقبل في العملية التواصلية، على اختلاف في المساحة المتاحة لكل منهما تبعاً للسياق، وحتى في الجدل أحادي الجهة الذي منه -على سبيل المثال - جدال الله سبحانه مع بني إسرائيل^(١)، حيث المرجعية الخارجية للخطاب طرف واحد حاضر هو المخاطب، والمخاطب غير مشارك فعلياً في إخراج النص، فلا ينتج رسائل لغوية تكون الخطاب، لكنه حاضر فيه بالقوة ويستحضره المخاطب ليدعوه أو يجيبه أو يرد عليه، أو ينقض ادعاء له أو اعتقاداً. بل إن النص قائم - هنا - من أجله أساساً. وباختصار فإن الخطاب الجدلي أحادي الجهة متعلق بسياق خارج النص الظاهر موجه إلى مخاطب حاضر في ذهن الناص، وسنرى أمثلة توضحه في مكانه من البحث.

وبالجمله، وباستقراء النص القرآني، وجدنا أن خطاب الجدل فيه، شكلاً وطريقة، على صورة من ثلاث صور عامة نقترح تسميتها الأشكال النصية للجدل القرآني وهي:

(١) انظر الآيات: (٤٠-٤٤)، (٨٣-٩٠)، من سورة البقرة.

أولاً: الجدل التخاطبي أو التحواري الداخلي^(١)

وهو الجدل المباشر بين طرفين -أو أكثر- حاضر كل منهما في الحوار مجادلاً الآخر مغالباً إياه بالقول والحجة، وخير مثال على هذا الشكل كل ما ورد في القرآن من جدل يتبادل فيه المتجادلون الأدوار في إرسال الخطاب واستقباله، وينقل القرآن أقوالهم وحججهم مستعملاً لفظ القول: "قال" أو ما قام بوظيفته نحو (نادى) و (أذن)، ونورد أمثلة على هذا الشكل من خطاب الجدل في القرآن الذي يكثر في سياق مجادلة الرسل أقوامهم وأعداءهم ومنها ما حكاه القرآن عن مجادلة إبراهيم -عليه السلام- ملكاً كافراً بالله منكراً وجوده عناداً أو مكابرة: "أَلَمْ تَرَ إِلَى

الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" (البقرة: ٢٥٨).

ومن شواهد هذا الجدل ما دار من حوار بين شعيب -عليه السلام- وقومه الظالمين

المكذابين: "وَأَلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ: يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ؛ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ، إِنَّي أَرَاكُمْ بِحَيْرٍ، وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ* وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ* بَعَثَ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ*

(١) يمكن تسميته بالجدل التحواري المباشر من جهة شكل الاتصال بين أطراف الحوار.

قَالُوا : يَا شَعِيبُ أَصْلَانِكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَرْكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ؟!

إِنَّكَ لَأَمْتٌ الْحَلِيمِ الرَّشِيدِ .

قَالَ : يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيَّ يَبْنِيَّةٌ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ لَكُمْ

إِلَى مَا أَنْتُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ * وَيَا قَوْمِ لَا

يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ *

وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ .

قَالُوا : يَا شَعِيبُ مَا نَعْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَعْنَاكَ وَمَا أَنْتَ

عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ .

قَالَ : يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ ؟ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا ، إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ

مُحِيطٌ

(هود: ٨٤-٩٢).

ومن أوضح الأمثلة على هذا النوع من الجدل ما حكاه القرآن في عدة مواضع عن

احتدام الجدل بين موسى -عليه السلام- وفرعون، منها الموقف التالي حين أتى موسى -عليه

السلام- ومعه هارون إلى فرعون ليبلغاه انهما رسول رب العالمين، وأن يرسل معهما بني

إسرائيل:

"قَالَ : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ جَعَلْنَا لَيكَا وَوَالِدَيْهِمَا كُفْرًا كَلْبًا مُدْرِكِ السِّنِّينَ ، فَجَعَلْنَا لَكَ الْيَتِيمَ أَنتَ أَنتَ

مِنَ الْكَافِرِينَ .

قَالَ : فَجَعَلْنَا إِذَا وَآتَا مِنَ الضَّالِّينَ ، فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفَكُمُ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي

مِنَ الْمُرْسَلِينَ . وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ؟ !

قَالَ فِرْعَوْنُ : وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟

قَالَ : رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّكُمْ لُمُوقِنِينَ .

قَالَ لَمَنْ حَوْلَهُ : أَلَا تُسْمِعُونَ ؟ !

قَالَ : رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ .

قَالَ : إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ .

قَالَ : رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ .

قَالَ : لَنْ نَحْدُثَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ .

قَالَ : أَوَلَوْ جِئكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ "

(الشعراء: ١٨-٣١).

وواضح أن هذا النوع من الجدل بالنظر إلى النماذج إلى قدامها - قائم على التحوار المباشر بين أطراف الحوار، والتفاعل بينها، وهو حوار مسرحي ينقلنا الخطاب القرآني لنطلع عليه مباشرة، وكأننا أمام مشهد تمثيلي يتواصل فيه أطراف الحوار، ويتبادلون الأدوار لإنجاح العملية التواصلية.

ثانياً: خطاب الجدل التلقيني، ووظيفته تأييد أحد المجادلين بحجة تقوي جانبه وتضعف الخصم.

ويكثر في النصوص التي يخاطب فيها الله الرسول أو صاحب الدعوة والرسالة معلماً إياه كيف يواجه المجادلين، وغالباً ما يكون الطلب من الله بلفظ (قل) توجيهاً وإرشاداً وتقوية لخطاب المقصود بلفظ (قل). ومن الأمثلة على هذا النوع من الجدل ما جاء في مجادلة اليهود وتوجيه الرسول محمد - عليه الصلاة والسلام - ليجادلهم ويرد ادعاءاتهم وينقض مزاعمهم، قال تعالى: "وَإِذَا قِيلَ لَهُم آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَوْحِينٌ مِمَّا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَكُفْرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ تَسْمَأُ بِأَمْرِكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَمَتَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَنْ يَمُنُّوا أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ" (البقرة: ٩١-٩٥).

ومنه قوله تعالى في مجادلة أهل الكتاب : " وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ

أَتُحَدِّثُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً

وَأَخَاطَتُ بِهِ خَطِيئَتَهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" (البقرة: ٨٠-٨١).

ومثله: " وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ * بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ"

(البقرة: ١١١-١١٢).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن خطاب الجدل في كل من الأمثلة الثلاثة محصلة ائتلاف ثلاثة

أجزاء نصية متسقة جهاتها مختلفة:

١. الحوار الداخلي المباشر الذي يتضمن المسألة الأساسية التي تمثل بؤرة الجدل.

- (وإذا قيل لهم: ... قالوا: ...)

- (وقالوا: لن تمسنا النار...)

- (وقالوا: لن يدخل الجنة إلا...).

ب. الخطاب الخارجي الإرشادي: (قُلْ) ووظيفته تأييد جهة الحق بالحجة أو البرهان

لدفع الخصم أو إلزامه.

ج. التعليق البياني، والبياني هنا بمعنى التوضيحي، وهو خطاب يتضمن جواباً أو سؤالاً،

أو يكشف جانباً مهماً يقوي حجة جهة الحق، ويظهر ضعف دعوى الطرف المقابل :

" بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَخَاطَتُ بِهِ خَطِيئَتَهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ"

(البقرة: ٨١).

" وَلَنْ يَمَتُّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ " (البقرة: ٩١).

ومن المشاهد الجدلية الطريقة التي تتدرج ضمن هذا الشكل من الجدل ذلك المشهد الذي

يكشف به الله ضعف حجة اليهود في مسألة تغيير قبلة المسلمين والتنبؤ بما سيقولونه مستهزئين

أو مشككين قال تعالى:

" سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ

يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ

شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَبِيعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً

إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِعَ إِيمَانَكُمْ إِنْ اللَّهُ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ * قَدْ تَرَى نُقْلَ وَجْهِكَ

فِي السَّمَاءِ فَلتَوَلَّيْنِكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ

شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِعَاقِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ * وَلَنْ آتِيَنَّ الَّذِينَ

أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا يَتَّبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبَلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَنْ آتِيَنَّ أَهْوَاءَهُمْ

مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ " (البقرة: ١٤٢-١٤٥).

فاجتمع لخطاب الجدل في هذا المشهد البيان وتقوية الحجة مع فضح للمجادلين وتحد

لهم.

ومن الصور الجزئية لهذا النوع من الجدل أن يأتي التعليق البياني مباشرة بعد حكاية

الحوار الداخلية كما في قوله تعالى في كلامه على المنافقين:

" وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ . قَالُوا : إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ .

أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ . قَالُوا : أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ؟ !

أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ .

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا : آمَنَّا ، وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شِيَابِئِهِمْ قَالُوا : إِنَّا مَعَكُمْ ؛ إِنَّمَا نَحْنُ

مُتَشَكِّكُونَ .

اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ" البقرة: (١١-١٥) .

ولا يقتصر هذا الشكل من الجدل -دائماً- على تلقين المجادل الرد أو الجواب أو الحجة،

وإنما قد يشمل كذلك تلقينه سؤالاً أو طلباً ليواجه به مجادليه ويفتح به الحوار. ومنه النمادج

الآتية من النص القرآني:

"فَأَسْقِنَهُمْ أُنْهَمُ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ * بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ *

وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ * وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ * وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ * أَنْدَا مِنَّا وَكَمَا تَرَأْنَا

وَعِظَامَنَا أَنَّنَا لَمَبْعُوثُونَ * أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ * قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ" (الصافات: ١١-١٨) .

ونحو ذلك ما جاء في القرآن من فضح لنوايا المنافقين وكشف خفاياهم، وإرشاد الرسول

صلى الله عليه وسلم - كيف يواجههم وهم يظهرون له خلاف ما يكتُمون: " وَلَنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولَنَّ

إِنَّمَا كُنَّا نَحْوُكُمْ وَتَلَعَبُ قُلُوبُنَا بِاللَّهِ وَأَيَّاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَدِرُوا قُدُورَكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنِّي تَعَفُّ

عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ تَعَدَّبَ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ" (التوبة: ٦٥-٦٦).

ومثله: " قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي

السَّمَاوَاتِ إِنِّي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (الأحقاف، ٤).

"وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاذْهَبْ بِسُلُوكِ إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ

يَا مُوسَى مَسْحُورًا" (الإسراء: ١٠١).

" سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلِ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ

الْعِقَابِ" (البقرة: ٢١١)

وهذا دليل واضح على حث صاحب الدعوة على الجدل بالحق والمبادرة إليه عند

مواجهة المعارضين فيرتبط الجدل -حينئذ- بسياق خارجي يدل عليه حال المجادل نحو اعتقاد

أو سلوك يغني عن القول.

وقد يلقن المجادل السؤال والجواب ليواجه به الطرف الآخر الذي لا يجد إجابة واقعية

مقنعة للسؤال الواقع عليه:

"قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلْ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَا يُؤْفَكُونَ * قُلْ هَلْ

مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ . . . " (يونس: ٣٤-٣٥).

وتتضمن هذه الصورة استهانة بخطاب الطرف الآخر، (المجادل) وإهمال قوله- إن وجد- وتحرية موقفه الهزيل؛ بل إنها تلغي دوره ووجوده.

ثالثاً: خطاب الجدل المباشر أحادي الصوت أو الجهة، وهو كل جدل

يخاطب به منلق غير مشارك فعلياً في بناء النص.

أي أن الجدل على هذه الصورة ليس تحاورياً بين طرفين ينتج كل منهما رسالة لغوية موجهة إلى الآخر، بل هو خطاب موجه من مخاطب إلى مخاطب غير فاعل لغوياً فسي إنتاج النص، لكنه حاضر في ذهن الناص متلقياً.

وغالباً ما يكون هذا النوع من الجدل تعليقاً على اعتقاد أو فعل، أو رداً لادعاءات ومزاعم، واستنكاراً لها وما شابه ذلك.

وسأكتفي بإيراد مثال واحد على هذا النوع من الجدل، وهو الخطاب الجدلي الموجه من

الله - عز وجل - إلى بني إسرائيل في سورة البقرة:-

"يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا بِعِمِّي الَّتِي أُعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ

فَارْهَبُونِي * وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْرِكُوا بِيَّاتِي تَمَنَّا قَلِيلًا وَإِيَّايَ

فَاتَّقُونِي * وَلَا تَلْسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ

الرَّاكِبِينَ* أَنَا مُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسُونَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَكْفُرُونَ أَفَلَا تَعْلَمُونَ* وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ
وَأَيُّهَا لَكِبْرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ "

(البقرة: ٤٠-٤٤).

"وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ* وَإِذْ
أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ شَاهِدُونَ* ثُمَّ أَنْتُمْ
هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ
أَسَارَىٰ فَبَادُوهُمْ وَهُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَهُمْ أَقْرَبُونَ بَعْضِ الْكُفَّارِينَ وَتَكْفُرُونَ بَعْضٌ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ
ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِعَاقِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ*
أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَحْفَظُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ* وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ
الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ
بِمَا لَا تُهْوَىٰ أَنفُسَكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقُولُونَ* وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا
مَّا يُؤْمِنُونَ* وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا
فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ* تَسْمَأُ اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ
بَعْبًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ

(البقرة: ٨٣-٩٠).

وظاهر من النصوص السابقة أنها تركز على إضعاف حجج بني إسرائيل، وتخطئتهم، ونقض ادعاءاتهم، وتفضح نياتهم، وتكشف خفايا أنفسهم، مما يقوي جانب الرسول- محمد - صلى الله عليه وسلم- الذي كذبوه وحاربوه، -مع علمهم بالكتاب- ويعزز موقفه.

وهذه النماذج من الجدل القرآني مع بني إسرائيل -وإن كانت أحادية الصوت- الخطاب فيها قائم على استحضار عقائدهم وأقوالهم لتخطئتهم وإلزامهم، فالصوت الآخر فيها مضمّر غير ظاهر.

وبعد؛ فإن هذا الفصل من البحث تمهيداً للممارسات النصّية التطبيقية القادمة بعده، عرضنا فيه، ضرورة، مفهوم الجدل في اللغة والاصطلاح مع توضيح مفهومه الدقيق الذي اعتمده الدراسة أساساً لاختيار نصوص الجدل والتعامل معها في الجزء التطبيقي من الدراسة. ولذلك كان لا بدّ من تقديم هذا الجزء الذي يمثل مدخلاً تمهيدياً إلى التحليل النصّي للخطاب القرآني .

الفصل الثاني

تحليل خطاب الجدل القرآني

تمهيد

يمثل هذا الجزء من الدراسة ما يمكن تسميته الجانب التطبيقي في بحث خطاب الجدل القرآني، وأسارع إلى القول بدءاً: إن التطبيق هنا لا يعني تماماً الوجه المقابل للنظرية، كما أننا لا نستطيع وصف ما قدمناه في الفصول الأولى بالنظرية فنحتاج عندها لفحصها وتجريبها والتطبيق عليها. الأمر الذي ستحاول الدراسة عمله هنا إنما هو التعامل مع النص القرآني من خلال خطاب الجدل فيه، تحليلاً لوصف آليات انسجامة وتماسكه، وكشف مزايا النظم فيه وعناصر إبداعه وتفوقه، وذلك كله لا بد أخذ بمبادئ تحليل الخطاب التي استعرضناها فيما مضى من الدراسة، وذلك كله خطوة في طريق التعاطي مع نسيج النص القرآني بوصفه كلاً واحداً مترابطاً، ومسلك نطمح أن نطلع منه على سر الإبداع (الإعجاز) القرآني في اتصاله باتساق النظم، ودقة الاختيارات الأسلوبية، وهو الأمر الذي أشار إليه عبد القاهر في محاولته كشف سر الإعجاز القرآني، ولماذا عجز العرب عن الإتيان بمثله وهو منظوم بألفاظهم وبأساليبهم التي يتعاطونها ليل نهار؛ قال عبد القاهر: "وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة، وعشواً عشراً، وأية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها، ولفظة ينكر شأنها أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه، أو أخرى وأخلق، بل وجدوا اتساقاً بهر العقول، وأعجز الجمهور،

ونظاماً و التماماً، وإتقاناً وإحكاماً، لم يدع في نفس بليغ منهم ولو حك بيافوخة السماء، موضع طمع، حتى خرس الألسن عن أن تدعي وتقول، وخذيت القروم، فلم تملك أن تصول^(١).

ولما كان الجدل القرآني هو الخطاب الذي اختارت الدراسة التعامل معه نموذجاً لمحاولة استكشاف مبادئ انسجام النص من خلاله، بدأنا - ضرورة - باستقراء النص القرآني آية آية و مرة بعد مرة، لاستكشاف مواضع الجدل في النص واستخراجها وفق المنهج الذي أسنناه في تحديد مفهوم الجدل من أنه قائم على أساس البنية الحوارية في الخطاب التي تشكل منظومة اتصال: مرسل - متلق - رسالة - اتصال / تفاعل.

وبناء على جعل البنية الحوارية أساساً لمفهوم الجدل الذي اخترناه، فإنه سيتقاطع في مساحات وحدود، مع أبواب أخرى من الحوار أو النشاط الكلامي كالمحاجة والمخاصمة والمراجعة والمخالفة والمحادثة وغيرها من المصطلحات الأخرى التي سبقت الإشارة إليها مثل المحاوراة والمراءاة والمنازعة والمناظرة... إلخ^(٢).

فكل ما تقاطع من النص القرآني مع مفهوم الجدل الذي قدمناه يدخل في نصوص الجدل التي ستكون ميدان الدراسة .

(١) دلائل الإعجاز، مطبعة المدني، ١٩٩٢، ص ٣٨-٣٩ وقد سبق توظيف نص عبد القاهر الجرجاني عند الحديث عن إسهاماته الجليلية في تأسيس مبادئ علم النص وتحليل الخطاب. ويمكن الرجوع إلى كلامه عن جهة إعجاز القرآن وهو يقول: "الجهة التي قامت الحجة بالقرآن وظهرت وبانت وبهرت هي أن كان على حد من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر ومنتهياً إلى غاية لا يطمح إليها بالفكر، وكان محالاً أن يعرف كونه كذلك إلا من عرف الشعر الذي هو ديوان العرب وعنوان الأدب" المرجع نفسه، ص ٨.

(٢) انظر: عمر ، أحمد مختار وآخرون، المكنز الكبير، ص ٧٤٦. وانظر: خليل ، خليل أحمد ، جدلية القرآن، دار الفكر اللبناني، ط ١، بيروت، ١٩٩٤، ص ١٨-٢٢، حيث يشير المؤلف إلى أن الجدل القرآني (أو المجادلة القرآنية) له عدة معانٍ متقاربة، فالجدل قد يكون بمعنى المخاصمة: "وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً" (الكهف: ٥٤). أي أكثر خصومة في الباطل، ومثله المحادة والمشاqqة، ومن معانية المحاجة "يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها" (النحل: ١١١)، أي تحاج عن نفسها وتدفع التهم الموجهة إليها أو تنقضها لتثبت غيرها.

أما تحليل خطاب الجدل القرآني، فتشترك عدة مناهج تتكامل وتتداخل وتتقاطع لتصوغ مبادئه، وتقوم باستكشاف آليات تماسكه وترابطه، بوصفه ظاهرة تتجسد في الخطاب، وينتج بدوره بها، ولذلك تتوزع دراسة الجدل أو الحجاج القرآني على اللسانيات والبراغماتية والبلاغة. ولعل من المناسب أن نبدأ بفرضية أن خطاب الجدل يتميز بوصفه نصاً، عن غيره من الأشكال النصية الأخرى؛ فهو يتوفر على سمات لسانية وبراغماتية تجعله متميزاً عن الخطابات السردية، والإبلاغية مثلاً.

وترى الفرضية أن الجدل القرآني يوظف الأبعاد اللسانية والبراغماتية والبلاغية ليتم له الخروج متماسكاً قوياً مؤثراً مقنعاً، وهذه وظيفته والغاية منه، إذ يحاول الجدل القرآني استثمار كل المناهج التي تسهم في إنتاج الخطاب لصالح التأثير والإقناع .

إن التحليل اللساني للجدل - ظاهرة لسانية نصية- وطرقه يتخذ من الخطاب نفسه وكيفية إنتاجه موضوعه الأساسي. ويسعى هذا التحليل إلى بلورة مبادئ وأسس يتم التعامل مع خطاب الجدل لسانياً من خلالها، وهذا يتطلب، بدهاء دراسة بناء خطاب الجدل وعلاقاته الداخلية بشكل مواز لدراسة اختلافه عن أجناس الخطاب الأخرى وتأثيره في المتلقين، إذ هو خطاب تواصلية له مرجعية أو سياق مشترك بين المرسل والمتلقي، يتحقق بصور أسلوبية خاصة تخضع لشروط الاتصال بين طرفي الخطاب: المرسل والمتلقي وبذلك تبرز في الخطاب مكانة القصدية والتأثير، وتوظيف الأسلوبية اللغوية التي تنطلق من الأسلوب بوصفه يقوم على استثمار الموارد الإبلاغية للغة لصياغة الفكرة بأقصى فعالية ممكنة^(١).

(١) انظر: أعراب، حبيب، الحجاج والاستدلال الحجاجي، مقال في مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ٢٠٠١، المجلد (٣٠)، العدد الأول، ص ١٠١-١٠٧.

وهذا كله ينتمي إلى مجال البراغماتية، ونقصد بها هنا البراغماتية اللغوية التي تحاول

في تعاملها مع الخطاب، أي خطاب، الإجابة عن أسئلة مهمة:-

- من المتكلم؟ وإلى من يتكلم؟

- ماذا نقول بالضبط حين نتكلم؟

- كيف نتكلم بشيء ونريد قول شيء آخر؟

ولا بد- للإجابة عن هذه التساؤلات- من استحضار مقاصد المتكلم(المرسل) وأفعال

اللغة، وبعدها البراغماتي، والسياق، ومعرفة العالم. وكل ذلك ينطبق على خطاب الجدل الذي

يتجلى فيه بعد براغماتي مميز يتمثل في المستوى التحواري المتحقق بالعملية التواصلية^(١).

أما دور البلاغة في تحليل خطاب الجدل فأت من جهة أن الجدل كفعالية خطابية لا

يظهر أو يتجسم لغوياً إلا بمهارات أسلوبية وتأثيرات بلاغية تخضع لشروط إبداعية أو متطلبات

جمالية وأبسة يتلبسها مسار الجدل وعلاقاته الداخلية. وهكذا، "تفاوت قيمة هذه العوامل من

نص إلى نص آخر، فالأسلوب ومهارات البيان والتبيين تقوي الحجج وتزيد من فعاليتها، أي

تعمل لصالح التأثير والإقناع"^(٢). ولا تخرج هذه المبادئ عن إطار قاعدة مراعاة الكلام لمقتضى

الحال ومطابقته لقصده، وهو ما سبقت الإشارة إليه عند الحديث عن دور التراث البلاغي فسي

صوغ مبادئ أولية لتحليل خطاب عربي. وستحاول الدراسة في تحليل خطاب الجدل الاستفادة من

معطيات المبادئ والمناهج المتصلة بالتحليل المتكامل الألسني والبراغماتي التواصلية للخطاب

بعمامة وخطاب الجدل بخاصة.

(١) أعراب، الججاج والاستدلال الحجاجي، ص ١٠٢-١٠٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٠٦.

التماسك النصي في الخطاب القرآني

تتعلق النظرة إلى تماسك الخطاب القرآني من فرضية كونه نصاً واحداً رغم تفاوت أوقات نزوله واختلاف مناسباته، ومن أن الآي فيه والصور يرتبط بعضها ببعض وتتأخذ لتشكل نصاً منسجماً، وهي مسألة مهمة انطلق المتقدمون، وأولهم المفسرون، منها وعلى أساسها بوعي للتعامل مع النص القرآني كلاً مترابطاً، عبروا عنه عادة بأنه كالكلمة الواحدة، ترتبط الآي فيه متسقة المعاني، منتظمة المباني. وهذا التماسك النصي يدرس من خلال المستويات التي يتحقق بها انسجام النص: المستوى النحوي والمستوى الدلالي والمستوى البراغماتي^(١).

وسنحاول دراسة نماذج من الجدل القرآني من خلال هذه المستويات لتوضيح الآليات التي يتماسك بها النص القرآني قبل أن نحلل نصوصاً مختارة تحليلاً تكاملياً.

١. الربط التركيبي: وهو ما درسه المتقدمون تحت اسم العطف أو الوصل و الفصل، ويتم به بيان الطريقة التي تترابط بها أجزاء النص الواحد، وذلك على مستوى المقاطع المكونة للنص، أو على مستوى ترابط الجمل أو المتتاليات المتعاقبة خطأ داخل المقطع بحيث ترتبط الجمل المتتالية بأداة أو بغير أداة وقد اخترنا نصين من الجدل القرآني لنتبين من خلالهما طريقة الربط بين أجزاء النص في خطاب الجدل نموذجاً للنص القرآني القائم على أساس بنية حوارية.

النص (١):

(١) شكلت هذه المستويات الإطار النظري الذي سار عليه محمد الخطابي في تحليله قصيدة أدونيس "فارس الكلمات الغربية" وذلك ضمن كتاب: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب. وهذا الإطار صاغه من تقاطع المقترحات الغربية في انسجام الخطاب مع المعطيات المستخلصة من المباحث العربية وفق المنهج الوصفي التحليلي، وهذه المستويات تصلح لأن تكون إطاراً لتحليل كل خطاب لغوي، ومستشكل متكاملة الإطار العام الذي ندرس في ظله تحليل خطاب جدل القرآن. انظر: محمد الخطابي، لسانيات النص، ص ٢٠٩.

" وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَعَنُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ * مَسَلَهُمُ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ دَهَبَ اللَّهُ نُورَهُمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ * صُمُّ بَعْضِكُمْ عَلَىٰ فُؤَادِهِمْ لَا يُرْجِعُونَ " .
 (البقرة: ١١-١٨).

يتكون خطاب الجدل في هذا النص في مستويين: مستوى الحوار الداخلي المتمثل فسي الكلام المقول بين أطراف الحوار، ومستوى الحوار الخارجي المتمثل في صوت ذات النصاص (الله) حين يروي الحوار الداخلي وحين يعلق عليه.

صوت ١: لا تفسدوا في الأرض.

صوت ٢: إنما نحن مصلحون.

صوت خارجي (الله): ألا أنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون.

صوت ١: آمنوا كما آمن الناس.

صوت ٢: أنؤمن كما آمن السفهاء؟

صوت: ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يشعرون.

صوت (من المنافقين إلى الذين آمنوا): آمنا.

(كلام مع شياطينهم): إنا معكم، إنما نحن مستهزون.

صوت خارجي: اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ

نلاحظ أن الجمل في الحوار الداخلي لا تحتاج إلى رابط شكلي يربط بينها، لأنها تمثل الجزء الواقع من الكلام بين طرفي الحوار مباشرة بحيث ينشأ عن كل جملة من أحد أطراف الحوار جملة من الطرف الآخر، فهي قول ورد عليه، كما في الطلب والجواب أو السؤال والجواب بين مرسل ومتلقٍ، وهذا لا يحتاج إلى رابط شكلي، والرابط تبادل أدوار المتكلمين.

• لا تفسدوا في الأرض ∅ إنما نحن مصلحون.

• آمنوا كما آمن الناس ∅ أنؤمن كما آمن السفهاء؟^(١).

ونلاحظ هذا الربط المباشر كذلك في اتصال المستوى الداخلي للحوار مع المستوى الخارجي المتمثل في التعليق على قول المنافقين بعد كل جزء من أجزاء الحوار الداخلي المكونة للنص وذلك في قوله تعالى:

• ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون.

• ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون.

• الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون.

حيث تمثل كل جملة خيراً عن المنافقين من الناص (الله) نلت حكاية قولهم، ولذلك لم يتم الربط بين هذه الجمل وما قبلها بالعطف، وإنما كان الربط مباشراً، لتغيير صيغة الخطاب، ولاختلاف المستوى بين الخطابين حدوثاً وزماناً.

وثمة شكل آخر من أشكال الربط المباشر في النص في قوله تعالى: "وإذا خلوا إلى

شياطينهم قالوا: "إنا معكم. إنما نحن مستهزئون".

(١) الإشارة ∅ تعني: أن الربط تم مباشرة، أي بدون أداة من أدوات الربط الشكلية (أداة عطف).

فقول المنافقين: "إنما نحن مستهزئون" مرتبط بالجملة "إنما معكم" توكيداً وتقريراً لمضمونها، لأنهم سبق منهم القول للمؤمنين: آمنا، فكانوا بحاجة لتأكيد قولهم أنهم ما زالوا مع شياطينهم ولم يؤمنوا كما قالوا.

والجملة المؤكدة كالتأكيد المفرد لا يحتاج إلى رابط يربطه بالمؤكد، وتصلح جملة "إنما نحن مستهزئون" أن تكون استثناءً يحل التناقض في أقوالهم، ويعالج التساؤل عن أقوالهم المتأرجحة، وقد أشار الزمخشري إلى ذلك فقال: "كانهم اعترضوا عليهم حين قالوا لهم: "إنما معكم" فقالوا: ما بالكم إن صح أنكم معنا توافقون أهل الإسلام؟ فقالوا: إنما نحن مستهزئون"^(١).

وعلى الاستئناف لم تخرج عن إفادة التوكيد أيضاً لأنها جواب عن سؤال توقعه المرسل من المتلقي، فأفادت تقرير مضمون الأولى، وإزالة ما يمكن أن يقع من تساؤلات في ذهن المتلقي، والتطابق في المعنى بين الجملتين أغنى عن استعمال رابط شكلي.

وواضح أن الاتصال المباشر بين الجملتين معنوياً بالتوكيد أو الاستئناف، دون الاعتماد على رابط شكلي، يعد وسيلة مهمة من وسائل تماسك الخطاب. وقد سمي الزناد هذا النوع من الربط: الربط البياني، وقاعدته: كل جملتين متتاليتين في نص، ثانيتهما بيان للأولى ترتبطان ارتباطاً مباشراً بغير أداة^(٢). ولا يخفى أن البيان تتعدد معانيه وأشكاله، فقد يكون بالتأكيد أو بذكر السبب أو بتفصيل المجل أو بذكر الدليل إلى غير ذلك، مما يدخل في باب البيان.

أما الربط بين أجزاء النص الكلي والجملة المكونة للنصوص الجزئية بأداة ظاهرة (الوصل/ العطف)؛ فإنه يمثل طريقة تترايط بها أجزاء النص المتعاقبة خطياً بشكل منظم. وقد تراكبت جمل النص بتوسط أداتين هما: الواو والفاء. وكما أشرنا فإن الربط في المستوى

(١) الكشاف، ج ١، ص ٧٤ .

(٢) انظر، الزناد، نسيج النص، ص ٤١-٤٢.

الداخلي للحوار تم بشكل مباشر دون أداة. أما استعمال الأداة فقد تم في المستوى الخارجي للحوار المتمثل في إعطاء الحكم على المناققين وكشفهم وبيان مصيرهم، وكذلك في ربط المقاطع المكونة للنص الكلي بعضها ببعض، ويمكن استعراضها فيما يلي:-

١. (ومن الناس من يقول أمانا...) و (إذا قيل لهم لا تفسدوا...).

٢. (إذا قيل لهم لا تفسدوا...) و (إذا قيل لهم أمنوا...).

ج. (إذا قيل لهم أمنوا...) و (إذا لقوا الذين آمنوا...).

د. (الله يستهزئ بهم) و (يمدهم في طغيانهم يعمهون).

هـ. (ما ربحت تجارتهم) و (ما كانوا مهتدين).

فالربط التركيبي بالواو بين كل جزئين أفاد إضافة عنصر إخباري جديد إلى العنصر السابق، وهذا ما يسمى بالوصل أو الربط الإضافي^(١). وهذه الإضافة الجديدة وجه من أوجه المخالفة بين الجملتين التي تعد شرطاً لحضور أداة الربط بين جمل النص.

ونقف مع الربط في (هـ) حيث لم تكن فائدة الربط بالواو بين الجملتين إضافة عنصر جديد بقدر ما أفاد تصعيد شعور المناققين بالخسارة في اشتراكتهم الضلالة بالهدى، والمبالغة في وصف حالهم السيئ، ذلك أن قوله: "ما ربحت تجارتهم" لا يفهم ضرورة خسرتهم الأصل (رأس المال وهو الهدى) فينبت نوع من الأمل في نفوسهم ويشعرون بشيء من الأمان أو الراحة، فيعقب بقوله و"ما كانوا مهتدين" أي أنهم فقدوا رأس المال في تجارتهم، وهذا الأسلوب في تفريعهم أبلغ وأشد أثراً في نفوسهم.

أما الربط بالواو مقترنة بـ لكن في قوله: (ألا إنهم هم المفسدون) و لكن (لا يشعرون).

وقوله: (ألا إنهم هم السفهاء) و لكن (لا يعلمون).

(١) انظر: الزناد، نسيج النص، ص ٥٩. والخطابي، لسانيات النص، ص ٢٣.

فقد أفاد أن العنصر الإخباري الجديد الذي أضيف جيء به استندراكاً لحل إشكالية

التناقض بين ما يصفون به أنفسهم وواقعهم الفعلي.

أما الربط بالفاء فقد ورد في ثلاثة مواضع:

. (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) فـ (ما ربحت تجارتهم و..): وأفادت الفاء

الرابطة مع التعاقب بيان السبب: الوصل السببي، مع غياب المهلة بين جزأي النص.

. (مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً) فـ (لما أضاعت ... ذهب...): تعاقب+ وجود مهلة

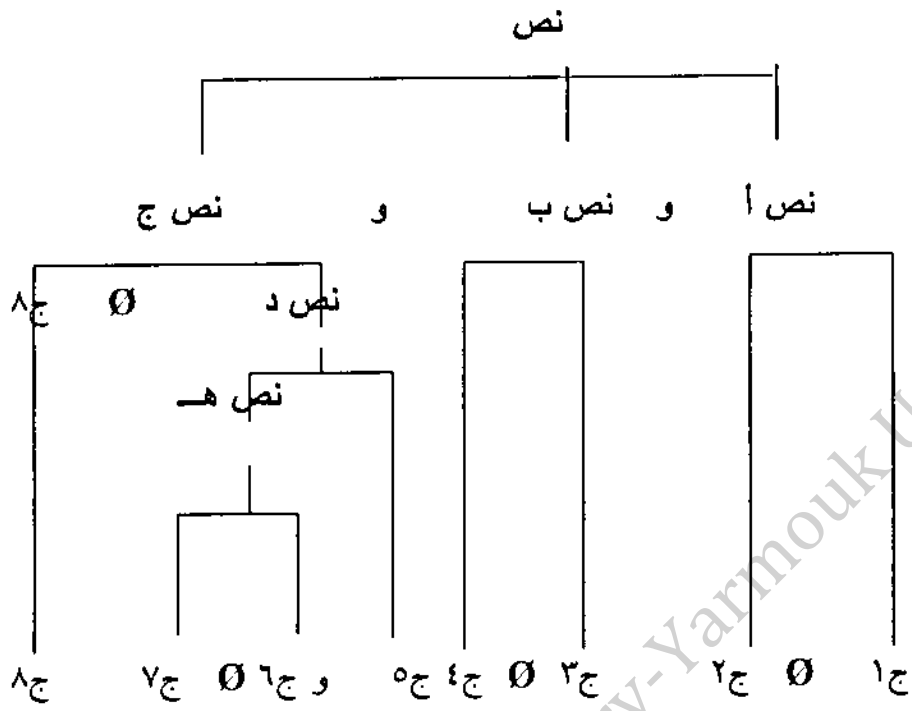
قصيرة بين الحدين.

. (صم بكم عمي) فـ (هم لا يرجعون) تعاقب+ سببية+ غياب المهلة.

ومع أهمية بيان كيفية تماسك أجزاء النص في الخطاب فإن الأهم دور أدوات التماسك

في المحصلة الدلالية الناتجة عن انسجام الخطاب، فضلاً عن أثرها في تشكيل الخطاب أصلاً.

ويمكن وصف بنية الروابط في النص كما يلي:



ج ١: إذا قيل لهم لا تفسدوا ... قالوا: ... إنما نحن مصلحون

ج ٢: ألا إنهم هم المفسدون ولكن ...

ج ٣: إذ قيل لهم آمنوا.... قالوا: أنؤمن كما آمن السفهاء؟

ج ٤: ألا إنهم هم السفهاء ولكن...

ج ٥: إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا...

ج ٦: إذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم.

ج ٧: إنما نحن مستهزئون.

ج ٨: الله يستهزئ بهم...

ج ٩: أولئك الذين اشتروا...

ج ١٠: ما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين

ج ١١: مثلهم كمثل....

ج ١٢: صم بكم عمى فهم لا يرجعون...

النص ٢:

"اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَبَيِّنَا فِي ذِكْرِي * اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلَا لَنَا

لَعَلَّهُ يَذَّكَّرُ أَوْ يَحْشَى * قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ لَا نَخَافُ إِيَّاهُ مَعَكُمْ أَسْمَعُ

وَأَرَى * فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ

عَلَى مَنْ أَسْبَغَ الْهُدَى * إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى *

قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى * قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى * قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى * قَالَ أَجِئْنَا لِنُخْرِجَنَّكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى * فَلَمَّا بَيَّنَّاكَ سِحْرَ مِثْلِهِ فَأَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى * قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِرَ النَّاسُ صُحَى "

(طه ٤٢-٥٢ / ٥٦-٥٩).

ويتكون النص من مشهدين مستقلين، الأول حوار موسى -عليه السلام- مع الله عز وجل، والثاني الجدل الذي دار بين موسى وفرعون. وقد تم الربط بين جمل النص التي تشكل المستوى الخارجي للنص (قال... قال...) بلا رابط، وذلك على تقدير السؤال بين الجمل المصدرية بـ قال:.... المتتالية في النص الحوارية؛ فهي تجيء على ما يقع في أنفس المخلوقين من السؤال والجواب لأن الناس خوطبوا بما يتعارفونه^(١).

والسؤال المقدر أو المتوقع غير الظاهر في سطح الخطاب من مسوغات الربط المباشر بغير أداة، ويلجأ إلى تقدير السؤال في خطاب ما (وغالباً ما يكون حوارياً) لملاءمة فراغ في الخطاب عندما يكون مبنياً على شكل زوج مكون من سؤال مقدر وجواب ظاهر^(٢)، يجعل الكلام متصلاً ببعضه ببعض دون وجود رابط شكلي، وهو وسيلة مهمة من وسائل التماسك في النص. وننظر إلى المشهد الأول والحوار الواقع بين الله عز وجل وموسى -عليه السلام-:

ج ١: اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تتنيا في ذكري.

(١) انظر: دلائل الإعجاز، مطبعة المدني، ١٩٩٢. ص ٢٤٠.

(٢) لمزيد تفصيل ينظر الخطابي، لسانيات النص، ص ١٠٩.

ج ٢: اذهباً إلى فرعون.

ج ٣: إنه طغى.

رابط: فـ

ج ٤: قولاً له قولاً لينا...

ج ٥: ربنا إنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى

ج ٦: لا تخافا.

ج ٧: إنني معكما أسمع وأرى.

رابط: فـ

ج ٨: أنتباه.

رابط: فـ

ج ٩: قولاً + نص : ج ١٠: إنا رسولا ربك.

رابط: فـ.

ج ١١: أرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم.

ج ١٢: قد جنناك بأية من ربك

رابط: و

ج ١٣: السلام على من اتبع الهدى.

ج ١٤: إنا قد أوحى إلينا...

فلاحظ أن ج ١ و ج ٢ و ج ٣ ترابطت ترابطاً مباشراً، فالجملة: "اذهباً إلى فرعون": أكدت

سابقتها "اذهب أنت وأخوك بآياتي" وأضافت لها بياناً، والجملة: "إنه طغى" استئناف بياني، حيث

حملت العلة في إرسالهما إلى فرعون^(١). ومن الجمل التي تم الربط فيها بشكل مباشر ج ١٠: "إنا رسولا ربك" و ج ١٤: "إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى؛" فالثانية أكدت الأولى وزادتها بياناً، كذلك تم الربط المباشر بين ج ١١ و ج ١٢:

"أرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم". قد جنناك بأية من ربك" فجاءت الثانية استئنافاً يجيب على سؤال توقعه المرسل من المتلقي وتحل ما يمكن أن يقع من تساؤلات في ذهن المتلقي حول موقف موسى وهارون غير العادي من وجهة نظر فرعون فكان لا بد من الربط المباشر^(٢).

يقوي هذا الوجه أن الجملة الثانية افتتحت بحرف التوقع أو التحقيق لأن حال السامع لادعاء الرسالة أن يتوقع دلالة على الإرسال.

ومن صور الربط المباشر الجميلة في النص قوله تعالى مخاطباً موسى وهارون: (لا تخافا، إني معكما أسمع وأرى) حيث جاءت الثانية استئنافاً بين سر طلبه -سبحانه- منهما ألا يخافا من فرعون، فكأنما قدر منهما سؤالاً: كيف لا نخاف؟ أو ما الذي يحميننا من فرعون؟

فقال: إني معكما أسمع وأرى) ربطهما مباشرة مع الجملة السابقة: لا تخافا.

بقي من الجمل التي تم الربط بينها مباشرة في النص الجمل التالية:

ج ٤ مع ج ٥، و ج ٥ مع ج ٦، وهي تختلف عن الأزواج السابقة من الجمل في أن طرفي الاتصال في كل زوج مختلفان، أي أن ثمة صوتين في كل زوج، بينما في الجمل السابقة نتج الخطاب في

(١) يمكن أن تعدّ "إن" المصدرية بها الجملة: إنه طغي، أداة رابطة تفيد بيان السبب، واستعمالها كثير في القرآن، لكن صوغ قانون ينص على اطراد دلالتها على السبب في السياقات المشابهة محتاج إلى مزيد استقصاء.
(٢) انظر: البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت، ١٩٩٥، ج ٥، ص ٢٢. ويمكن أن تعدّ الجملة الثانية استئنافاً بيانياً يبين السبب الذي يعزز موقف موسى وهارون -عليهما السلام- في الطلب من فرعون أن يرسل معهما بني إسرائيل.

جمل كل زوج أو مجموعة عن الصوت ذاته. ويمكن ملاحظة الربط بين ج٤ و ج٥، و ج٥ و ج٦،

كما يلي:

(الله) ج٤: قولاً له قولاً لينا، لعله يتذكر أو يخشى.

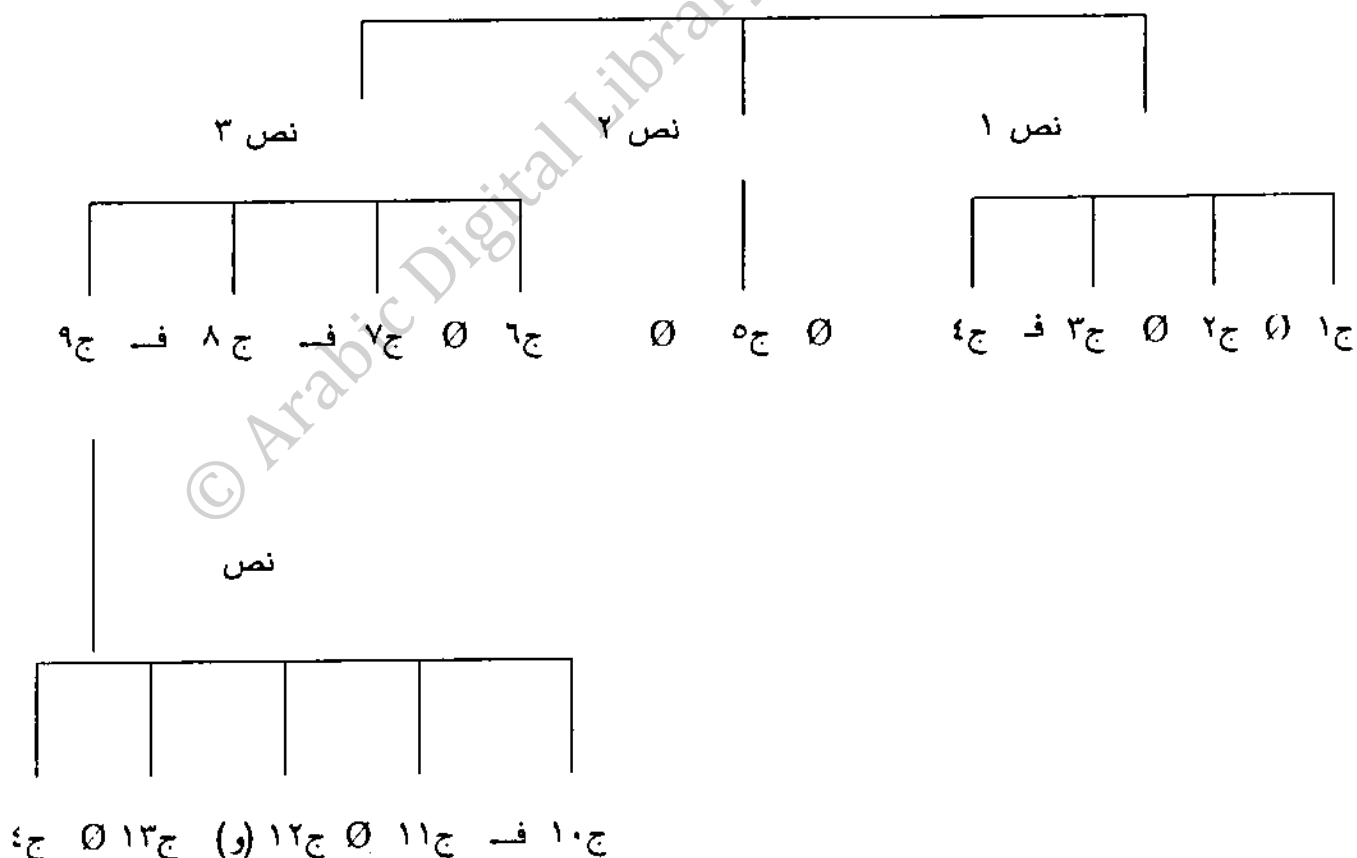
(موسى وهارون): ج٥: ربنا إنا نحاف أن يفرط علينا أو أن يطغى.

(الله) ج٦: لا تخافا.

فالربط الذي تم بين هذه الجمل ربط بياني، إذ الثانية بيان لسابقتها فضلاً عن أن الأدوار الكلامية تختلف، فتكون الجمل كما السؤال والجواب، أو القول والرد عليه، كما يتم عادةً بين المتحاورين.

ويمكن تمثيل بنية الربط التركيبية في هذا المشهد الحوارى كما يلي:-

المشهد الحوارى (النص)



أما الربط بالأداة فقد جاء بالفاء والواو:

- (اذهبوا إلى فرعون إنه طغى) فـ (قولاً له قولاً لئلا نعلمه يتذكر أو يخشى) حيث أفادت الفاء الرابطة- مع التعاقب- بيان الهدف من الذهاب، مع الإشارة إلى المهلة القصيرة بين الحدتين.

- (لا تخافوا، إنني معكما أسمع وأرى) فـ (أنتباه) أفادت الفاء مع التعاقب السببية (ما بعدها هنا نتيجة لما قبلها) والمهلة قصيرة.

- (أنتباه) فـ (قولاً) : تعاقب + سببية + مهلة قصيرة.

- (إنا رسولا ربك) فـ (أرسل معنا) : تعاقب + سببية + مهلة قصيرة.

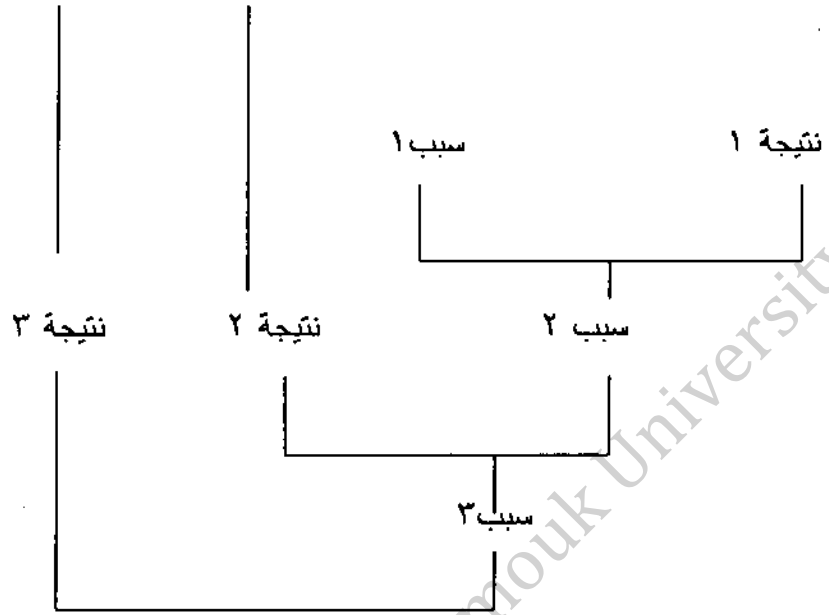
- (قد جنناك بأية من ربك) و (السلام على من اتبع الهدى) أفادت الواو الترتيب في الذكر وإضافة عنصر إخباري جديد.

ويمكن توضيح الربط المنطقي (السببي) بين بعض الأجزاء التي ترابطت بالفاء كما

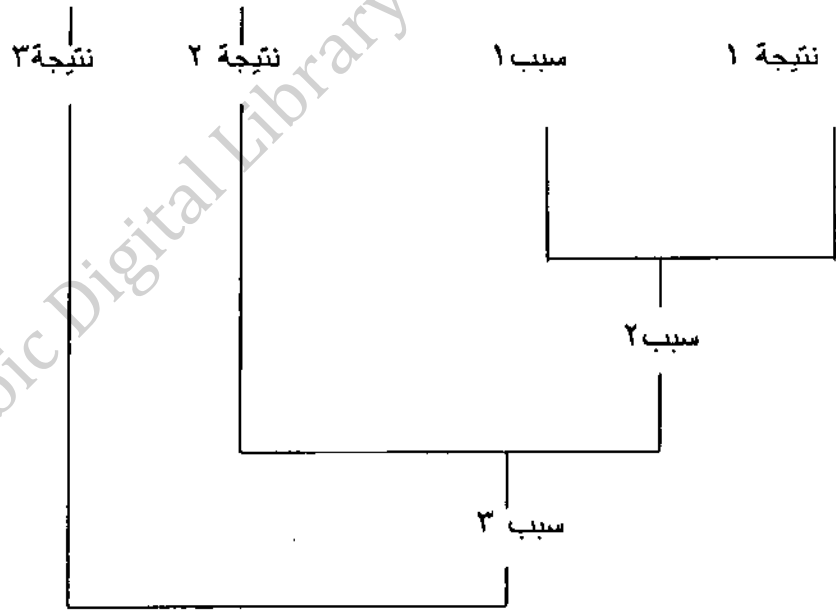
يلى^(١).

(١) أفادت في هذا الموضع من تحليل الأزهر الزناد للعلاقات المنطقية بين الجمل المكونة لنص سردي، انظر: الزناد، نسيج النص، ص ٤٨.

• (اذهبا إلى فرعون) لماذا؟ (إنه طغى) فـ (قولا...) (لعله يتذكر...).



(لا تخافا) كيف؟ (إنني معكما، أسمع وارى) فـ (أتياه) فـ (قولا).



وتجدر الإشارة هنا إلى أن الترتيب الزمني لا يطابق الترتيب في الذكر، فالنتيجة (١) في المثالين ذكرت قبل السبب (١) مع أن زمانها (المتوقع) متأخر. ولتقديم النتيجة قبل السبب دلالة مهمة إذ فيها مضمون التكليف والطلب: اذهب إلى فرعون لا تخافا. أما السبب الحادث زمنياً قبل النتيجة -ضرورة- فإن فائدة ذكره تنحصر في خدمة النتيجة وتقوية مضمونها.

أما المشهد الثاني من الحوار فمكانه وزمانه مختلفان عن مكان الأول وزمانه، ونعوض

فيما يلي لبنية النص التركيبية في هذا المشهد:

رابط: فـ.

ج ١: من ربكما يا موسى؟

ج ٢: ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

رابط: فـ.

ج ٣: ما بال القرون الأولى؟

ج ٤: علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى.

رابط: و

ج ٥: لقد أرينا آياتنا كلها فكذب وأبى.

ج ٦: قال أجننتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى؟

رابط: فـ

ج ٧: لنأتينك بسحر مثله.

رابط: فـ

ج ٨: اجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى.

ج ٩: موعدكم يوم الزينة وأن يحشُر الناس ضحى.

وأول ما نسجله هنا أن هذا الجزء من النص بدأ بعبارة فرعون: "فمن ربكما يا موسى" وترتبط هذه الجملة بعناصر لغوية محذوفة من السطح تتمثل فيما قاله موسى وهارون عليهما السلام لفرعون، وهو الجزء الذي حذفه الناص لينقلنا مباشرة من مشهد حوار الله مع موسى إلى مشهد الجدل مع فرعون، ويبدأ بجملة فرعون المقترنة بالفاء دليلا على ارتباطها بنص محذوف. وللحذف هنا دلالة مهمة في رأيي - على تقيد موسى وهارون بأمر الله حرفيا والتزامهما الدقيق مضمون الرسالة إذ تفهم أنهما قالوا لفرعون ما طلبه الله منهما بدقة:

"فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى* إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى* قال فمن ربكما يا موسى" (طه: ٤٧-٤٨).

وبذلك وظف الحذف ليبدل على أن الرسول تقيد بمضمون الرسالة بدقة، وبلغها تماما كما أراد المرسل، وكذلك فإن الحذف هنا وسيلة مهمة من وسائل تماسك النص وربط أجزائه، فضلا عن دوره في تكثيف الخطاب عن طريق الاقتصاد أو الاختزال، فالجملة ج ١: (من ربكما يا موسى؟) ارتبطت بالفاء المقترنة بالاستفهام بالجزء السابق من النص (المشهد الأول) رغم الاختلاف في الزمان وتغير الشخصيات في الحوار، وذلك رغم أن الجملة ج ١ ترتبط بعناصر لغوية محذوفة ذكرها يضعف النص، و تقديرها:

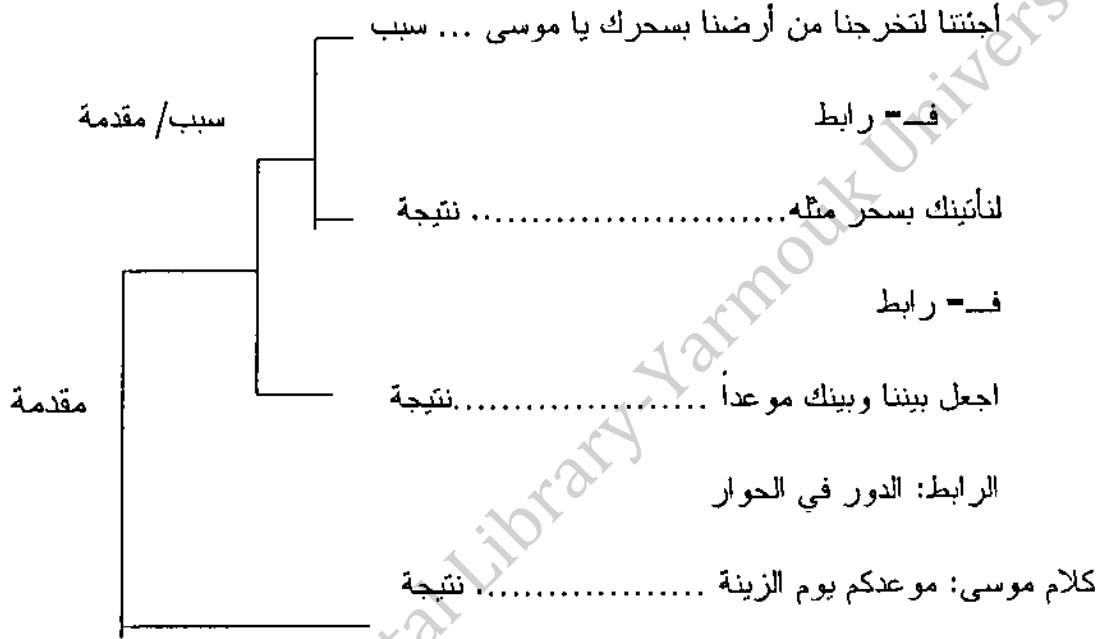
(فذهبا إلى فرعون فأتياه فقالا: إنا رسولا ربك... فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم، قد جئناك

بآية من ربك، والسلام على من اتبع الهدى، إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى)

قال فرعون: (فمن ربكما يا موسى؟) بعد أن سمع كلامهما، والفاء هنا استئنافية سببية:

أي إن كلامكما هذا الجديد عليّ تسبب أن أسالكما: من ربكما الذي أرسلكما^(١). أو إن كنتما حقاً رسولين فمن ربكما؟.

وثمة ربط آخر بالفاء في النص قائم على الخطية المنطقية السببية):



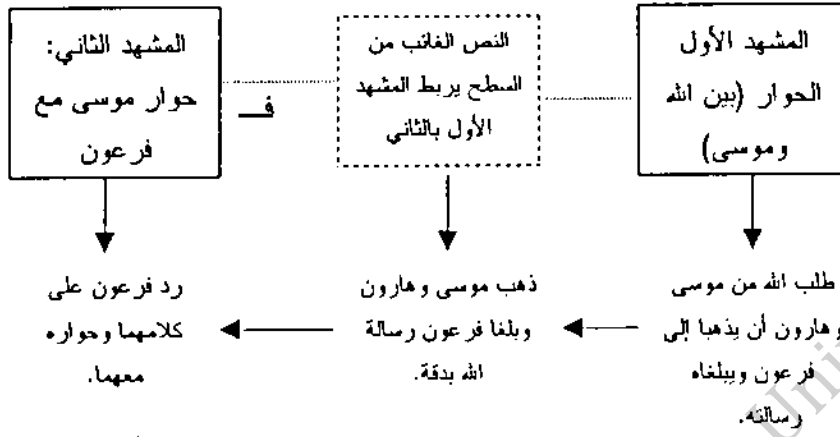
أما الربط على المستوى الخارجي للحوار: (قال: ... قال...) فالرابط فيه تغيير الأدوار

بين المرسل والمتلقي كما في كل حوار بين طرفين. ويمكن الآن تصور بنية الربط التركيبية بين

المشهدين المكونين للنص كما يلي:

(١) انظر: نظم الدرر، ج ٥، ص ٢٢.

النص



إن الربط بين الجمل في النص - ، أو بين الأجزاء المكونة للنص، أو بين النصوص الجزئية، مظهر أساسي من مظاهر الربط التركيبي في الخطاب وقد استعرضنا نماذج درسنا من خلالها سياسة الربط وانتظام الجمل في النص، أي مدى تماسك الخطاب وانسجام العناصر المكونة لعالم النص ؛ "فالروابط التركيبية وسائل لغوية تنسج الخيوط التي يتوسل بها الفكر في تنظيم عناصر عالم الخطاب عند الباحث مركبا وعند المتقبل مفككا"^(١).

٢. الربط الإحالي

يسهم الربط الإحالي - كما الربط بالعطف- في ربط أجزاء النص وتماسكه، وينسجم كل منهما مع قانون الاقتصاد اللغوي الذي به تمكننا اللغة من اختزال خطابنا اللغوي وتكثيفه، والهروب من إعادة العناصر اللغوية الدالة على المعاني المكررة إيجازا في العبارة وتخفيفا على المتلقي، وقيل ذلك تجنب تهليل النص.

(١) الزناد، نسيج النص، ص ٦٧.

وسنهتم في دراسة الربط الإحالي في تحليل خطاب الجدل القرآني، بما يسهم في بيان كيفية التماسك في الخطاب القرآني.

الإحالة الضميرية:- وبهنا من الضمانر هنا الضمير العائد الذي يحقق إحالة

نصية، ويسهم زيادة على دوره في الربط بين أجزاء النص واجتباب التكرار في أداء المعاني، وفك الغموض الذي قد يحيط بالنص.

ومن أهم مواضع الإحالة التي يسهم فهمها وربطها بما تحيل إليه في تماسك أجزاء النص، ما يمكن تسميته بالإحالة متعددة المرجع أو الفهم، وهي ظاهرة اهتم بها المفسرون بشكل مميز، ووقفوا عند اختلاف التأويل بسبب الاختلاف في تحديد المرجع الذي يعود إليه الضمير في بعض النصوص، فتعدد أوجه الإحالة يؤدي إلى احتمال تعدد دلالات التركيب. ولعل ذلك من صور الانزياح اللغوي الذي يؤدي إلى اختلاف القراءة والتلقي في كل خطاب فني، فيبقى النص منفتحاً للتأويل، وتعدد القراءات دالاً بذلك - مع صور أخرى كثيرة من الإبداع الفني وتجاوز المؤلف اللغوي - على انفراد الخطاب القرآني بسمات تجعل منه النص المتميز باختلافه.

ومن الأمثلة على تعدد المحال إليه في خطاب الجدل القرآني قول القرآن في جده مع بني إسرائيل:

"أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ كُنْتُمْ أَفْلا تُعْقِلُونَ* وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ* الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنْهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ"

(البقرة: ٤٤-٤٦).

فالزمخشري يشير إلى أن الضمير في قوله: " (وإنها) للصلاة أو الاستعانة: " واستعينوا بالصبر والصلاة " ويجوز أن يكون لجميع الأمور التي أمر بها بنو إسرائيل ونهوا عنها قبل هذه الآية^(١).

(١)الكشاف، ج ١، ص ١٣٧.

ونلاحظ أن ثمة دلالة لترتيب عناصر الخطاب التي يرجع إليها الضمير، فالصلاة أولاً لأنها أقرب مرجع مذكور مطابق^(١)، تليها في المسافة الاستعانة (مصدر استعينوا) وهما متفقتان في التطابق الإحالي، إذ كل منهما مفرد مؤنث كما الضمير. أما الوجه الثالث في تأويل الإحالة فمختلف عن الأولين، إذ هو خطاب واسع المساحة، دلالاته محصلة عناصر لغوية وأجزاء نصية متعددة^(٢). ويمكن النظر إلى الخطاب الكلي - وفقاً للتوجيه الأخير- لنلاحظ كيفية تماسك النص، ودور الضمير في ربط أجزاء النص المتباعدة:

"يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ *
وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرِينَ وَلَا تَسْرَبُوا بِأَيْدِي تَمَنَّا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ * وَلَا
تَلْبَسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُوا بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَبُوا مَعَ الرَّاكِبِينَ *
أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَكُونُونَ الْكَاذِبِينَ * وَأَسْعَيْتُمْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَأَنْهَا
لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ"
يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأْتِي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ" (البقرة: ٤٠-٤٧)

(١) يلخص تمام حسان أولويات عودة الضمير كما قررها النحاة بأنه من شأنه أن:

أ. يعود على مرجع مذكور.

ب. يعود على أقرب ما يصلح أن يكون له مرجعاً.

ج. يكون مطابقاً للمرجع لفظاً ودلالة. مع الترخيص في هذه الشروط عند أمن اللبس. انظر: حسان، تمام، البيان في روائع القرآن، عالم الكتب، ط١، القاهرة، ١٩٩٣، ص ٢٣٠-٢٣٧.

(٢) ثمة إشارة في جامع البيان إلى أن الضمير في "وإنها" معناه إجابة محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يجز الطبري (٣١٠هـ) ذلك وقال: لم يجز لذلك ذكر فتجعل الهاء والألف كناية عنه، وغير جائز ترك الظاهر المفهوم من الكلام إلى باطن لا دلالة على صحته. انظر، الطبري، جامع البيان، تهذيب صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، ط١، دمشق، ١٩٩٧، ج ١ ص ٢١١، وانظر: الجطلابي، قضايا اللغة في كتب التفسير، ص ٣٢٧.

فهذه السلسلة من الآيات تمثل جزءاً من النص مترابطاً مع الأجزاء النصية الأخرى
المكونة للنص الكلي، فهو نص متماسك في داخله مترابط مع النصوص الصغرى الأخرى التي
تشكل النص الكلي الموحد (السورة)، أما حدود هذا النص: (البداية والنهاية)، فقد اجتهدنا لرسمها
بالنظر إلى أمرين من داخل النص:

١. اتحاد الدلالة الكلية في النص وتركزها حول محور رئيسي، وهو دعوة بني

إسرائيل للإيمان برسالة محمد- عليه الصلاة والسلام- التي يعرفون صدقها.

٢. الحدود التي يؤسسها النص الكلي الذي يتوزع في وحدات متصلة بينها روابط

تمثل شواخص أو علامات للوقوف والحركة، وذلك قول القرآن: "يا بني إسرائيل اذكروا

نعمتي التي أنعمت عليكم" الذي يتكرر بين وحدات النص؛ فمثلاً النص الذي ندرسه يبدأ بهذه

الجملة وينتهي مع بدايتها في آية أخرى:

"يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ" (البقرة: ٤٧).

وبذلك تكون جملة "يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم" علامة على بداية

نص وانتهاه وارتباطه بنص جديد تال.

ونرجع إلى مسألة عود الضمير في (وإنها لكبيرة)، فنقول إن النظر إلى النص كلاً

موحداً متماسكاً يقوي أن الضمير هنا يرجع إلى القضية المطلوبة من بني إسرائيل وهي قضية -

بالنسبة لهم- خطيرة جداً إن سلموا بها، ولذلك يصفها القرآن مؤكداً: وإنها لكبيرة. ونستطيع من

داخل النص أن ندرك هذه القضية وأبعادها وخطورتها من وجهة نظر بني إسرائيل، ونحاول من

خلال التعامل مع النص تجميع أجزائها حول البؤرة الأساسية في النص.

• النص مبني على مجموعة أوامر ونواهٍ من الله (المخاطب) إلى بني إسرائيل

(المخاطب):

١. اذكروا نعمتي عليكم.

٢. أوفوا بعهدي.

٣. آمنوا بما أنزلت على محمد.

٤. لا تكونوا أول كافرٍ بالقرآن المصدق للتوراة.

٥. لا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً.

٦. اتقوني وحدي.

٧. لا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق.

٨. أقيموا الصلاة.

٩. آتوا الزكاة.

١٠. لا تأمروا الناس بالبر وتنسوا أنفسكم.

١١. استعينوا بالصبر والصلاة.

ويبدو أن المحور الأساسي في النص هو ضرورة الإيمان برسالة محمد -صلى الله عليه

وسلم- وأن لا يكفروا به، وقد سبق ذلك بتذكير بني إسرائيل بنعم الله عليهم، وبعهده الذي يجب

الوفاء به، وتلاه دعوتهم إلى الصديق مع الحق الذي يعرفونه جيداً، وأن يتقبلوا أمر الله مستعينين

بالصبر والصلاة.

وبعد ذلك يأتي التعليق من الله: وإنها لكبيرة، أي إن مسألة استبدال أمة جديدة ببني

إسرائيل بالتأكيد كبيرة عليهم، ولا يتحملها إلا الخاشعون المؤمنون بأنهم ملائقو ربهم. وحتى لا

يكون الأمر مجرد حدىس نناقش النص ونسائله ونربطه بما قبله وبعده.

* القول بأن الضمير عائد على الصلاة وهو القول الأكثر شيوعاً عند المفسرين، بطرح

تساولين:

١. ما وجه الكبر في " الصلاة" ليسند إليها أنها كبيرة بمعنى صعبة وشديدة تحتاج

إلى قوة تحمل بدليل: "إلا على الخاشعين"، ويزاد على ذلك أن يؤكد الكلام بأن واللام؟.

٢. لم اقتصر عود الضمير على الصلاة دون الصبر وهما معاً مطلوب الاستعانة

بهما؟ ثم اليس الصبر محتاجاً أكثر من الصلاة إلى قدرات خاصة كالتي للخاشعين؟ ولا أرى

سبباً في جعل الضمير يعود على الصلاة دون الصبر إلا لتحقيق التطابق بين عنصري

الإحالة ولا يتفق ذلك مع إعادة الضمير إلى (الصبر).

وثمة أمر في اجتماع الصبر والصلاة أداتين من أدوات الاستعانة يقوي أن الصلاة هنا

تعني الدعاء ودوام الاتصال مع الله، خاصة أن الصلاة بمعناها المألوف وردت في النص: "

وأقيم الصلاة" وإذا صح هذا الافتراض ازداد احتمال عودة الضمير على غير لفظ (الصلاة)

لأن الصلاة أنفذ لا تكون كبيرة بحيث لا يقدر عليها إلا الخاشعون، ولا يكون فوق ذلك دلالة

للتأكيد.

والظاهر أن الأساس النحوي الذي تعامل النحاة والمفسرون مع الضمير العائد بناء عليه

ساهم في تقييد علاقة الضمير العائد بالعناصر اللغوية التي يرجع إليها، وفق شروط وضوابط

شكلية تميل إلى إعادة الضمير في الأصل إلى أقرب مرجع مذكور مطابق كما في المثال الذي

بين أيدينا.

أما الأمر الأكثر أهمية في عملية الإحالة هنا، فهو دور الضمير في التماسك النصي

وربط أجزاء النص. ونظرة أخرى إلى النص السابق -مع استحضار النصوص المتصلة قبله-

تزدونا بدلائل تقوي ما ذهبنا إليه من أن الضمير في (إنها) لا يعود على الصلاة أو الاستعانة

وإنما على مسألة الاستجابة لرسالة النبي محمد -صلى الله عليه وسلم-، وليس ثمة مسألة أكبر منها على بني إسرائيل الذين يريدون أن تبقى الخلافة في الأرض فيهم.

ويعضد القول بأن الضمير دال على استجابة بني إسرائيل للرسالة الجديدة الموصوفة

بأنها كبيرة، تشابه النص مع نص قرآني آخر في أمر تغيير القبلة:

"وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِكُتُوبِكُمْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا

الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتُمْ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ

هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ" (البقرة، ١٤٣)

حيث الضمير في "كانت" يعود على قضية تغيير القبلة، وهو أمر كبير امتحن به الله

المؤمنين الصادقين.

* بتتبع الخيوط التي تربط النص الذي بين أيدينا بقطع النص الأخرى، نجد أن الآيات

السابقة له تعرض فكرتين مهمتين جداً متصلتين بقوة مع بؤرة النص التي حددناها. الفكرة

الأولى تتمثل في موضوع الخلافة، إذ أراد الله أن يجعل في الأرض خليفة فاعترض عليه.

-والثانية وهي متصلة بالأولى- طلب الله من الملائكة أن يسجدوا لآدم ففعلوا وأبى إبليس وكفر

واستكبر.

فقد جاء ترتيب ذكر هاتين القصتين في الخطاب القرآني سابقاً على دعوة بني إسرائيل

للاستجابة لرسالة محمد -عليه الصلاة والسلام- معادلاً موضوعياً لما هم فيه، فثمة خليفة جديد

ودعوة للإيمان به قوبلت من إبليس بالرفض والكفر (وكان من الكافرين)، ورأى أن سجوده لآدم

كبيرة (واستكبر)، فهو يرى نفسه خيراً من آدم وأفضل منه.

كذلك فإن بني إسرائيل لم يتقبلوا ذهاب الخلافة منهم إلى غيرهم، وهم يرون أنهم أفضل البشر، فكفروا بما أنزل على محمد- صلى الله عليه وسلم- وهم يعلمون أنه الحق، ذلك لأنهم استكبروا الأمر، فكان فعلهم مساويا لفعل إبليس الذي كفر واستكبر أن يسجد لبشر.

واذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون* وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين* قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم* قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبءون وما كنتم تكتمون* واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين".

(البقرة: ٣٠-٣٤)

يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون* وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشعروا بآياتي ثمنا قليلا وإياي فاتقون* ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون* وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين* أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون* واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها

(البقرة ٤٠-٤٥)

لكبيرة إلا على الخاشعين"

وبهذا التوجيه لعودة الضمير، يبرز دور الضمير في تماسك الخطاب وربط أجزائه، فالضمير هنا أحال إلى خطاب سابق، كما ساهم بشكل غير مباشر في ربط الأجزاء النصية المكونة للخطاب:

قصة الخلافة- كفر إبليس ورفضه السجود لأدم ← استكبر .

استخلاف محمد صلى الله عليه وسلم- كفر بني إسرائيل بالقرآن وبما أنزل إلى محمد.

← الاستجابة كبيرة (استكبروا) .

وقد أسهم في تماسك النص مع الإحالة اتساق معجمي:

إبليس استكبر ← بنو إسرائيل استكبروا.

إبليس كفر ← هم كفروا.

يضاف إلى ذلك دور مبدأ التشابه في انسجام النص الكلي: قصة إبليس مع آدم تشبه قصة بني إسرائيل مع محمد صلى الله عليه وسلم.

ومما يتصل بالاختلاف في مرجعية الضمير في المثال الذي بين أيدينا فهم متعلق بتحديد شخصية المخاطبين في قول القرآن: "واستعينوا بالصبر والصلاة" وهو فهم متصل بفهم دلالة الضمير في "وإنها". وأصحاب هذا الفهم يقولون إن المخاطبين هم المؤمنون بالرسول لا بني إسرائيل، وذلك بناء على أن الضمير في "وإنها" يعود على الصلاة، وأن بني إسرائيل منكرون للصلاة أصلاً فلا يطلب منهم الاستعانة بها، وقد أشار الإمام الرازي (٦٠٦هـ) إلى هذا الرأي ورجح أن المخاطبين هم بنو إسرائيل قال: "... من ينكر الصلاة أصلاً والصبر على دين محمد صلى الله عليه وسلم- لا يكاد يقال له استعن بالصبر والصلاة، فلا جرم وجب صرفه إلى من صدق بمحمد- صلى الله عليه وسلم-، ولا يمتنع أن يكون الخطاب أولاً من بني إسرائيل ثم يقع بعد ذلك خطاباً للمؤمنين بمحمد- صلى الله عليه وسلم- والأقرب أن المخاطبين هم بنو إسرائيل

لأن صرف الخطاب إلى غيرهم يوجب تفكيك النظم^(١). ولا أرى أن القول بوجوب توجيه الخطاب إلى المسلمين مقنع وذلك تأسيساً على ما قدمناه من كلام على سياق النص وإعادة ضمير (وإنها) على ضرورة استجابة بني إسرائيل لرسالة -محمد صلى الله عليه وسلم- وأن ذلك محتاج منهم إلى الصبر والدعاء، هذا فضلاً عن الأمر المهم جداً والذي أشار إليه الرازي، وهو أن تغيير صيغة الخطاب يؤدي إلى تفكيك النظم، خاصة أن الآية متلوة بالفاصلة النصية:

"يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ..."

(البقرة: ٤٧).

كما أننا لا نسلم بأنه لا يطلب من بني إسرائيل الاستعانة بالصبر والصلاة لمجرد كونهم منكربين لهما، وإلا فلمأمروا بجميع الأوامر السابقة: آمنوا بما أنزل، ولا تشتروا آياتي ثمناً قليلاً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة... إلخ.

أما تفكيك النظم الذي أشار إليه الرازي، فهو إشارة واضحة لادراك المتقدمين مسألة تماسك الخطاب القرآني في تعاملهم معه وتحليلهم نصوصه.

ونعرض فيما يأتي مجموعة من الأمثلة المختارة من خطاب الجدل القرآني التي تتعدد فيها أوجه إعادة الضمير الرابط، مما يتيح تعدد أوجه القراءة دليلاً على انفتاح النص وتميزه.

* "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ

الدِّمَاءَ وَيَحْنُ سُبْحَانَكَ وَقَدَّسَ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ* وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ

(١) الإمام الفخر الرازي، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، ط١، بيروت، ١٩٩٥م. المجلد الأول، ج٣،

ص٤٨٩. وانظر: الخطابي، لسانيات النص ص١٧٦.

على الملائكة فقال أنبوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين* قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم* قال يا آدم أنبهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تدرون وما كنتم تكتمون" (البقرة: ٣٠-٣٣)

ففي هذا النص يؤدي تحديد مرجعية الضمير في قوله "عرضهم"، إلى تعدد قراءات النص وتأويله، والأقرب - بناء على النص نفسه - أن الضمير هنا هو نفسه الضمير في (قالوا)، ويحيل إلى جماعة حاضرة في سياق الخطاب الجدلي الذي يعلن فيه الله سبحانه أمر الخلافة وجعله في بني آدم.

* "إن منهم لفرقة بلون أسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو

من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون" (آل عمران: ٧٨).

فالحديث عن بني إسرائيل، والضمير المقصود هو الضمير في "لتحسبوه/ هو" حيث اختلف في مرجعه، فقيل إن المقصود به أولئك الذين يحرفون الكتاب، وقيل إن الضمير لا يعود على المحرف بل على المادة المحرفة، ليحسب المؤمنون ذلك التحريف من الكتاب^(١). وهو الأقرب دلالة في رأيي بدليل* ويقولون هو من عند الله، وما هو من عند الله، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون* فالكذب الذي يقولونه على الله هو ما يلوون به أسنتهم من الكتاب، وهو المادة التي حرفوها منه.

(١) انظر: الحطلاوي، قضايا اللغة في كتب التفسير، ص ٣٢٥.

• "الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدُ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ

رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ" (آل عمران: ١٨٣)

يعود الضمير على جزء من قولهم (قربان تأكله النار) وليس على القول كله. ومهم هنا أن نشير إلى دور الضمير في تماسك النص، وأثر اختياره وتكرير الفعل: قالوا/ قتلتم، حيث ساهم الضمير في استئثار قانون الاقتصاد اللغوي واختزال الخطاب، ودل استعمال اسم الموصول الخاص وتكرير فعل القول، على أن ما جاء به الرسل هو ما طلبه هؤلاء تماماً، ومع ذلك فلم يؤمنوا، وكان الخطاب القرآني يقول لهم: أنتم كاذبون، ولستم صادقين لأنكم قتلتم الرسل الذين جاؤوكم بكل ما طلبتموه بألسنتكم، وها أنتم تكرررون الطلب نفسه الآن من الرسول شرطاً لتؤمنوا به، والله يعلم أنكم تكذبون ولن تؤمنوا.

• "قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَن آمَنَ مِنْهُمْ أَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ

مِن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ* قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنَّم بِهِ كَافِرُونَ* فَعَقَرُوا النَّاقَةَ

وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ إِنَّا بِمَا نَعُدُّكَ إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ... (الأعراف: ٧٥-٧٦)

الضمير في (منهم) يرجع إلى أحد مرجعين:

١. منهم: أي من قومه، ودلالته: المستضعفون هم أنفسهم المؤمنون

والاستضعاف مقصور عليهم.

٢. منهم: أي من الذين استضعفوا ودلالته: ليس الاستضعاف مقصوراً على

المؤمنين، كما أن المستضعفين كانوا مؤمنين وكافرين^(١).

• "وَلَوْلَا أَنْ نُصِيبَهُمْ مُصِيبَةً بِمَا قَدَّمْتُ أَيْدِيَهُمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُتِّعَ آيَاتِكَ

وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوْلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ

مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ * قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى

مِنْهُمَا آيَةً إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (القصص: ٤٧-٤٩).

والكلام عن الذين لم يؤمنوا برسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - وبخاصة أهل مكة،

والاختلاف في إحالة الضمانر وقع في قوله:

"أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل، قالوا سحران تظاهرا وقالوا: - إنا بكل كافرون"

ويمكن تلخيص الاختلافات في تحديد مرجع الضمير في كل من "يكفروا" وقالوا" سحران

تظاهرا" في ثلاثة:

١. الضمير في "يكفروا وقالوا" يعود على الكافرين في زمن موسى - عليه السلام،

والضمير في "سحران تظاهرا" يعود على موسى وهارون - عليهما السلام - أو السحر الذي

أتياه (من وجهة نظر القائلين بذلك)^(٢).

(١) انظر: الكشاف، ج ٢، ص ١١٨.

(٢) الكشاف، ج ٣، ص: ٤٠٥-٤٠٦، وانظر: نظم الدرر، ج ٥، ص ٤٩٦-٤٩٧.

٢. يرجع الضمير الأول على العرب ومن بلغتهم الدعوة من بني إسرائيل، أو من شاء الله منهم أو أبناء جنسهم في زمن موسى عليه السلام، والضمير الثاني يدل على موسى وهارون^(١).

٣. الضمير الأول يرجع إلى أهل مكة الذين كفروا بالرسالة المحمدية، والضمير الثاني يعود على محمد وموسى عليهما السلام^(٢).

والأقرب في رأيي هو القول الأخير لما تحقَّقه الإحالة فيه من انسجام في الخطاب وربط أجزائه بعضها ببعض، إذ يقتضي نظم الخطاب اتساق استعمال الضمائر التي تدل على أهل مكة - وهم محور اهتمام النص هنا- بما يخدم المحصلة الدلالية، فالضمائر في كل مما يلي ترجع إلى عنصر واحد: أهل مكة (تصبيهم- أديهم- فيقولوا- جاءهم- قالوا- يكفروا- قالوا- إنا كافرون) ولا ينسجم الخطاب في حال انعطاف الضمير ليدل على الذين كفروا بموسى -عليه السلام- في زمانه، لأن الجدل كله مقصود به الكافرون بمحمد صلى الله عليه وسلم الذين قالوا: لولا أوتي محمد مثل ما أوتي موسى، حيث إن (مثل) قد تحيل إلى معجزات موسى عليه السلام أو أهمها: العصا واليد، فيستتكر الله منهم هذا الطلب وهم كافرون بموسى، وهذا الفهم يؤدي بالضرورة إلى أن الضمير في (سحران تظاهرا) يدل على محمد وأخيه موسى عليهما السلام، بدليل قوله تعالى مخاطباً نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ومرشداً له في جداله كفار قريش "قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما".

(١) نظم الدرر، ج ٥، ص ٤٩٧.

(٢) الكشاف، ج ٣، ص ٤٠٦، ونظم الدرر، ج ٥، ص ٤٩٧.

* "فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسَاءَ لَوْنٌ * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَتُنكَ لَمِنُ

الْمُصَدِّقِينَ * أَنْدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا إِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلَعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ

الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللَّهِ إِنِّي كَذتُ لِرَبِّي". (الصافات: ٥٠-٥٥)

حيث يمكن أن يعني الضمير في (قال) في قوله: "قال: هل أنتم مطلعون" القائل الأول:
:" قال قائل إني كان لي قرين"، أو قد يعود على الله عز وجل أو بعض الملائكة^(١). والأقرب في رأيي أن يكون الضمير للقائل الأول السائل عن قرينه في الدنيا الذي كان ينكر البعث والحساب، وذلك ليتم الانسجام بين هذا الجزء من الآية: "قال: هل أنتم مطلعون" والجزء الذي يليه: "فاطلع فرآه في سواء الجحيم، قال: تالله...". أي أن ثمة من طلب، وثمة من استجاب: (قال اطلعوا، فاطلع". فكان المعنى: عندما سأل أحد أهل الجنة أصحابه عن قرينه الذي كان ينكر الإحياء بعد الموت، ويستكر عليه أن يؤمن بذلك، قيل لهم: هل أنتم مطلعون؟ فاطلع السائل، فرأى قرينه الكافر في سواء الجحيم، فذكره بكلامه في الدنيا وإنكاره الجزاء والآخرة.

وبذلك يكون الضمير في (قال: هل أنتم مطلعون) يرجع إلى مرجع غير مذكور سابقاً ويدل على طرف حاضر معهم، يشاهد ويسمع كلامهم، وله الأمر والتصرف، ولا يكون ذلك يومئذ إلا لله أو لملك من ملائكته، وهذا التوجيه في رأيي أقوى لانسجام الخطاب.

وهذا النوع من الإحالة يحيل إلى عنصر يدرك من السياق الكلي للنص أو المقام ولذلك

فالإحالة هنا تسمى مقامية.

(١) ذكر الزمخشري هذه الآراء ، ورجح أولها، الكشاف، ج٤، ص٤٢-٤٣.

ومن أمثلة الجدل القرآني على الإحالة النصية التي لا يكون المرجع فيها عنصراً ظاهراً

في النص، وإنما يدرك من السياق قول القرآن:

" فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ " . (يوسف: ٢٨).

أي إن ما حصل من تدبير من كيدكن. وقد أورد تمام حسان هذا المثال في كلامه على الترخّص في شرط عودة الضمير على مرجع مذكور عند أمن اللبس، لأن المقام دال عليه^(١). وهذا الفهم للإحالة مهم ليكون الخطاب منسجماً للمتلقى.

* ومثله: " وَقَالُوا أَنَذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * قُلْ كُنُوتًا حِجَارَةً أَوْ

حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ

رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَسَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ... " (الإسراء: ٤٩-٥١)

فالضمير (هو) يرجع إلى البعث الذي ينكرونه ولا يؤمنون به، وهو غير مذكور في

النص وإنما دل عليه سياق الكلام.

وقد يكون الترخّص في المطابقة بين الضمير والمرجع، ومن ذلك الترخّص في المطابقة

العديدة نحو قول القرآن:

" يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ " (التوبة: ٦٢)

والخطاب للمسلمين، قال الزمخشري: " وكان المنافقون يتكلمون بالمطاعن أو يتخلفون

عن الجهاد ثم يأتونهم فيعتذرون إليهم ويؤكدون معاذيرهم بالحلف ليعذروهم ويرضوا عنهم، فقيل

(١) حسان، تمام، البيان في روائع القرآن، ص ٢٣٢.

لهم: إن كنتم مؤمنين كما تزعمون فأحق من أرضيتم الله ورسوله بالطاعة والوفاق. وإنما وحد الضمير لأنه لا تفاوت بين رضى الله ورضى رسوله^(١). فاستعمال الضمير على هذه الصورة وظف توظيفا دلاليا يسهم في إلغاء المسافة الفاصلة بين رضى الله ورضى الرسول في تصور المتلقي، فهما رضى واحد موحد، وإرضاؤهما واحد أصلا لا اثنان تجمعا، فاستعمل لهما ضمير مفرد ليكون التوجه واحدا:

إرضاء الله = إرضاء الرسول.

إرضاء الرسول = إرضاء الله.

الإشارة:

تسهم أسماء الإشارة كما الضمان في التماسك النصي وربط أجزاء الخطاب بعضها ببعض، والإحالة النصية التي تقوم بها أسماء الإشارة قد تكون إلى نص سابق أو نص لاحق، أي أن الربط الذي تقوم به قبلي وبعدي، وهو ما يسمى بالإحالة القبلية والإحالة اللاحقة، وكل منهما تسهم في اتساق النص.

ومن الأمثلة على توظيف الإشارة في خطاب الجدل القرآني واستثمارها في تماسكه قول

القرآن:

* "وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم

صادقين".

(البقرة: ١١١).

(١) الكشاف، ج ٢، ص ٢٧٦. ويذكر الزمخشري توجيهها آخر للآية: والله أحق أن يرضوه، ورسوله كذلك.

والكلام عن أهل الكتاب والمشركون وقد ورد في سياق جدل القرآن مع بني إسرائيل، والمسألة التي تهمنا في هذا النص ما يظهر من عدم التطابق بين العنصر الإشاري والمشار إليه، حيث استعملت (تلك أمانيتهم) لتشير إلى قولهم: "لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى" وهو يتضمن أمنية واحدة وإن كانت (تلك) الدالة هنا على جمع مؤنث قد أحالت إلى نص وليس إلى عنصر لغوي مذكور، فالمحال إليه، وهو هنا المشار إليه نفسه مفهوم خطاب:

خطاب/المشار إليه: (لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى)

العنصر الإشاري: (تلك أمانيتهم).

ويبرز هنا دور اسم الإشارة في ربط أجزاء النص. ومع ذلك فإن ثمة قراءة أخرى تبدو أكثر انساقا مع بنية الخطاب أوله وآخره، وتبين مدى إسهام اسم الإشارة في تماسك النص، فضلا عن تحقيق التطابق بين طرفي الإحالة (المشار والمشار إليه) ونفي الإخلال، وذلك بضم الأجزاء السابقة لهذا الجزء من النص إليه خطابا واحدا:

"ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم

والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم* ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها

أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير* ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض وما لكم من

دون الله من ولي ولا نصير* أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر

بالإيمان فقد ضل سواء السبيل* ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من

عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير

* وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله إن الله بما تعملون بصير*
وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى .

(تلك) أمانيتهم قل ها تواتوا برهانكم إن كنتم صادقين* بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله

أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون" (البقرة ١٠٥-١١٢)

فتكون (تلك) قد أشارت إلى مجموع أمانى أهل الكتاب^(١). وقد أسهم التباعد بين الآيات

التي تضمنت تلك الأمانى - ومجموعها ثلاث - والبحث عن أقرب مرجع للضمير في الآية نفسها،

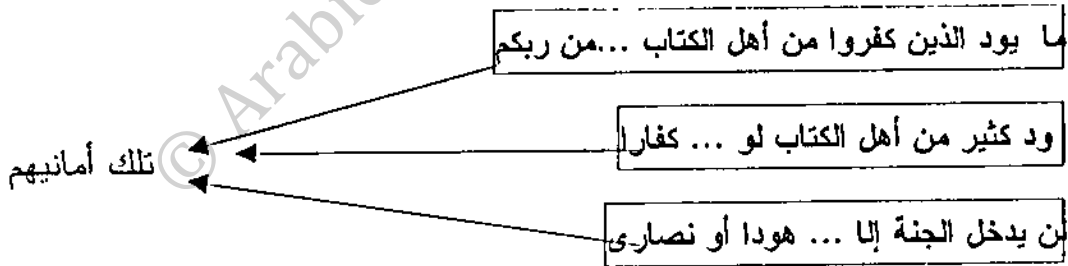
إلى جعل (تلك) التي جاءت بصيغة الجمع المؤنث: (تلك أمانيتهم) تعود على ما يدل على أمانيتة

واحدة، فكان القول بعدم التطابق بين طرفي الإحالة: أمانى ؟ أمانية واحدة.

أما توسيع مساحة الخطاب بوصفه كلا متماسكا واستحضار خطاب سابق، فقد حل مشكلة

الإخلال بالمطابقة، وساهم في إبراز وظيفة الربط الإحالي، باستعمال اسم الإشارة في تماسك

الخطاب:



(١)أورد الزمخشري هذا التخريج وقال: "فإن قلت: لم قيل (تلك أمانيتهم) وقولهم (لن يدخل الجنة) أمانية واحدة؟

قلت: أشير هنا إلى الأمانى المذكورة وهو أمانيتهم ألا ينزل على المؤمنين خير من ربهم، وأمانيتهم أن يردوهم كفارا، وأمانيتهم إن لا يدخل الجنة غيرهم، أي تلك الأمانى الباطلة أمانيتهم" الكشاف، ج ١، ص

١٧٦-١٧٧.

وتبقى هذه قراءة واحدة من قراءات يسمح بها النص ذاته بوصفه نصا منفتحاً لا يقف تأويله عند حد، ولا يمكن بحال القطع بدلالته، فمن القراءات الأخرى التي يتيحها النص - اعتماداً على البحث عن أقرب مرجع صحيح - أن يدل اسم الإشارة على محصلة قول اليهود وقول النصارى، وذلك تأسيساً على أن القول: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى مجموع قولين مستقلين:

قالوا ← (قال اليهود و قال النصارى).

(وقالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى = قال اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً + قال النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى.

ولما استعمل الضمير الدال على الجمع (قالوا) دل ذلك على أن كل واحد من أفراد الطرفين تمنى أمنية فكان المجموع أماني.

ومن صور الربط الإحالي بأسماء الإشارة في الخطاب القرآني استثمار اسم الإشارة المفرد بوصفه أداة من أدوات الربط في النص لتحقيق التماسك النصي بالإحالة إلى مساحة واسعة من الخطاب، أو متتالية من الجمل. ومن الأمثلة على هذا النوع من الإحالة الموسعة:^(١) استعمال الخطاب القرآني اسم الإشارة المفرد ليشير إلى خطاب سابق واسع يتضمن قصة أو مجموعة من قصص الأنبياء - عليهم السلام -، ومن أفضل الأمثلة على هذا النوع من الإحالة قول القرآن في سورة "يوسف" بعد آخر مشهد من مشاهد قصة يوسف عليه السلام التي استغرقت جميع الآيات من بداية السورة إلى نهاية هذا المشهد.

(١) مصطلح الإحالة الموسعة استعمله محمد الخطابي بالمفهوم نفسه، انظر الخطابي، لسانيات النص، ص ١٩.

" ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون "

(يوسف: ١٠٢).

فقد أحال اسم الإشارة (ذلك) على الخطاب السابق كله المتضمن قصة يوسف، وأفاد التنبيه إلى انتهاء قصة يوسف وربط الخطاب السابق كله بما بعده.

أما في خطاب الجدل القرآني فيتجلى استثمار القرآن اسم الإشارة دالا على مجموعة جمل في التعليق على مواقف جدل الأنبياء مع أقوامهم ومن ذلك ما جاء في سورة "هود" وسورة "الشعراء" من استعمالات طريفة لهذا النوع من الإحالة.

ففي سورة هود ترد قصة نوح عليه السلام وجداله الطويل مع قومه:

" قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين " (هود: ٣٢)

وعندما تنتهي القصة يخاطب الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ليصبر على تكذيب

قومه رسالته وكفرهم بدعوته، فيقول عز وجل:

" تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة

للمتقين " (هود: ٤٩).

فيعلم بانتهاء قصة نوح وجداله مع قومه، ويربط القصة كلها بموضوع السورة الأهم،

وهو محمد صلى الله عليه وسلم وما يلاقيه من قومه، ويكشف عن هدف توظيف القصة في سياق

الطلب من محمد صلى الله عليه وسلم أن يصبر على ما يقوله أعداؤه، وأن لا يضيق صدره

" فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما

(هود: ١٢)

أنت نذير والله على كل شيء وكيل... "

وفي ذلك غاية الانسجام في الخطاب.

وتستمر السورة في ذكر قصص الأنبياء وجدالهم مع أقوامهم وعقاب الله للكافرين، فقد وردت قصص كل من هود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى-عليهم السلام- وكيف كذبهم أقوامهم الذين أرسلوا إليهم وكيف كان عذاب الله لهم، وبعد آخر مشهد من مشاهد القصص يعقب الخطاب القرآني معلقاً:

" ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد* وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادهم غير تنبيب" (هود: ١٠٠-١٠١)

فيكون اسم الإشارة المفرد (ذلك) قد أحال إلى مجموع ما تضمنته آيات قصص الأنبياء مع أقوامهم، وأفاد الإشعار بانتهاء القصص وربط الخطاب السابق كله بما يليه، وهو محور السورة الأساسي، ويمثل في تعزيز موقف محمد صلى الله عليه وسلم، وتقوية روحه المعنوية أمام ما يلاقيه من قومه، و ذلك بأن الله معه وأن أعداءه لن يعجزوه. ويركز الخطاب القرآني على المشاهد الأخيرة من كل قصة، وهي تتضمن العذاب الذي أنزل بأقوام الأنبياء، ويختار هذه المشاهد ليؤكد لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم أن مصير الظالمين جميعاً واحد، وإن الله أخذهم بظلمهم:

" وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ..."

(هود: ١٠٢).

ولا يكاد استعمال اسم الإشارة في سورة الشعراء بهذه الصورة يختلف عنه في سورة هود، غير أن الطريف فيها تكرار جزء من السورة في ثمانية مواضع، وهو قوله تعالى: " إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين* وإن ربك لهو العزيز الرحيم" (الشعراء: ٨-٩).

فكان هذا الجزء في كل مرة يمثل علاقة تربط بين جزأين من النص منفصلين، الجامع بينهما واحد متضمن في هاتين الآيتين اللتين تترددان بين كل محطة والتي تليها، فالمحور الأساس الذي تدور حوله السورة يتمثل في أن أكثر الناس لا يؤمنون مهما جاءهم من رسل، ومهما رأوا من آيات، ولذلك يخاطب الله نبيه محمداً - صلى الله عليه وسلم - بأن لا يهلك نفسه بسبب عدم إيمان قومه "لَعَلَّكَ بَآخِجٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ". (الشعراء : ٣)

ولتحقيق ذلك ولتهدأ نفس الرسول يخبره الله بقصص إخوانه من الأنبياء: موسى وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب، وكيف أنهم جاؤوا أقوامهم بالآيات فلم يؤمن أكثرهم. وبين كل قصتين "إن في ذلك لآية، وما كان أكثرهم مؤمنين".

فدل اسم الإشارة في كل مرة على قصة نبي من الأنبياء قبل محمد عليه الصلاة والسلام، وفي كل مرة ما كان أكثر قومه مؤمنين.

وكان لتردد ذلك الجزء من السورة وظيفة مهمة في تماسك النص وربط فقراته، وكان له وظيفة دلالية مهمة تتمثل في تزويد الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم- بعد كل فقرة أو قصة بشحنة معنوية متكررة تؤكد له أن ما يحصل له حصل لغيره من الأنبياء قبله، وأن الناس مهما يروا من آيات لا يؤمن أكثرهم، فلا يهلك نفسه.

الإحالة المقامية

تتدرج جميع الأمثلة التي أوردناها، ضمن الإحالة النصية التي تسهم بشكل مباشر في تماسك النص، أما الإحالة المقامية، فإنها تحيل إلى خارج النص، وتربط اللغة بسياق المقام^(١)، فالعنصر المحال إليه لا يكون حاضراً بالفعل (في النص)، وإنما بالقوة؛ فلا نستقيم دلالة النص دون فهم دلالة عنصر الإحالة، ولذلك لا يكون النص منسجماً إن لم يكن المرجع الذي يحيل إليه العنصر واضحاً أو مفهوماً، ومن الأمثلة على استعمال الإحالة المقامية في خطاب الجدل

القرآني: "وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ: أِهْؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ؟" (سبا، ٤٠).

وهو خطاب موجه إلى الملائكة لتقريع الكفار الذين يسمعون.

ومثله قول الله مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم:

"فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ بِمَا نَكْفُرُهُمْ غَيْرَ

(هود ١٠٩).

مَنْقُوصٌ"

إشارة إلى الكفار عبدة الأوثان.

ومثله: "وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ

(العنكبوت ٤٧).

بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ"

(١) يرجح "هالدي" الفرق بين الإحالة المقامية والإحالة النصية إلى أن الإحالة المقامية تسهم في خلق النص، وذلك لأنها تربط اللغة بسياق المقام، إلا أنها لا تسهم باتساقه بشكل مباشر كما الإحالة النصية. انظر الخطابي، لسانيات النص، ص ١٧.

وكذلك: "إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ * فَأْتُوا بِآيَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *

أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ بُعِّ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلِكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ... " (الدخان ٣٤-٣٧).

ومن الأمثلة الموضحة لاستعمال هذا النوع من الإحالة، ما ورد في المشهد الرابع الذي

يصور مدار بين إبراهيم عليه السلام وقومه بعد أن جعل أصنامهم التي يعبدونها من دون الله
جذاذاً إلا كبيراً لهم، قال تعالى:

"قَالُوا: مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ؟" قَالُوا: سَمِعْنَا فَسَىٰ يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ. قَالُوا: فَأْتُوا

بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِنَا لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ. قَالُوا: آتَتْ فَعَلَتْ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ؟ قَالَ: بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ

هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ. فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا: إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ تَوَكَّسُوا عَلَىٰ

رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ" (الأنبياء ٥٩-٦٥).

إن النص ينقلنا إلى مشهد حقيقي فنرى ونسمع ما يحدث، ونتخيل حركات الأشخاص،

وإشاراتهم الحقيقية إلى ما يدل عليه اسم الإشارة في كل مرة، كذلك فلا يخفى ما يدل عليه اسم

الإشارة في قولهم: (من فعل هذا؟) من تصوير استكبارهم ما وقع بآلهتهم المعبودة من فعل

فاحش.

ومنه قوله تعالى:

"قَوْلِ يَوْمِئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ * يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي

كُتِبَ عَلَيْهَا تُكذَّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ؟" (الطور ١١-١٥).

حيث يدل اسم الإشارة على ما يجده المكذبون الكافرون يوم القيامة من النار ومشاهد العذاب، والإحالة هنا ليست نصية وإنما مقامية، ولا يمكن فهم النص وتصوير انسجامه دون معرفة المشار إليه.

ومن أنماط الربط الإحالي الشائعة في الأسلوب القرآني استعمال أسماء الإشارة لتقوم بوظيفتين: الأولى الإحالة إلى خطاب سابق واستحضاره مختزلاً، والثانية ربط هذا الخطاب بما بعده بواسطة العطف، بحيث يحل اسم الإشارة محل الخطاب السابق، ومن أمثلة هذا النمط:

"هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ * إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ بَغَادٍ * هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ * جَهَنَّمَ

يَصْلَوْنَهَا فَيَسَسَ لَهَا * هَذَا فَلْيَذوقوه حَمِيمٍ وَغَسَّاقٍ." (ص ٥٣-٥٧).

حيث أفاد اسم الإشارة (هذا) اختزال الخطاب السابق وتوكيده، بتكرار المعنى، ومهد للعطف عليه.

ومثله:

"فَلَمْ تَسْأَلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَلَّهْمُ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ

سَمِيعٌ عَلِيمٌ * ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ" (الأنفال ١٧-١٨)

فيصح أن تكون (ذلكم) إشارة إلى البلاء الحسن، أي الغرض ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين، يعني أن الغرض إبلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين^(١) ويصح أن (ذلكم) إشارة إلى مجموع الخطاب السابق كله، اختزلته ومهدت للعطف عليه بما بعده^(٢).

أما الإحالة البعدية أو إلى متأخر فأهم صورها ضمير الشأن، ووظيفة الإحالة إلى مرجع متأخر لا يكون إلا جملة خبرية، فيمهد لها ويربطها بالخطاب السابق، ومن الأمثلة عليه:

"وَرَأَوْنَهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي

أَحْسَنَ مَوَاطِيئَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ" (يوسف ٢٣).

٣. العلاقات المعجمية

أشير في البدء إلى أن العلاقات المعجمية المقصودة هنا، هي العلاقات التي تترابط بها العناصر المعجمية في النص ترابطاً يسهم في التماسك بين أجزائه خطياً أو رأسياً تأسيساً على المساحة الفاصلة بين تلك العناصر. ويمكن اختزال هذه العلاقات في اثنتين من علاقات الترابط في النص، هما: إعادة العنصر المعجمي وعلاقة التضام أو الانتماء إلى الحقل الدلالي.

١- إعادة العنصر المعجمي أو التكرار:

ولا تعني إعادة العنصر المعجمي هنا الإقتصار على تكرير اللفظ نفسه بالضرورة، فقد يكون التكرير بإيراد عنصر مرادف لسابقه أو يحتويه. كما أنه لا يشترط إعادة اللفظ بصيغته الأولى، فقد يكون العنصر السابق اسماً واللاحق فعلاً أو العكس.

(١) قاله الزمخشري، انظر الكشاف، ج ٢، ص ٢٠١.

(٢) انظر أمثلة أخرى في القرآن الكريم من غير الجدول: الحج ٢٨-٣٠، ٣٢، ٦٠.

غير أن أهم ما في الأمر، وهو وحده ما يهمنى هنا، أن يكون للعنصر المعجمي المكرر دوراً في تماسك النص، ويتحقق هذا بأن يكون بين العناصر المعجمية المقصودة علاقة إحالية تسهم في بناء نص منسجم مترابط، بل تكون أساساً لتحقيق نصية النص.

ولدراسة العلاقات المعجمية التي أسهمت في انسجام الخطاب القرآني وربط أجزاء

النص الواحد، أو نصوصه، نعرض لعدد من الأمثلة المختارة من جدل القرآن:

"قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا

اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يُنْعِمُوا عَلَيْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ* إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ

يُرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ" (الحجرات ١٤-١٥).

فالعنصر المعجمي المحال إليه (آمنا) يتعالق مع العناصر الاتساقية التالية:

(١) لم تؤمنوا (٢) لما يدخل الإيمان (٣) المؤمنون (٤) آمنوا بالله ورسوله

(٥) الصادقون. وقد ساهمت هذه العناصر المعجمية - بهذا الترتيب - في تماسك النص وانسجام

دلالاته ويمكن توضيح ذلك بالآتي:

الجملة الأولى (المحور أو البؤرة): (آمنا) - إخبار بنسبة الأعراب الإيمان إلى أنفسهم.

العناصر الاتساقية: (١) لم تؤمنوا - إخبار يتضمن نفي الإخبار الذي تضمنته الجملة الأولى.

(٢) لما يدخل الإيمان في قلوبكم - بيان حال الأعراب الحقيقية من أن الإيمان لم يستقر في

قلوبهم ليصح وصفهم بالإيمان.

(٣) بيان من هم المؤمنون الحقيقيون.

(٤) متعلق بـ (٣) ويبين أول صفات المؤمنين

(٥) تأكيد بإعادة المرادف : (الصادقون)، ومعناه أن غير من ذكرت صفاتهم (في ٣ و ٤)

كاذبون - أن الأعراب في قولهم: (أمننا)، كاذبون.

وتم ملحظ طريف في النص متعلق بالإيمان الصادق ومقوماته، وهو أنه تجمع مراحل أربع:

(١) الإسلام: (قولوا أسلمنا).

(٢) دخول الإيمان "ولما يدخل الإيمان في قلوبكم".

(٣) الاستقرار والإطمئنان "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا...".

ومثله قول القرآن في جداله مع بني إسرائيل: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تُوْمِنُ بِمَا

أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقُولُونَ أُنْيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ

مُؤْمِنِينَ * وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ

وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ

يَكْفُرِهِمْ قُلْ نَسَمَّا يَا أُمْرَأَتُ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ

دُونِ النَّاسِ فَسَمِّئُوا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ"

(البقرة ٩١-٩٤).

نؤمن بما أنزل علينا

آمنوا بما أنزل الله



خاص

عام

فايمانهم بما أنزل عليهم، في سياق إجابتهم مطلب الإيمان بما أنزل الله، يعني كفرهم

بغيره مما أنزل الله، والنص يفصح عن ذلك (ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم).

ومع ذلك هم كاذبون حتى فيما أدعوه من الإيمان، إذ لا يستقيم اجتماع الإيمان بما أنزله الله عليهم وقتلهم أنبياء الله الذين أرسلوا إليهم: "قلم تقتلون أنبياء الله إن كنتم مؤمنين"١٢. فإذا كان ما أنتم عليه بقانونكم إيماناً، مع ما تفعلون، فهو إيمان مذموم، ولذلك خصص في النص، بالإضافة إليهم "بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين". وأسلوب تخصيص الإيمان - بالإضافة- هنا لإعطائه دلالة مخالفة تماماً للإيمان الصادق، مشابه لتخصيص لفظ (إسلام) في قول القرآن: "يُؤْمِنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تُؤْتُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (الحجرات، ١٧).

• "لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم" * قال الملائكة من قومه إنا لنراك في ضلال مبين * قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين * أتبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون... * وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون * قال الملائكة الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين * قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين".

(الأعراف ٥٩-٦١/٦٥-٦٧).

نلاحظ أن العلاقة المعجمية بين ضلال وضلالة، قد ساهمت في تماسك النص وانسجامه، وأدى استثمار الانزياح الدلالي بين الضلال والضلالة، واستعمال كل منهما في تركيب مختلف تراك في ضلال / ليس بي ضلالة"، إلى إبراز جمال رد نوح عليه السلام على قومه وقد اتهموه بأنه ضال غارق في الضلال الواضح، غير منفك عنه؛ وذلك بأن نفى الضلال عن نفسه

بنفي أدنى شيء فيه فقال: ليس بي ضلالة، قال الزمخشري: "الضلالة أخص من الضلال، فكانت أبلغ في نفي الضلال عن نفسه، كأنه قال ليس بي شيء من الضلال، كما لو قيل لك: أنك تمر؟ فقلت: مالي تمر...والضلالة أدنى من الضلال وأقل، لأنها لا تطلق إلا على الفعلة الواحدة منه.. ونفي الأدنى أبلغ من نفي الأعلى" (١).

ومثل هذا الاتساق العلاقة المعجمية بين (سفاهة) و (سفاهة) في قول القرآن في جدال هود -عليه السلام- مع قومه:

• "وَأَلِيَّ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ* قَالَ الْمَلَأُ

الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ* قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ".

(الأعراف ٦٥-٦٧).

ومن الملاحظ الطريفة في النص السابق أسلوب الجدل الذي يتبعه الأنبياء في حوارهم مع المكذابين، وترك الرد عليهم بما يناسب أقوالهم، قال الزمخشري: "وفي إجابة الأنبياء عليهم السلام - من نسبهم إلى الضلال والسفاهة، بما أجابوهم به من الكلام الصادق عن الحلم والإغضاء وترك المقابلة، بما قالوا لهم مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفههم - أدب حسن وخلق عظيم، وحكاية الله عز وجل ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء، وكيف يغضون عنهم... (٢)". فالأنبياء لم يردوا على وصف أقوامهم إياهم بالضلال والسفاهة بأن قالوا مثلاً: بل أنتم في ضلال أو بل أنتم السفهاء، لأن ذلك قد يؤدي إلى خروج الحوار عن غايته، أو انقطاعه،

(١) الزمخشري، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٠٩-١١٠.

(٢) المرجع نفسه، ج ٢، ص ١١٢.

فتضيق بذلك فرصة من فرص الدعوة، لكنهم ردوا رداً جميلاً يضمن استماع الطرف الآخر لهم، فقدموا بالنداء وأضافوا القوم إلى أنفسهم ليُشعروا الطرف الآخر بالاطمئنان لدعوتهم: يا قوم، ثم نفوا عن أنفسهم أدنى شيء من الضلالة أو السفاهة، وبعد ذلك بينوا أنهم يحملون رسالة لهم من الله رب العالمين، وفرق بين خطاب الكافرين وخطاب الدعاة.

• "يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ نُنزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ. قُلْ: اسْتَهِزُّوا، إِنَّ اللَّهَ

مُخْرِجٌ مَا كُفَرْتُمْ * وَلَنْ سَأَلْتُمُ لَيَقُولَنَّ إِنَّمَا كُنَّا تَخَوِضُ وَلَعَبٌ . قُلْ: أَيْلَهُ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ سَاهُونَ؟" (التوبة ٦٤-٦٥).

فالعنصر المعجمي الاتساق (استهزئوا) أحال إلى حذر المنافقين أن تنزل سورة تفضح أمرهم، فأفاد أنهم إنما كانوا في حالهم تلك مستهزئين، فقال لهم القرآن: (استهزئوا) على سبيل التهديد والوعيد، وكذلك بالنسبة للعنصر (تستهزئون) الذي يحيل إلى قول المنافقين بأنهم كانوا يخوضون ويلعبون، فاستنكر عليهم استهزاءهم بالله وآياته ورسوله: "أَيْلَهُ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ سَاهُونَ؟!" ومع الوظيفة الاتساقية لكل عنصر من هذين العنصرين: (استهزئوا، يستهزئون) فقد أفاد الأول كشف المسكوت عنه في الجزء الأول من النص، إذ يفهم من ظاهر النص أنهم كانوا يحذرون أن يفضحهم القرآن، لكن توجيه الله النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يرد عليهم فيقول: (استهزئوا)، يفهم منه أن استهزاءهم إنما كان بالقرآن، مستهترين به، منكبين قدرته على فضح ما في قلوبهم. وفي الثاني دل الاتساق المعجمي على تخصيص خوض المنافقين ولعبهم وتحديد جهته: بالله وآياته ورسوله.

• "سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ

يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ

الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَبِيعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ

وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ * قَدْ

رَأَى نَقْلَهُ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلتَوَلَّيْتَكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ

فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ * وَلَئِنْ

أَنْتَ الَّذِي أُوتِيَ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا يَتَّبِعُونَ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ

أَتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ" (البقرة ١٤٢/١٤٤-١٤٥).

أفاد ذكر الذين أوتوا الكتاب، وهم هنا بنو إسرائيل، في سياق تغيير القبلة، ربط النص

أوله بأخيه، ودلّ وأن المقصود بالسفهاء من -الناس على الأرجح- هم بنو إسرائيل.

ومثله العلاقة الاتساقية بين "الناس" و "السفهاء" في قول القرآن: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا

آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ" (البقرة ١٣).

وقد تكون العلاقة بين العناصر علاقة تطابقية، وبذلك يفهم النص أن جميع الذين آمنوا

من الناس هم سفهاء- من وجهة نظر القائلين "أنؤمن كما آمن السفهاء؟" أو إن العلاقة هي علاقة

: كل- جزء، وعندها لا يكون كل من آمن من الناس من السفهاء، ولكن وجود السفهاء يبين

المؤمنين يمنع أولئك المتكبرين من الإيمان لأنه يساويهم بهم- في رأيهم-.

٢- علاقات التضام أو عناصر الحقل الدلالي:

وهذه العلاقات أكثر اتساعاً وأقل انضباطاً من علاقات التكرير، وذلك لأن ارتباط العناصر المعجمية، لا يسهل - دائماً - إرجاعه إلى علاقة واضحة تحكمه. وبشكل عام فإن التضام يعني توارد عناصر معجمية ضمن علاقات معينة، كعلاقة التضامن أو التلازم. ومن أهم العلاقات النسقية التي تحكم العناصر المعجمية في خطاب ما: علاقة التعارض وعلاقات أخرى مثل: الكل- الجزء، الجزء- الجزء، التكامل - التقابل، الأسماء العامة^(١). وبشكل عام يمكن اختصار معظم هذه العلاقات في واحدة، هي علاقة العناصر في الحقل الدلالي الواحد. ونعود لنشير إلى مسألة مهمة فيما يتعلق بعلاقات التضام بين العناصر المعجمية وهي أن ما يهمننا منها هنا ما كان له وظيفة اتساقية في النص تسهم في تماسكه. ونعرض فيما يلي لعدد من الأمثلة المختارة لهذا النوع من العلاقات المعجمية من جَدَل القرآن:.

* مقطع من جدل موسى - عليه السلام - مع فرعون:

" قَالَ رَبِّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ

الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّكُمْ تَعْقِلُونَ" (الشعراء ٢٦-٢٨).

فالعلاقة المعجمية بين (مجنون) و (تعقلون) علاقة تعارض، وهي تسهم في اتساق النص، فقد قابل موسى عليه -السلام- ما نسبته إليه فرعون وقومه من الجنون بنفي العقل عنهم إن لم يستطيعوا إدراك أن ثمة رباً خلقهم وأبائهم، وهو رب المشرق والمغرب، والشروق والغروب وما يتعلق بهما من بزوغ الشمس والقمر والنجوم وأقولها وما يظهر عنهما من تقلب الليل والنهار، والحركة الدائبة المنتظمة الملازمة لهم في كل أوقاتهم، أبين دليل على الخالق لمن له عقل، فإن لم يؤمنوا بالله الخالق المدبر، مع ظهور الآيات، فإنهم لا يعقلون، قال الزمخشوري:

(١) انظر الخطابي، لسانيات النص، ص ٢٥.

"عارض موسى": إن رسولكم لمجنون بقوله: إن كنتم تعقلون^(١). وفي نظم الدرر: "ولما دعاه - عليه السلام- باللين فأساء الأدب عليه في الجواب الماضي (وذلك وصفه بأنه مجنون) ختم هذا البرهان بقوله: "إن كنتم تعقلون" أي فانتم تعلمون ذلك، فخيرهم بين الإقرار بالجنون أو العقل، بما أشار إليه من الأدلة في مقابلة ما نسبوه إليه من الجنون بسكوتهم وقول عظيمهم... فكان قوله أنكى مع أنه اللفظ، وأوضح مع أنه أستر وأشرف^(٢).

وفي كلام البقاعي إشارة إلى أسلوب من أساليب جدل الدعاة مع أقوامهم وخصومهم، فموسى عليه السلام لم يرد على سوء أدب فرعون بمثله وإنما ترك لهم الخيار بين الإقرار بالجنون أو العقل، ولا يجتمع العقل وعدم التفكير في خلق الله وقدرته في الكون ليعلم أن لا رب سواه، ولما لم يؤمنوا فإنهم لا عقل لهم، وهذه نتيجة منطقية لما هم فيه، لكن الرسول الداعية لم ينعتهم بالجنون مباشرة رداً على قول فرعون، وتركهم يتفكرون في كلامه ليقرروا من بعد إن كانوا يعقلون أو لا يعقلون.

• ومن صور التضمن - علاقة من علاقات الاتساق في النص - ما ورد في أوائل

البقرة: "أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ". (البقرة ١٦).

وقد قامت العلاقات بين العناصر الآتية:

• اشتروا / ربحت / تجارة.

• الضلالة / الهدى / مهتدين.

وقد أدت العلاقات المعجمية بين عناصر كل مجموعة إلى اتساق النص وإنتاج الدلالة المقصودة من النص، فالاشتراء يتطلب أمرين: البضاعة لتُشترى والتمن ليُشترى به، والتمن يكون مالاً ويكون بضاعة، لكن بضاعة تخالف الأولى، وهؤلاء (في النص) اشتروا الضلالة بالهدى، فاستبدلوا - بذلك - الرخيص بالنفيس، فهم اشتروا بالهدى الكثير الضلالة الواحدة، وذلك هو الخسران المبين، ولو أنهم اشتروا الضلالة بالهداية لكان الخسران أقل، ومع ذلك فلم يصوح

(١) الكشاف، ج ٣، ص ٣٠٠.

(٢) نظم الدرر، ج ٥، ص ٣٥٦.

الخطاب القرآني بالخسارة واكتفى بالقول: فما ربحت تجارتهم، ويفهم من القول احتمال عدم الخسارة (لا ربح ولا خسارة) والاحتفاظ برأس المال وهو الهدى، لكن القرآن يعقب قائلاً: (وما كانوا مهتدين)؛ وهذا أسلوب مؤثر من الناحية النفسية على المتلقي والقصد منه زيادة تعذيب هؤلاء التجار الذين ضلوا.

ويمكن القول إن الأمثلة السابقة تبين فعالية العلاقة المعجمية بين العناصر المكونة للنص في تماسكه، وفي جميع الأمثلة كانت العلاقة واضحة خاصة عند قصر المسافة الفاصلة بين العناصر المتعاقبة، مما أدى إلى وضوح تماسك الأجزاء المتقاربة في النص بعضها ببعض. غير أن الأمر يختلف عندما تكون المسافة الفاصلة بين الأجزاء المتعاقبة في النص بعيدة، فإن وظيفة العلاقات المعجمية بين العناصر المتباعدة تصبح أكثر أهمية لتماسك النص، وفي الخطاب القرآني تكشف هذه العلاقات ترابط مقاطع النص ودلالاتها، بحيث تتكشف مثلاً العلاقة بين مقصد السورة (بؤرة النص) والأجزاء أو المقاطع التي تكون السورة، (النص). ونعرض فيما يلي لعدد من الأمثلة من خطاب الجدل القرآني التي تظهر سياسة الربط المعجمي بين عناصر متباعدة في النص الكلي ودورها في تماسكه.

الأمثلة:

المثال الأول من سورة هود، ونرى فيه وظيفة الاتساق المعجمي في ربط أجزاء متباعدة

في النص:

• (١) " فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَصَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ

(هود ١٢).

أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ تُذِيرُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ

(٢) : " تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ

(هود ٤٩).

الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَمِّينِ "

(٣) " وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ "

(هود ١١٥).

(٤) " وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَبَّيْتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ

(هود ١٢٠).

وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ "

ونبدأ بالإشارة إلى أن أهم قضية تعالجها السورة - بوصفها نصاً واحداً - هي الدعوة المحمدية، وتذكير الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن وظيفته إنذار الناس "إنما أنت نذير"، وتثبيت فؤاده ليصبر على ما يقوله المكذبون، وباستحضار هذه الأمور التي تمثل مجتمعة مقصد السورة (أو بؤرة النص) نستطيع إدراك شبكة العلاقات القائمة بين أجزاء النص، والتي تمثل نسجه، ومغزى إيراد كل مثل وقصة فيه.

وبالنظر إلى الأجزاء الأربعة المختارة من النص، نلاحظ أنها تتفق وتلتقي لترسم لنا صورة الحالة النفسية للنبي - محمد صلى الله عليه وسلم - حين كان يجهد نفسه في دعوة قومه ويقابلونه بالتكذيب والتهاون في القرآن والاستهزاء به، مما يخاف معه أن يضيق صدره وأن يتردد في إلقاء آيات الله وبياناته إليهم كي لا يهز عوا به ويضحكوا منه

" فَلَمَّا كَانَتْ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَصَاقٍ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ

(هود ١٢٠).

مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ "

قال الزمخشري : "وكانوا لا يعتدون بالقرآن ويتهاونون به وبغيره مما جاء من البيئات، فكان يضيق صدر رسول الله - صلى الله عليه وسلم- أن يلقي إليهم مالا يقبلونه ويضحكون منه، فحرك الله منه، وهيجه لأداء الرسالة، وطرح المبالاة بردهم واستهزائهم واقتراحهم بقوله: "فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك" أي لعلك تترك أن تلقيه إليهم وتبلغه إليهم مخافة ردهم له وتهاونهم به"^(١).

ولما كان ضيق الصدر دالاً على الغضب وانخفاض مؤشر الصبر، قدم الله لرسوله نماذج من قصص الأنبياء وجدالهم مع أقوامهم الذين كذبوهم، وابتدأ بقصة نوح -عليه السلام- الذي لبث في قومه ما يقرب من ألف سنة يدعوهم فكذبوه ولم يؤمن معه إلا قليل، ومع ذلك صبر ولم يشعر بالضيق من الدعوة مع طول الزمن، وظل يجادلهم إلى أن جاء أمر الله "قَالُوا

يَأْتِيهِمْ قَدْ جَاءَلْنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا بَعَدْنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَادِقِينَ" (هود ٣٢)

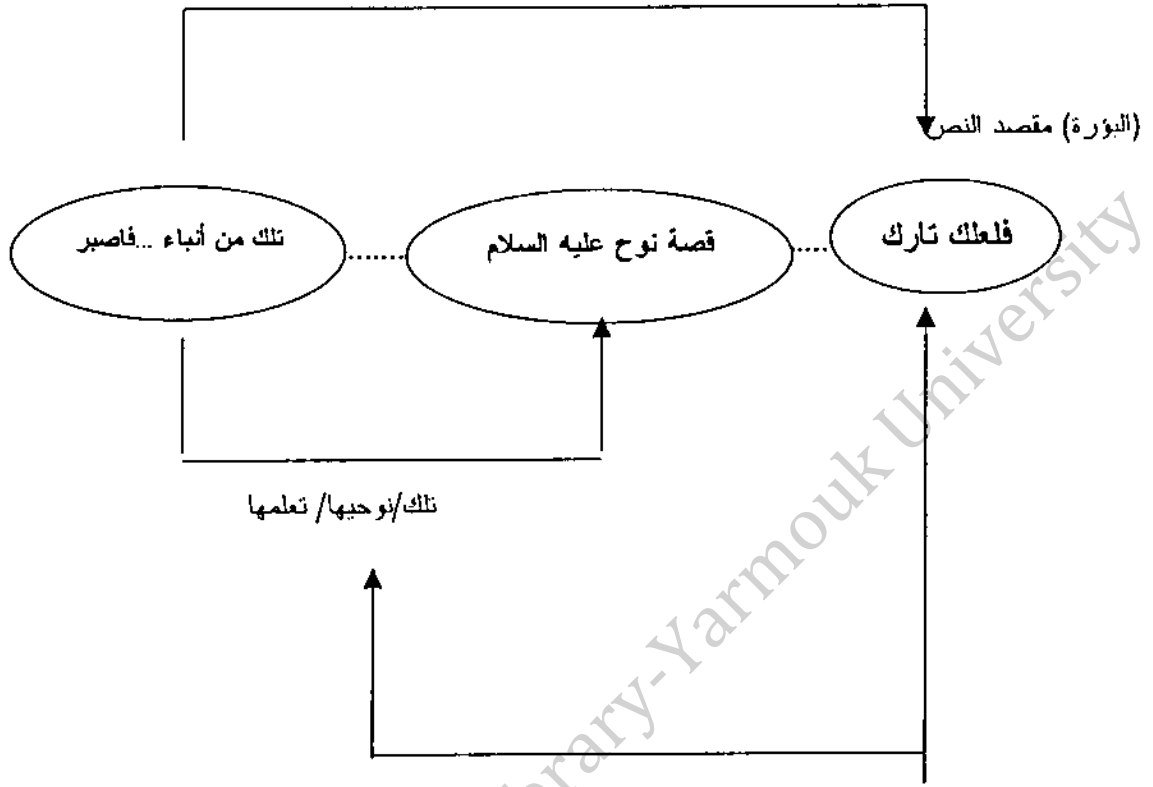
وعندما ختم قصة نوح قال تعالى: "تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا

قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُصْبِرِينَ" (هود ٤٩).

فساهم الربط الإحالي بـ "تلك" والاتساق المعجمي بين (ضائق صدرك) و (اصبر) مع تطابق الإحالة في مرجع الضمان ورجوعها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم: (إليك / كنت/ تعلمها/ أنت / قومك/ فاصبر)، في تماسك أجزاء النص، فارتبط هذا المقطع بالقصة قبله وبالجزء الذي يتضمن مقصد النص (فلعلك تارك...)، وكذلك سهل لنا فهم ارتباط القصة بذلك الجزء.

(١) الكشاف، ج ٢، ص ٣٦٧-٣٦٨.

فاصبر/: إليك/ كنت/ تعلمها/ أنت / قومك

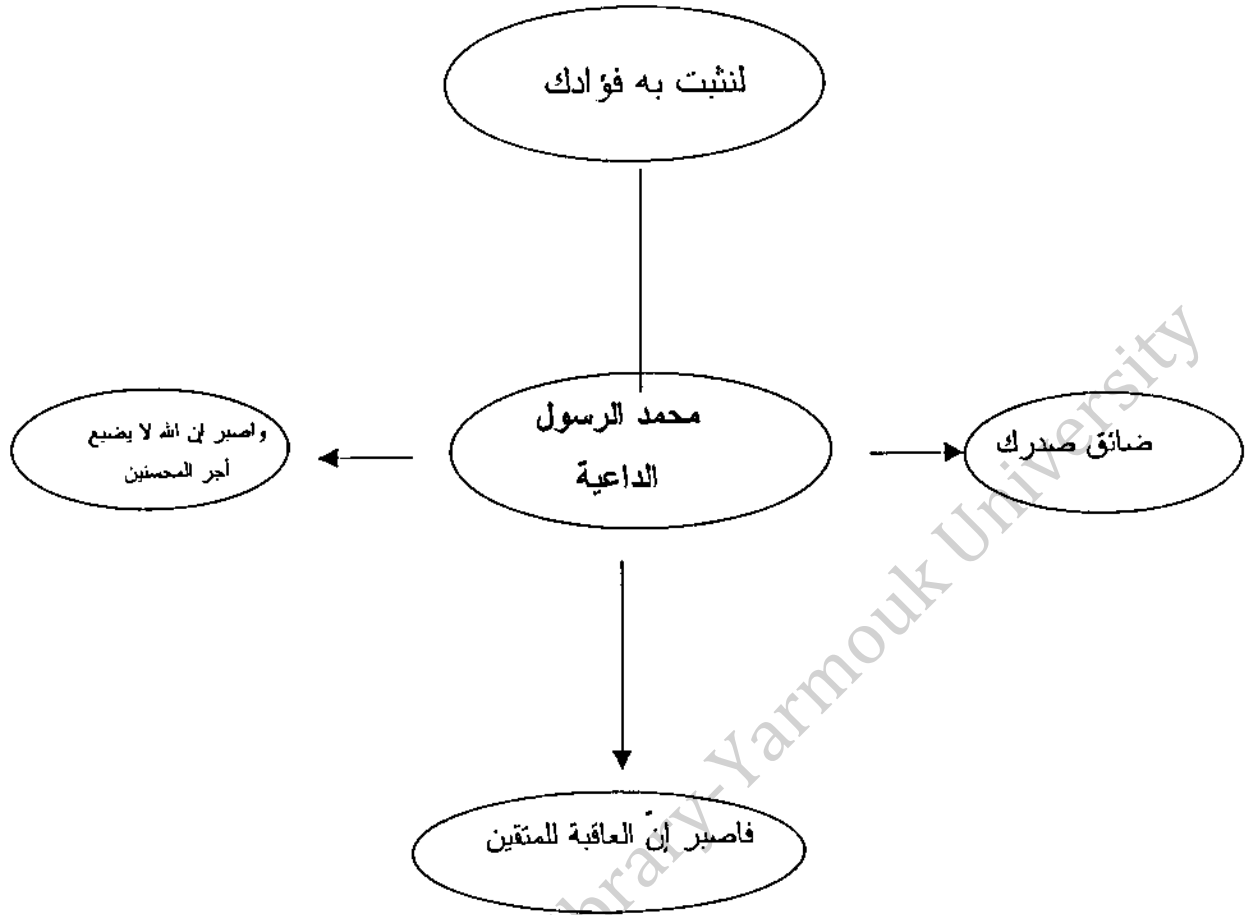


ثم ينتقل النص ليعرض لنا مشاهد الأنبياء وتجاربهم وجدالهم مع أقوامهم، وكيف عذب الله الكافرين منهم. وبعد ذلك حديث عن الآخرة ومصير الكافرين الأشقياء ومصير المؤمنين السعداء، ثم يعود النص ليوظف كل ذلك لخدمة المحور الأساسي في النص وهو محمد عليه الصلاة والسلام فيخطبه: "وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ" (هود ١١٥).

فكر التذكير بالصبر الذي يبلغ المؤمن إلى أعلى الدرجات، فالصبر هو الإحسان، وهو قبل ذلك التقوى "تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ" (هود ٤٩)

وقبل أن تختتم السورة يعود الخطاب القرآني ليبيّن أن أنباء الرسل التي وردت إنما هي لتثبيت فؤاد النبي -صلى الله عليه وسلم- كيلا يضيق صدره: "وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَسَبْنَا بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ" (هود ١٢٠).

وبذلك تكون العناصر المعجمية المتعلقة المتباعدة في النص قد ساهمت بشكل فعال في تماسكه وفي انسجامه الدلالي:



* ومن الأمثلة الأخرى على هذا النوع من الربط قوله تعالى في أوائل سورة الجاثية:

"وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يَصِرُ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرَةٌ بِعَذَابِ إِلِيمٍ *

وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا

شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ" (الجاثية ٧-١٠).

وقوله في أواخر السورة عن مصير المكذابين:

"وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ * وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ

اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَأَرْبَبٌ فِيهَا قُلْتُمْ : مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُحْسِبِينَ * وَإِذَا

لَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ" . (الجاثية ٣١-٣٣).

ومن الأمثلة المهمة التي يبرز فيها دور الاتساق المعجمي في انسجام النص وتوجيه دلالاته، الربط بين قصة إبليس وأدم والخلافة، وقصة بني إسرائيل وتكذيبهم لرسالة محمد - صلى الله عليه وسلم- وهم يعملون أنها الحق، وقد سبقت الإشارة إلى هذين النصين.

"وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ"

(البقرة ٣٤).

"وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرِيهِ وَلَا تَشْرِكُوا بِآيَاتِي تَمَنَّا قَلِيلًا وَأَيَّامِي

(البقرة: ٤١).

فَأَتَقُونَ"

"وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَأِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ....." (البقرة ٤٥).

"وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الدَّلِيلَ وَالْمَسَكَنَةَ وَبَاءُوا بِعَصَابٍ مِنْ اللّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ

(البقرة ٦١).

وَيَقُولُونَ التَّبِيِّينَ بغيرِ الحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ

بنو إسرائيل	إبليس
لم يؤمنوا بما أنزل مصدقاً لما معهم/ عصوا.	لم يطع أمر الله (لم يؤمن لا ستخلاف آدم)
استكبروا الاستجابة لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم	استكبر أمر السجود لآدم واستكبر عليه
كفروا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم (ولا تكونوا أول كافر به) كانوا- من قبل- يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين ← ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله.	كان من الكافرين لعنه ← الله وغضب عليه

فبان بالاتساق المعجمي بين عناصر النصين، والاشتراك في الأساس الذي بُني عليه كل

نص، انسجام النص الكامل، وكيف يوظف نص لخدمة نص آخر ضمن النص الكلي الواحد:

قصة آدم وإبليس - قصة بني إسرائيل مع محمد عليه الصلاة والسلام.

٤. اختزال الخطاب

سنحاول في هذا الجزء من الدراسة فهم دور الاختزال (أو الاقتصاد) في تماسك النص

القرآني ووظيفة الفنية في المستوى الجمالي أو الإبداعي للخطاب.

ولا بد بدءاً من التذكير بأن علماء العربية أكثرنا من الإشارة إلى الحذف في الكلام

طريقة من طرق اختزال الخطاب، وقرروا أنه إذا لم يعقب إخلالاً في المعنى أو تقصيراً في

أدائه وبيانه، فهو صفة من أحمد خصال الكلام. وتكفي الإشارة إلى عبقرية العربية عبد القاهر

الجرجاني الذي تفوق في دراسة هذا الباب ومواطن جماله، قال في تعريفه: "باب دقيق المسلك

لطيف المآخذ عجيب الأمر شبيه بالسكر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت

عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجذب أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأنتم ما تكون بياناً إذا لم تُن (١) وقد تميزت منجزات عبد القاهر في سياق الحذف بالإخلاص الى الجانب التطبيقي بوصفه متابعة وصفية للصيغة الإبداعية دون الدخول في دوائر التقنين، "حيث أورد كثيراً من النماذج التعبيرية الناقصة بالنظر الى بنيتها المثالية، ولم ير في هذا النقص خللاً ما بالنظم بل على العكس" (٢)؛ فترك الذكر - به - أفصح. ومن المسائل المهمة التي تجب الإشارة إليها أن الفكر البلاغي لم يتعامل مع ظاهرة الحذف على نحو مزدوج تنفيذياً، أي تصور وجود المحذوف أولاً ثم حذفه ثانياً، بل التصور قائم على خلفية مثالية في الوعي اللغوي عموماً، ثم مجيء التركيب مخالفاً لها بإسقاط المسند إليه ابتداءً (٣).

غير أن أهم ما يعنينا ونحن ندرس اختزال الخطاب في سياق انسجام الخطاب القرآني وفنيته، هو أن هذا القانون (قانون الاختزال) من أدوات تماسك النص، وبه تسمح لنا اللغة بتكثيف رسائلنا متقين بذلك التعبير المكرر عن الأفكار المعادة (٤)، وبذلك يقوم بوظيفتين : تركيبية وجمالية.

وليس الحذف - في إطار تماسك الخطاب - الطريقة الوحيدة للاختزال، وإنما يتوصل إليه بالتعويض أو الاستبدال، بحيث يقوم العنصر المعوض باختزال نص والإحالة إليه، والفرق بين الاختزال بالحذف والاختزال بالتعويض أن من جهتين؛ الأولى هي الآلية التي تتماسك بها أجزاء الخطاب بالنظر إلى كل منهما، والثانية درجة الاختزال، وذلك أن الاستبدال يختزل به

(١) الجرجاني، دلائل الإعجاز، مطبعة المدني، ١٩٩٢، ص ١٤٦.

(٢) عبد المطلب، محمد، البلاغة العربية: قراءة أخرى، مكتبة لبنان، ناشرون، ط١، بيروت، ١٩٩٧، ص ٢٢٢.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢١٦.

(٤) الخطابي، لسانيات النص، ص ٢٢٨.

الخطاب مع الإبقاء على عناصر لغوية دالة على المحذوف، أما الحذف فإنه لا يخلف أثراً ويستبدل بالمحذوف صفراً^(١).

وقبل الانتقال إلى الأمثلة والنماذج التي وقع فيها الحذف أو الاستبدال - بوصف كلٍ منهما أداة من أدوات تماسك الخطاب - نعرض - باختصار - لمسألة مهمة جداً لا يمكن تجاوزها ونحن نتحدث عن الاختزال، تلكم هي الحروف المقطعة في فواتح كثير من السور القرآنية، مادالاتها؟، وما سرها؟، ولا أبغي بطرح المسألة هنا اختيار تفسير من التفسيرات الكثيرة التي تملأ كتب التفسير وعلوم القرآن^(٢)، وليس تعدد الآراء في تفسير الحروف المقطعة إلا دلالة واضحة على أن فيها سرّاً يلهث العلماء وراءه ولا يصلون فيه إلى فصل الخطاب^(٣)، ومع أخذنا بمعظم ما يقوله علماؤنا فيها فإنه - من وجهة نظري - يمكن التسليم - بدرجة أكبر من غيرها - إلى القول بأن هذه الحروف المقطعة التي تبتدئ بها السور إعلامٌ بأن هذا القرآن العظيم المعجز هو من هذه الحروف: ألف، لام، ميم، غير خارج عنها، وهي متاحة لكل بليغ وفصيح.

وهناك من ربط بين هذه الحروف المقطعة وقانون الاختزال الذي يعمل بفعالية في القرآن، وهناك من أفرد لها بدراسات مستقلة وقصر الاختزال في القرآن عليها، ومن هذه الدراسات دراسة حاول صاحبها جمع كل الآراء التي قيلت في هذه الحروف (فواتح السور)، وبدأ يعارضها واحداً واحداً، ليخلص في النهاية إلى أن أيّاً منها لا يصلح تفسيراً لهذه الظاهرة القرآنية، واستبدل بتلك الآراء رأياً قائماً على الاختزال، ملخصه أن كل حرف من الحروف التي تشكل فواتح السور يرمز إلى كلمة معينة، وأن هذه الرموز مجتمعة تمثل محتوى السورة، أو أهم ما تدعو إليه، فمثلاً يقول: "آلم" اختزال لـ: أنا الله العليم، وهكذا، يختار من السورة ما

(١) انظر: الخطابي، المرجع نفسه، ص ٢١.

(٢) انظر على سبيل المثال كلام الزمخشري في تفسيره أوائل سورة البقرة، الكشاف، ج ١، ص ٣٠-٤١.

(٣) يشير الباحث وليد منير إلى أن افتتاح سور القرآن بالحروف المفردة والمركبة، يسمى: الابتداء الخفي، نقلًا عن ابن قيم الجوزية، انظر: منير، وليد، النص القرآني من الجملة إلى العالم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط ١، القاهرة ١٩٩٧، ص ٧٩-٨١.

يدرك هو بحدسه أن السورة تهتم به ويتفق مع الحروف المقطعة (المختزلة)^(١)، وهو أمرٌ -في رأيي- قائم كله على الحدس، ولذلك نرى الباحث يطوع النص القرآني لما يتفق مع دلالات الحروف المقطعة التي يقترحها، دون أن يقدم لنا أساساً لغوياً يدعم رأيه، وإنما يكفي بفهم عام للسورة أو موضوعاتها مع استحضار الرموز التي يبحث لها عن مرجعيات، ثم إنه لا يتبع منهجاً واحداً في عملية ترجمة الرموز أو تفسيرها؛ فمرة يكون الحرف أول حرف في الكلمة المرجع ومرة يكون آخر حرف، وهكذا.

والآن نمضي مع نماذج مختارة من خطاب الجدل القرآني الذي وقع فيه الحذف وساهم في تماسك النص، وذلك بإدراك العلاقة الدقيقة التي تربط بين عناصر الغياب وعناصر الحضور في النص^(٢)، مع الإشارة إلى أن الحذف الموظف في عملية تماسك النص يسهم كذلك في بلاغة الخطاب وجماله. وهنا يحسن الاستشهاد بكلام الزمخشري معلقاً على حذف جواب "لولا" في قوله تعالى:

"وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ* إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا

تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ

(النور ١٠ و ١١).

عَظِيمٌ

قال: "جواب لولا" متروك، وتركه دال على أمر عظيم لا يكتفه، ورب مسكوت عنه أبلغ من منطوق به^(٣)، وهو بذلك يؤكد اتباعه -من حيث التطبيق- منهج عبد القاهر الذي أسسه في الدلائل.

(١) انظر: الجابي، سليم، فن الاختزال في القرآن الكريم، دمشق، ط ١، ١٩٩٤، المقدمة، و ص ٣-٢٥ على سبيل المثال.

(٢) انظر: منير وليد، النص لقرآني من الجملة إلى العالم، ص ٣٤.

(٣) الكشاف، ج ٣، ص ٢١١.

أمثلة تطبيقية:

الاختزال بالحذف

من أوضح صور الحذف في الخطاب القرآني ، ما يقع من حذف في سياق الشرط، بحيث يمكن القول إن من الخصائص التي تميز الأسلوب القرآني استخدام الحذف بشكل لاقت في الجمل المتلازمة الشرطية. ويطرد من أشكال الحذف فيها بشكل واضح حذف القرآن جملة الجواب، وهو ما يبدو خروجاً عن مجرى الاستعمال في الخطاب العربي وصفه أحد البلّغين^(١) بالشذوذ الأسلوبي، ويرى أن المفسرين لم يشيروا إلى هذا الخروج، يقول: "ومهما تكن ظاهرة الحذف في التراكيب التلازمية ظاهرة شائعة في الاستعمال العربي، فإن من المهم أن نلاحظ أن التركيب القرآني قد خرج بها في كثير من الأحيان نحوياً ودلالياً عن مجرى الخطاب العربي، فلم نر المفسرين يشيرون إلى هذا الشذوذ الأسلوبي، ولم نرهم يشرعون له التشريع الذي يخول للمتكلم العربي أن يقتدي به وينسج على منواله، فبقي هذا الضرب من التركيب ظاهرة منعزلة تحل خفاياها وتوضح مقاصدها، ولكنها تحفظ ولا يقاس عليها... فإما أن يكون هذا شأن التراكيب التلازمية في العربية في عصر الوحي وأن يكون النحو عند التقعيد قد ضبط مسالكها وضيق مجال التصرف والحذف فيها، وإما أن يتعلق الأمر بظاهرة أسلوبية قرآنية تدرك خصائصها ويبحث في طرافتها ومفعولها"^(٢). وأياً كان الأمر فإن الخطاب القرآني يتميز بتوظيف الحذف في سياق الشرط ليغدو هذا الاستعمال الخاص مميزاً للخطاب القرآني عن غيره من أشكال الخطاب اللغوي. ومن أمثلة هذا الحذف:

(١) الهادي الحطلاوي في كتابه: قضايا اللغة في كتب التفسير. انظر الصفحات: ٥٣٨-٥٤٢.

(٢) المرجع نفسه، ص ٥٤٠-٥٤١.

"وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْجَعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنَّمَا لَكُم مُؤْمِنِينَ".

(سبا ٣١).

فجواب (لو) محذوف، قال الزمخشري "ولو ترى في الآخرة موقفهم وهم يتجادلون أطراف المحادثة ويتراجعونها بينهم لرأيت العجيب، فحذف الجواب" (١)

وقوله: "بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَنْذَا مِنَّا وَكَمَا تَرَاْنَا ذَلِكَ رَجَعٌ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ" (ق: ٢-٣)

أي: أحيان نموت ونصير تراباً نرجع؟. ذلك رجع بعيد.

والمهم أن نشير هنا إلى أننا احتجنا إلى تقدير سياق قولي ليرتبط به العنصر الظاهر ليطماسك النص، ولكن النص استغنى عن هذا السياق المقدر وسكت عنه لدلالة العناصر الظاهرة عليه، فمال إلى الإيجاز، فضلاً عن مراعاة الجانب التداولي الذي يستحضر معه الموقف ويترك للمتلقى الانطلاق والاختيار في تقدير المحذوف الذي ينطق المسكوت عنه، وهنا يكمن السر - في رأيي - في هذا النوع من الحذف (٢).

(١) الكشاف، ج ٣، ص ٥٦٦.

(٢) من أمثلة هذا النوع من الحذف في الخطاب القرآني من غير خطاب الجدل، قوله تعالى: "فَلَمَّا ذُهِبَ بِهِ

وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجَبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ....." (يوسف ١٥).

وجواب (لما) محذوف، ومعناه: فعلوا به ما فعلوا من الأذى، انظر الكشاف. ج ٢، ص ٤٣٢.

ومنه قوله: "فلما ذهب عن إبراهيم الروح.....".

والمحذوف: اجترأ على خطابنا وقال كيت كيت ثم ابتداء فقال:..ويجادلنا : كلام مستأنف دال على الجواب.

الكشاف، ج ٢، ص ٣٩٦ وقوله: "وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ

يَتَسَّنَّ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَرَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا نُصِيبُهُمْ بِنَارٍ فَارِغَةً أَوْ نُحِلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَسَى يَأْتِي

وَعُدُّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ" (الرعد ٣١). الجواب محذوف، كما نقول لغلامك: لو أنني فمت إليك، وتترك

الجواب، والمعنى: ولو أن قرآنا (سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى) لكان هذا القرآن

• ومثله قوله تعالى: "وَقَالُوا إِنِّي هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِسَبْعُونَ* وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا

عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ"

(الأنعام ٢٩-٣٠).

حيث يترك الحذف مساحةً مفتوحة لتصور موقفهم الشديد عند ربهم، ويؤدي إلى إشراك المتلقي في بناء النص من خلال اتساع مجال القراءة التي يسمح بها انفتاح النص. ومن صور الحذف المطردة في الخطاب القرآني ما جاء في استخدام (أولو)، ومن أمثلته المختارة من الجدل القرآني:

• "قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ

لَنُعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوْلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ"

(الأعراف ٨٨).

وتقديره: أعود إلى ملتكم ولو كنا كارهين؟ أو أعيديونا في ملتكم مع كوننا كارهين^(١)؟

ومثله ما جاء في جدال موسى عليه السلام مع فرعون في سورة الشعراء:

"قَالَ لئن أُنحِذتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ* قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ؟؟"

(الشعراء ٢٩-٣٠).

الكشاف، ج ٢، ص ٥٠٩. وقوله: "فلما أسلما وتله للجبين* وتاديناه أن يا إبراهيم* قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي
المُحْسِنِينَ* إِنَّ هَذَا لَهُ الْبَلَاءُ الشَّيْنُ" الصافات ١٠٣-١٠٥.

قال الزمخشري: فإن قلت: أين جواب لما؟ قلت هو محذوف تقديره: فلما أسلما وتله للجبين (وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا) كان ما كان مما تنطق به الحال ولا يحيط به الوصف من استبشارهما واعتباطهما وحمدهما الله وشكرهما على ما أنعم عليهما من دفع البلاء العظيم بعد حلوله، وما اكتسبا في تضاعفه بتوطين الأنفس عليه من الثواب والإعراض ورضوان الله الذي ليس وراءه مظلوم. الكشاف، ج ٤، ص ٥٣.

وانظر: الجطلابي، قضايا اللغة في كتب التفسير، ص ٥٣٩-٥٤٠.

(١) انظر: الكشاف، ج ٢، ص ١٢٦.

والمعنى: أتجعلني من المسجونين أو اتفعل ذلك بي ولو جننتك بشيء مبين؟!

ومثله: "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا

أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانِ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ"

(لقمان ٢٠-٢١).

أي: أتبعونهم ولو كان اتباعهم ذلك استجابة لدعوة الشيطان إياهم إلى عذاب السعير؟!

ومثله: "اتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولُو كَاتِبَاتٍ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ....."

(الزمر ٤٣).

ويمكن تقدير المحذوف على أنه: أتخذونهم شفعاء ولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا

يعقلون؟! أو: أشفعون لكم ولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون؟!

ومثله أيضاً قوله تعالى:

"وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ

آثَارِهِمْ مُقَدَّرُونَ * قَالَ أُولُو حِجْرَتِكَ بِأَهْدَىٰ مِنَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ"

(الزخرف ٢٣-٢٤)

أي: أتبقون على دين آبائكم ولو جننتكم بدين أهدى مما كان عليه آبؤكم؟

ونلاحظ من جميع هذه الأمثلة أن الحذف مقترن بسياق استفهام استنكاري، وقد دل على

المحذوف عناصر لغوية ظاهرة في الكلام، ولذلك حسن الحذف، أما دوره في تماسك النص

فيعود إلى حاجتنا لربط عناصر ظاهرة في النص بعناصر محذوفة ليتم الانسجام، فالجملة الحالية

في كل مثال من الأمثلة السابقة لا بد لها من متعلق به، وهو هنا العناصر اللغوية المحذوفة.

ومن صور الحذف الطريفة في الخطاب القرآني حذف جواب (إن) واستبدال السبب

الدال عليه به، وذلك نحو قوله تعالى في جدال إبراهيم عليه السلام مع قومه:

"وَإِنْ نَكَذَّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَّمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ" (العنكبوت ١٨).

فلا يستقيم أن يكون تكذيبهم مؤدياً لحصول تكذيب الأمم التي قبلهم، ولا بد من تقدير

محذوف، كأن يكون المعنى مثلاً: وإن تكذبوا فلا يضرني تكذيبكم، فإن الرسل قبلي كذبتم

أقوامهم، وما ضرهم وإنما ضرروا أنفسهم^(١).

ومثله قوله: "إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ* وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ

كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ* ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ

(فاطر ٢٤-٢٦)

كَانَ تَكْبِيرٌ"

أي فلن يضررك وسيعذبهم الله.

ومثله كذلك ما جاء في قصة يوسف عليه السلام:

"قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُدْهِمَا لَهُمْ قَالَ أُنْتُمْ شَرٌّ

(يوسف ٧٧).

مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ"

ويمكن أن يكون التقدير: إن يسرق فلا عجب، فقد سرق أخوه من قبل. ومن صور

الحذف ما وقع من حذف عناصر لغوية مع ألفاظ خاصة ظاهرة دلت عليها، وأغنى السياق عن

ذكرها، ومن هذه الألفاظ: "بلى" و "بل" ، ومن الأمثلة عليها:

(١) انظر: الكشاف، ج ٣، ص ٤٣٣.

"وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَلَمْ أَحَدِكُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ

عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ* بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا

(البقرة ٨٠، ٨١).

خَالِدُونَ"

أي: بلى ستمسكم النار وستمكثون فيها، بل أنتم أصحابها.

ومثله قوله تعالى: "وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا

بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ* بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا

(البقرة ١١١، ١١٢).

هُمْ يَحْزَنُونَ."

أي: بلى سيدخل الجنة كل من آمن بالله.

ومثله: "الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ

(النحل ٢٨).

بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ"

أي: بلى كنتم تعملون السوء.

ومثله أيضاً: "أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاجِرِينَ*

أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ* أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَهُ فَأَكُونُ مِنَ

الْمُحْسِنِينَ* بَلَى قَدْ جَاءَكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ" (الزمر ٥٦-٥٩).

وتقديره: بلى قد هديت بالوحي فكذبت واستكبرت عن قبوله^(١).

ومن الأمثلة على الحذف مع (بل) ما ورد في جدال إبراهيم عليه السلام مع قومه ساخرأ

من ألتهتم ولبلزمهم الحجة:

قالوا: قَالُوا: أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا يَا إِبْرَاهِيمُ؟ * قَالَ: بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ

إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ" (الأنبياء ٦٢-٦٣).

أي لم أفعله بل فعله كبيرهم.

ومن صور الحذف الأخرى ما جاء في قوله تعالى عن الكافرين:

قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا آتَيْنَاكَ آتِينَ فَاغْرَقْنَا بِدُونِنَا فَأَنْزَلْتَنَا إِلَى الْخُرُوجِ مِنْ سَبِيلٍ * ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا

دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ " (غافر ١١-١٢)

أي: لا سبيل لكم إلى خروج قط، بسبب كفركم بوحداية الله وإشرككم به.

ومثله قوله تعالى: "أَنْدَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتَنَا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ

حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ

رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا" (الإسراء ٤٩-٥١).

قال الزمخشري: لما قالوا: أندأ كنا عظاماً، قيل لهم (كونوا حجارة أو حديداً) فرد قوله:

كونوا، على قولهم: كنا، كأنه قيل: كونوا حجارة أو حديداً ولا تكونوا عظاماً، فإنه يقدر على

(١) ذكره الزمخشري، انظر الكشاف، ج ٤، ص ١٣٣.

إحيائكم^(١) ويكشف الحذف هنا عن جانب انفعالي في الخطاب الجدلي، تختفي من أجله عناصر من الخطاب على حساب تداولية الخطاب أو مراعاة لمقتضى الحال، فيكون الكلام أكثر انسجاماً وأقوى أثراً، أما الخلل فغير واقع لدلالة السياق على الخطاب المحذوف.

أما الحذف الاتساقى الأكثر تردداً في القرآن فهو ما يسمى بحذف الاختصار في الخطاب القرآني القصصي، ويكثر الحذف القصصي أو حذف الاختصار عادةً عندما يكون السياق دالاً على المحذوف مغنياً عنه، أو لعدم أهمية ذكر المحذوف في بناء النص، أو تجنباً للتكرار، والأمثلة على هذا النوع من الحذف كثيرة نختار منها مايلي:

قوله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام:

"وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ..."

"فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا: أَقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ"

(العنكبوت الآيتان ١٨ و ٢٤).

فالواضح من بناء النص أن ثمة حذفاً وقع بعد قولهم: اقتلوه أو حرقوه، ويمكن تقديره بـ

: واختاروا أن يحرقوه/ وهموا بإحراقه، بدليل: فأنجاه الله من النار.

ويبرز أثر هذا النوع من الحذف عندما تتسع مساحة الخطاب المحذوف، وهو ما يمكن

تسميته بالحذف المسرحي أو الدرامي الذي يمثل المسافة الفاصلة بين مشهد وآخر، هذه المسافة

التي تقترب من الصفر أو تساويه بحيث يتم الانتقال من مشهد إلى مشهد آخر مستند عليه،

وبذلك ينقلنا النص معه لنطلع على المشاهد التي يسجلها، ملغياً أجزاء من الخطاب لا يسهم

وجودها بالفعل في انسجامه أو بنائه، وإنما يكفي بوجودها بالقوة، إذ السياق دال عليها والمتلقي

(١) الكشاف، ج٢، ص ٦٤٥.

يستحضرها، ولذلك تصبح قراءة النص ومشاركة المتلقي فيها مشابهة لمتابعة قصة سينمائية أو

مشهد تلفزيوني، والأمثلة على هذا النوع من الخطاب كثيرة في القرآن، نختار منها مايلي:

* تصوير القرآن مشاهد وأحداثاً من قصة موسى -عليه السلام- مع فرعون ومنها:

" قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ * وَلَهُمْ

عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ * فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ

رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ أَلَمْ نَبْرِكْ فِينَا وَلِيدًا وَلَسْتَ فِينَا مِنْ عُمَرَكُ سِينِ *

وَفَعَلْتَ فَعَلْتَ الْآبِيَ فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ.... " (الشعراء ١٢-١٩).

- نلاحظ أن ثمة مشهدين مختلفين زماناً ومكاناً ارتبطا معاً اعتماداً على الخطاب

المحذوف، والاتصال الخطي بين هذين المشهدين أغفل ذكر ما حصل بينهما لتوافر ما يدل

عليه، إذ يمكن تقدير المحذوف بمايلي: فأتيا فرعون فقالا إنا رسول رب العالمين أن أرسل

معنا بني إسرائيل، أو فأتيا فرعون فقالا له ما أمرهما الله به. قال (فرعون): ألم نربك...؟.

وللحذف- فوق إسهامه في تماسك النص وإحكام بنائه- أثران مهمان، في رأيي أحدهما

فني جمالي والآخر دلالي:

أما الأول فهو التلخيص مما يؤدي الى تهلhel النص أو إطلالته بلا إفادة، والاعتماد على

المتلقي في الانتقال من مشهد إلى مشهد مستحضراً ما دار في المشهد الأول وأخذاً منه ما يربط

به المشهد الذي يليه.

أما الأثر الدلالي الذي أراه للحذف هنا، فهو التنبيه إلى تقيد الرسول الحرفي والدقيق بمضمون الأمر أو الرسالة، إذ يشير الحذف إلى أن موسى و هارون -عليهما السلام- نفذوا ما كلفهما الله إياه بدقة، وخاطبا فرعون بالكلمات التي لفتها إياها ربهما بحرفيتها، وهذا الاستنتاج، وهو افتراضي، له وظيفة مهمة في خدمة مقصد السورة كلها الذي قررته من أولها من حرص النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- على هداية قومه، وشدة حزنه بسبب كفرهم وتكذيبهم إياه، وأثر ذلك الشديد على نفسه، فجاءت قصة موسى لتبين أن مهمة الرسل واحدة، وأن فرعون وقومه - وهم أكثر قوة من قوم محمد صلى الله عليه وسلم - قد كذبوه ولم يؤمنوا بالآيات البينات التي أظهرها لهم؛ وهذه طبيعة جميع الرسالات. والدرس المهم الذي تحمله الآيات للنبي محمد صلى الله عليه وسلم - من وجهة نظري - هو التركيز على ماهية وظيفة الرسول النبي تتمثل في دعوة الناس و إندارهم والالتزام الحرفي بأمر الله؛ أما أمر هدايتهم فليس من اختصاص الرسل.

ونبقى مع موسى -عليه السلام- وقصته مع فرعون، وننتقل إلى مشهد العصا؛ قال تعالى في سورة الأعراف:

"وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَّ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغَلَبُوا هَٰذَاكَ وَاتَّقُوا صَاغِرِينَ...." (الأعراف: ١١٧-١١٨).

وفي سورة طه:

"وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفُ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَٰجِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّٰجِرُ حَيْثُ أَتَىٰ * فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ...." (طه ٦٩-٧٠).

فالظاهر أن المحذوف هو ما يدل على إلقاء موسى الفعلي للعصا، وقد أغنى عن ذكره السياق، وثم أمر مهم تحسن الإشارة إليه هو إسهام الحذف- مع عناصر أخرى في النص- في تصوير مدى سرعة تحول العصا وتلقفها ما صنع السحرة من السحر، فكان الحذف مناسباً للمقام، وكان استجابة العصا بدأت لحظة أن أوحى الله لنبيه بإلقائها، فضلاً عما يوحي به الحذف من تقيد النبي موسى عليه السلام الدقيق بأوامر الله.

ونرى مشهداً آخر مشابهاً عندما لحق فرعون وجنوده بموسى عليه السلام وقومه:

"فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانَ قَالِ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِي *

فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّودِ الْعَظِيمِ."

(الشعراء ٦١-٦٣).

أي فضربه فانفلق.

ومن أكثر صور هذا النوع من الحذف وضوحاً وجمالاً ما ورد في سورة يوسف ومنه:

"قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَعْلَمُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهَ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ... *

قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ * أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ *

قَالَ إِنِّي لَبِخْرُتْنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ * قَالُوا لَنْ نَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ

غَضَبَةٌ إِنَّا إِذَا لَحَسِرُونَ * ... فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ

بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ" (يوسف ١٠-١٦).

ومثله أيضاً:

" فَلَمَّا اسْتَيْسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ

وَمَنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذُنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ *

ارْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا آبَاءَنَا إِنَّ ابْنَكُمْ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلنَّيِّبِ حَافِظِينَ * وَأَسْأَلُ

الْقُرْبَىٰ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * ... قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ

جَمِيلٌ عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ" (يوسف ٨٠-٨٣)

حيث حذف كلام إخوة يوسف مع أبيهم.

الاختزال بالتعويض:

وهو عملية نصية تتم بحذف عناصر من الخطاب تجنباً لتكرارها، ولعلم المتلقي بها-

استناداً إلى الخطاب- واستبدال عنصر آخر بها، على أن يكون دالاً على العناصر المحذوفة

مغنياً عنها، والتعويض- تأسيساً على هذا المفهوم- يتقاطع مع كل من علاقة الإحالة وعلاقة

الحذف؛ فالعنصر المستبدل أو المعوض يحيل إلى عناصر سابقة عادة، إلا أنه علاقة تتم في

المستوى النحوي- المعجمي^(١)، ويكون باستخدام ألفاظ ذات مساحة دلالية واسعة، لكن هذه

المساحة تضيق وتتجدد عندما تقوم الألفاظ الاستبدال بدور اتساق فتحيل إلى عناصر معينة.

وفيما يلي أعرض لعدد من الأمثلة التي تبرز دور الاستبدال في تماسك أطراف النص

وفي أناقته باختزال العناصر التي لو ذكرت لساهمت في تشويه النص، فضلاً عما كان سيرافق

ذلك من إغفال الجانب الدلالي المستفاد من الاستبدال.

(١) الخطابي، لسانيات النص، ص ١٩.

* في قصة ابراهيم عليه السلام مع قومه وأصنامهم:

"فَرَأَى إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تُأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَّا تَنْطِقُونَ * فَرَأَى عَلَيْهِمْ ضَرَبًا بِالْأَيْمِينِ * فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ

يَزِفُونَ * قَالَ أَعْبُدُونَ مَا تَحْمِلُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ" (الصفافات ٩١-٩٦).

أي كيف تستقيم عبادتكم لما تحتون من هذه الأصنام مع كون الله خلقكم وخلق ما تحتون، فكان قوله (ما تعملون) تفسيراً لقوله (ما تحتون)، أي أن تأويل العنصر الاستبدالي قد تم بالاستعانة بالعنصر السابق في النص.

وهذا التوجيه مهم جداً في تماسك الخطاب وانسجام الدلالة، إذ لا بد لكي يحتج الله عليهم أن يكون قوله (ما تعملون) مفسراً بقوله (ما تحتون)، فبذلك تكون عبادتهم عبادة المخلوق للمخلوق، وهو ما ينكر وقوعه: المعنى: كيف تعبدون هذه الأصنام وهي مخلوقات خلقها الله كما خلقكم، كيف تعبدون المخلوق وتتركون الخالق. ويدعم هذا التوجيه قوله تعالى في موضوع آخر من الكتاب:

"وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ

لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قَالُوا أَحْسِنَا

بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ * قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذِكْرِكُمْ مِنَ

الشَّاهِدِينَ". (الأنبياء ٥١-٥٦).

فإنه هو الذي خلقهم وخلق السموات والأرض وخلق التماثيل التي يعبدونها، فأى ضلال

بعد هذا الضلال الذي هم فيه غارقون؟

وبشبه هذا الاستعمال للاستبدال ما ورد في جداله -عليه السلام- مع قومه بعد ان كسر

أصنامهم المعبودة:

"فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ* قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ* قَالُوا

سَمِعْنَا قَتَى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ* قَالُوا فَأَتَوْا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ* قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ

هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ* قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ"

(الأنبياء ٥٨-٦٣).

حيث إن قولهم : (من فعل هذا بالهتنا؟) معناه- من النص-: (من جعلها جذاذاً هكذا؟) فهم

استبدلوا بالتصريح بالفعل الخاص (جعلهم جذاذاً) الفعل العام: (من فعل هذا؟). وفي رأسي أن

عدولهم عن التصريح بالفعل الخاص (تكسير الأصنام وتقطيعها)، ربما كان عائداً لأحد أمرين:

١- أنهم استعظموا فحش ما فعل بالهتهم فأنكروه، فعدلوا عن ذكره إلى ذكر

ما يدل عليه استكباراً، واستكباراً لذلك الفعل.

٢- أنهم استعظموا على أنفسهم أن يصفوا بالسنتهم الهتهم بما يدل على أنها

لم تعد تصلح آلهة تعبد، ومعنى ذلك أنهم لو سألوا مثلاً: من كسر آلهتنا وجعلها قطعاً

مفتتة؟ لكانوا قد أعلنوا - بالسنتهم- فناء الهتهم المزعومة، وصرحوا بأن ثمة من أوقع

عليها فعل التكسير، وألحق بها الأذى فعجزت عن دفعه.

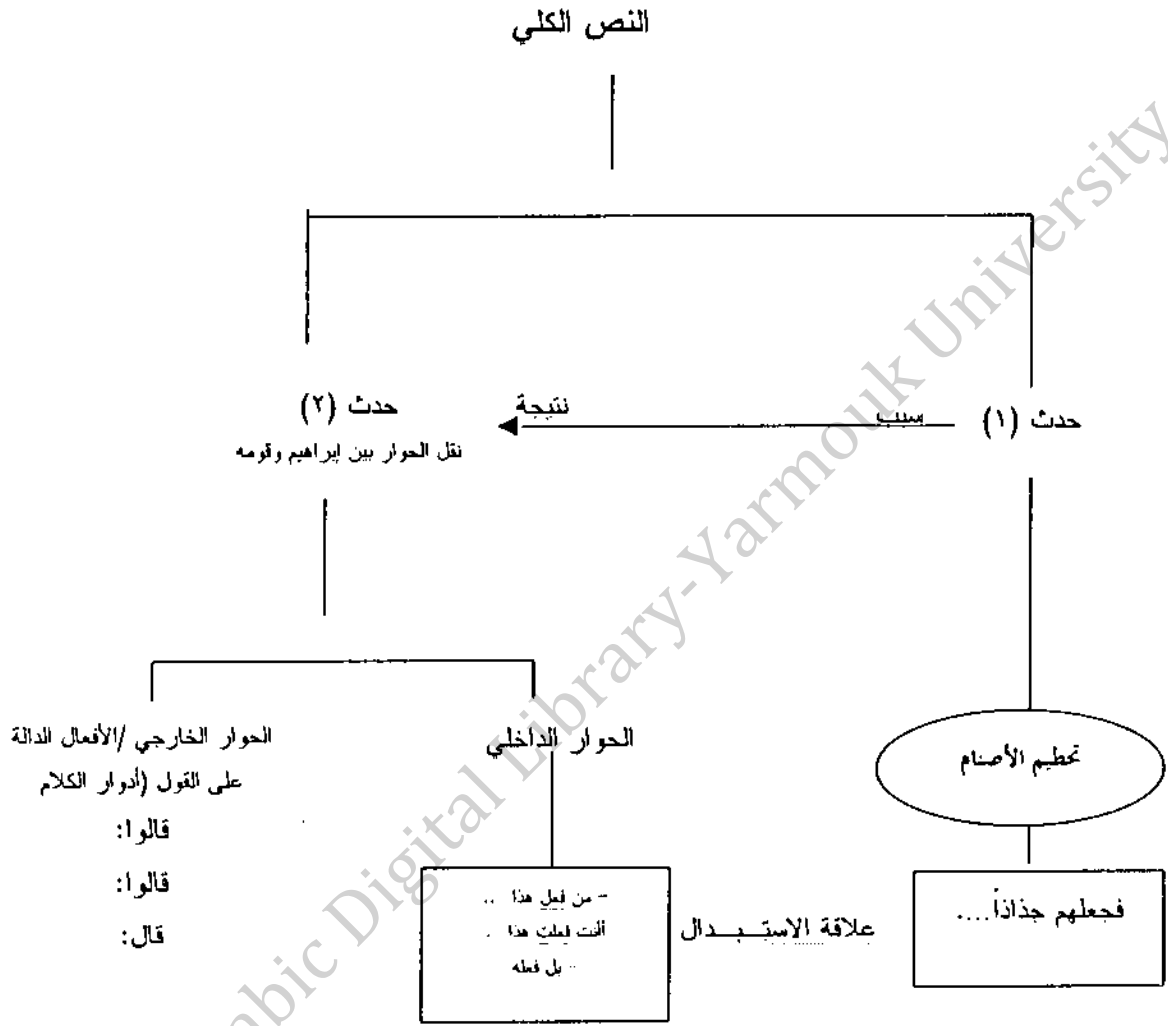
والذي يهمننا أكثر من غيره هنا وظيفة الاستبدال في جعل النص متماسكاً، ومساهمته في

بناء الجو النفسي للخطاب الذي ينسجم معه هنا العدول عن التصريح بالفعل الواقع على الآلهة

واستبدال عنصر غير صريح به للدلالة عليه.

وثمة أمر آخر في النص أفضل الإشارة إليه ونحن نتحدث عن الاستبدال، وهو أن

الاستبدال وقع بين عناصر من مستويين مختلفين، بشكلان مختلفاً تمثل عالم الخطاب:



فالاستبدال بين (جعلهم جذاباً) و (فعل) علاقة تمت في النص النهائي الذي يضم

أشكالاً مختلفة من الخطاب : كالسرد و الحوار.

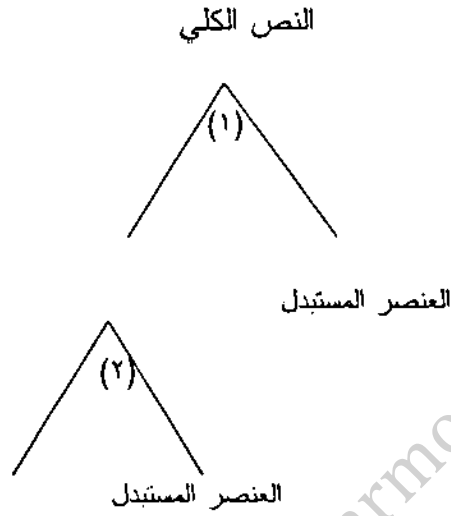
والإحالة بين العنصر الاستبدالي (المستبدل) والعنصر المستبدل تمت داخل النص الكلي،

إلا أنها بالنسبة للحوار الداخلي علاقة خارجية إذ تمت الإحالة إلى عنصر مقامي (عملية تحطيم

الأصنام)، وهو عنصر خارج النص الجزئي (الحوار الداخلي)، بمعنى آخر فإن علاقة الربط

بالاستبدال تمت بين عنصرين غير متفرعين مباشرة من عقدة واحدة، فإذا افترضنا أن عقدة

النص الكلي التي يتفرع منها العنصر المستبدل من المستوى الأول فإن العنصر المستبدل يتفرع من عقدة مختلفة (من المستوى الثاني).



ومن الصور الجميلة في استثمار عملية الاستبدال لاختزال الحظاب وجعله متماسكاً ما

ورد في سياق قصة نوح عليه السلام في جداله مع قومه:

" قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ

بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ * وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ

هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَمْ يَقُولُونَ افْسَاهُ قُلْ إِنْ أُنزِلَتْ عَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا يُجْرِمُونَ * "

(هود ٣٢-٣٦).

ومما يمكن حمله على هذا الشكل من الاستبدال ما ورد في سورة النمل:

"قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَظَ أَهْلِهَا أُذَلَّةً . وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ"

(النمل ٣٤).

وذلك على أن (وكذلك يفعلون) ليس من قولها.

علاقة الاستبدال: العنصر المستبدل (إذا دخل الملوك قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها

أذلة)

العنصر المستبدل: كذلك يفعلون.

ومن الصور الطريفة للاستبدال قوله تعالى: "قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ

وَأَنَا أَوْ يَاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ* قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أُجْرِمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ "

(سبا ٢٤ - ٢٥).

حيث عدل الخطاب القرآني عن إسناد الإجماع إلى المخاطبين بعد أن أسنده إلى

المتكلمين، والمعنى: لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تجرمون؛ فقوله (ما تعملون) مفسر

بقوله (ما أجرمنا) ليتحقق الإنصاف، والاستبدال هنا مشابه لما وقع منه بين (ما تتحتون) و(ما

تعلمون) في سورة الصافات، والقول بالاستبدال هنا يسهم في تماسك الخطاب ولو كان غير ذلك

لأدى إلى تفكيك النظم ولما كان ثم إنصاف للخصم.

والأسلوب الذي يسلكه القرآن هنا في إنصاف الخصم في سياق الجدل أسلوب بليغ

يساوي في الظاهر بين المتكلم والمخاطب، وقد أشار الزمخشري إلى جمالية الخطاب القرآني

المجادل، في تعليقه على هاتين الآيتين، ووصف قوله تعالى: "...وإنا أو إياكم لعلى هدى أو

ضلال مبين" بأنه من الكلام المنصف الذي كل من يسمعه من موال أو مناف يقول لمن خوطب

به: قد أنصفك صاحبك . ووصف إسناد المتكلم الإجرام لنفسه واستبدال ما يدل عليه به بقوله:
هذا أدخل في الإنصاف وأبلغ فيه من الأول^(١). والخطاب القرآني بهذا الأسلوب يصل إلى
غرضه بإنصاف الخصم متوسلاً بالتعريض والتورية، للوصول إلى إلزامه، ففي الأولى (وإننا أو
اياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين) دلالة خفية على من من الفريقين على الهدى ومن هو في
ضلال مبين، خاصة بعد تقريرهم وإقراره عنهم بقوله (قل: من يرزقكم من السماوات والأرض؟
قل: الله) للإشعار بأنهم مقرون به في قلوبهم. ويقول الزمخشري عن فوائد هذا الأسلوب القرآني
للمجادل: "ولكن التعريض والتورية أنضل بالمجادل إلى الغرض، وأهجم به على الغلبة، مع قلة
شغب الخصم وقل شوكته بالهويناء، ونحوه قول الرجل لصاحبه: علم الله الصادق مني ومنك،
وإن أحدنا لكاذب."^(٢) وفي هذا الأسلوب من الجدل مراعاة لحالة الخصم النفسية، ومحاولة لضبط
ردود فعله بما يخدم غرض المجادل، وقد كان إدراك الزمخشري لهذه المسألة في الآيات دقيقاً
جداً، وبين كيف ينتظم الخطاب عند المجادل، وكيف يتحكم بتوجيه مسار الجدل وتطوير الحالة
النفسية للخصم ليمهد استقبالها ما يرسله مع ضمان عدم استثارة الخصم، كي لا ينقطع الخطاب،
فتفتت على المجادل (الداعية) فرصة ثمينة لإقامة الحجة على الخصم.

ومن الأمثلة الواضحة على دور الاستبدال في اختزال الخطاب والمساهمة في تماسكه
وعدم تهلهله قول القرآن في وصف تخاصم أهل النار يوم القيامة وعذابهم:

" هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * احْسُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَرْوَاهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ *

مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ * وَقَفُوهُمْ إِثْمَ مَسْئَلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمْ الْيَوْمَ

(١) انظر: الكشاف ، ج٣، ص ٥٦٤-٥٦٥

(٢) المرجع نفسه، ج٣، ص ٥٦٤.

مُسْتَسْلِمُونَ * وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسَاءُ لَوْنٌ * قَالُوا إِنَّا كُنَّم نَأْتُونَكَ عَنْ اليمينِ * قَالُوا بَلْ لَمْ نَكُونُوا
 مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنَّم قَوْمًا طَاغِينَ * فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَاتُ حُورٍ *
 فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ * فَإِنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ فِي الْعَذَابِ مُشْرِكُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ .

(الصافات ٢١-٣٤).

ومما أرى إمكانية دراسته في باب الاستبدال، ما يقع من حذف في بعض السياقات التي
 يستخدم فيها لفظ (إذا) بدلاً من أداة الشرط وجملتها، وقد اخترت إدراجها ضمن الاستبدال لا
 الحذف لأن (إذا) في هذه السياقات تقوم عنصراً بديلاً عن المحذوف المفهوم من الخطاب
 السابق، فتغني عن ذكره مؤدية دوراً مهماً في اختزال الخطاب وجماله، فضلاً عن عملها أداة
 رابطة تربط جزأين من الخطاب، ومن الأمثلة التي توضح ما نتحدث عنه وتبرز دور (إذا)
 الاختزالي والاتساق قوله تعالى:

"بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ
 بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ" (المؤمنون ٩٠-٩١).

أي: لو كان معه إله لذهب كل إله بما خلق، ولعلا بعضهم على بعض، وقد ذكره
 الزمخشري وقال: "فإن قلت: (إذا) لا تدخل إلا على كلام هو جزاء وجواب، فكيف وقوع قوله
 (الذهب) جزاءً وجواباً ولم يتقدمه شرط ولا سؤال سائل؟ قلت: الشرط محذوف تقديره: لو كان
 معه إله، وإنما حذف لدلالة قوله: (وما كان معه من إله) عليه، وهو جواب لمن معه المحاجة

من المشركين) ^(١) وأسلوب الجدل هذا يقصد إلى إثبات الأمر بإبطال نقيضه لأن النقيضين لا يجتمعان، ويسمى هذا الأسلوب: قياس الخلف ^(٢).

ومن النماذج الأخرى في الجدل القرآني قوله تعالى في مجادلة نوح -عليه السلام- مع

قومه: "وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ . إِنِّي إِذَا لَمِنُ الظَّالِمِينَ" (هود ٣١-٣٢).

ومن النصوص التي تكرر فيها استعمال (إذا) بشكل لافت قوله تعالى في تثبيت نبية

محمد صلى الله عليه وسلم وتحذيره من أن تركز نفسه إلى الكافرين:

"وَلَوْلَا أَنْ بَيَّنَّاكَ لَعَدُ كَذَبَتُ تُرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلٌ * إِذَا لَأَذُقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ

لَا تُجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا * وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَسُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا"

(الإسراء ٧٤-٧٦).

(١) الكشاف، ج ٣، ص ١٩٥، وفي (الإتقان في علوم القرآن) ينقل السيوطي عن الفراء قوله في (إذا): وحيث جاءت بعدها اللام فقبلها (لو) مقدره إن لم تكن ظاهرة، نحو (إذا لذهب كل إله بما خلق...).. ويشر إلى أن ثمة معنى في (إذا) لم يشر النحاة إليه وهو أنها مؤكدة لجواب ارتبط بمتقدم، وذلك في نحو قوله تعالى: "وَلَنْ آتِيَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَنْ آتِيَنَّ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنُ الظَّالِمِينَ." (البقرة ١٤٥). وقوله: "وَلَنْ أُنزِلَنَّ بَشْرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَحَاسِرُونَ * أَعِدُّوا أَنْفُسَكُمْ لَكُمْ إِذَا بَسَمْتُمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ" (المؤمنون ٣٤). ويذكر أنها اختزال لـ: إذا الشرطية + جملة الشرط المحذوفة تخفيفاً، والتتوين جاء عوضاً عنها مثل: حينئذ. ويشير السيوطي إلى أن هناك من ذهب إلى أن (إذا) عوض من الجملة المحذوفة، وعلق بقوله: وليس هذا قول نحوي.

السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق عصام فارس الحرساني، دار الجيل، ط ١، بيروت، ١٩٩٨، مج ١، ص ٥٣٨-٥٣٩.

(٢) انظر: حسن عثمان علي، منهج الجدل والمناظرة، ج ١، ص ٤٠١-٤٠٢. وانظر: زاهر الأحمي، مناهج الجدل في القرآن الكريم، ص ٧١-٧٢.

ومنه "وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ

إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَالْهَذَا وَآيَاتُنَا وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَمَنْ لَمْ يُؤْمَرْ بِالْإِيمَانِ فَلَا تُجَادِلْهُ عَلَيْهِمْ كَمَا يَجَادِلُ الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَلْمِزَهُمْ قُلْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ سَوَاءٌ مَا نَدَّبَكُمْ بِكُمْ وَكَيْفَ كُنْتُمْ تُكْفَرُونَ * وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ

الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ * وَمَا كُنْتَ تُلَوِّمُ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابِ

وَلَا تَحْطُ بِبَيْمِينِكَ ، إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ" (العنكبوت ٤٦-٤٨).

الفصل الثالث

النص نسيج

سورة الشعراء نموذجاً

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

سورة الشعراء نموذجاً لتحليل النصّي

حاولت الدراسة في الجزء السابق السعي للبحث عن آليات تماسك الخطاب وانسجامه، من خلال التماسك الداخلي بين أجزاء المقطع النصي الواحد المشكلة له، وعلاقة كل مقطع بالمقاطع الأخرى المتصلة به التي يُشكل معها النص الكلي، وإذا كان البحث عن آليات التماسك والانسجام تلك قد اقترب من إقامة وحدة جزئية للنص تعتمد على علاقات لغوية نصيّة، فإنّ الوحدة الكلية للنص لا بدّ - للتوصل إلى آلياتها - من أن يبحث عنها في العلاقات اللغوية التي تعمل في اتجاهات متكاملة تشكل نسيج النص الكلي، وهذه العلاقات أيضاً مصدرها النص ذاته. وتأسيساً على ما قدّمناه -- هنا - فإنّ الكلام على الاتصال بين مقطع نصّي وبؤرة النص المولدة لمقاطع النصّ أو دوائره، لا يختلف - من حيث المنهج الأساسي - عن الحديث في أمر تماسك أجزاء نصّ كامل إلا في اتساع زاوية النظر، والتعامل مع نصّ كامل له بداية ونهاية ظاهرتان. ولكي نخرج من دائرة الكلام النظري، فإنّ النصّ الذي نتحدث عنه هنا - ونحن ندرس الخطاب القرآني - تمثله السورة من القرآن، ولما لم يكن بدّ من الاختيار، فإنّ الدراسة ستتمضي مع نصّ سورة الشعراء للبحث عن آليات التماسك والانسجام بين مقاطعها ومكوناتها، أما دواعي الاختيار فالخصها بما يلي:

١. تمثّل السورة نموذجاً واضحاً لخطاب الجدل القرآني في حوار الأنبياء مع أقوامهم في مقاطع النصّ المتعددة.
٢. وضوح معالم ابتداء كل مقطع في النصّ ونهايته.
٣. الترابط اللغوي بين بؤرة النصّ وجميع المقاطع المكوّنة للنصّ.

ولكي لا تنتهم الدراسة بإصدار أحكام مسبقة، وبأنها تضع العربية أمام الحصان، فإننا سندخل مباشرة إلى النص لاستجلاء آليات تماسكه وانسجامه، ومن بعد لفهمه.

موقع النص على الخريطة القرآنية

ويطلب هذا الدخول - بدءاً - الإشارة إلى موقعها على خريطة الخطاب القرآني تبعاً لترتيب النزول وترتيب التلاوة، وكذلك محاولة الوقوف على مقصد السورة (بؤرة النص) الذي تنطلق منه دوائر النص لترتبط به ولتتصل فيما بينها.

أما ترتيب السورة في التلاوة (المصحف) فإنها تقع في الجزء التاسع عشر بين سورتي الفرقان والنمل، ومع أن الدراسة ليست معنية كثيراً هنا ببحث التماسك بين السور أو ما اصطلح على تسميته بالمناسبة بين السور، فإننا سنذكر - باختصار - ما قيل في الترابط بين سورة الشعراء وسورتي الفرقان والنمل، لما في ذلك من فائدة في كشف مقاصد السورة على الأقل.

وبشكل عام فإن علم المناسبة - كما اصطلح على تسميته - يبحث في أوجه الترابط بين الآيات والسور في الترتيب الحالي للنص، أي أنه دراسة علاقات النص في صورتها الأخيرة النهائية، وأقرب ما يمكن وصف هذا العلم به أنه علم أسلوبى^(١). وهو قائم على أساس أن النص القرآني كله وحدة بنائية مترابطة الأجزاء، ولذلك كان جلّ عمل المفسر - في ربط السورة بالسورة - موجّهاً إلى اكتشاف العلاقات الرابطة بين أجزاء النص؛ "وبديهياً أن اكتشاف هذه العلاقات يعتمد على قدرة المفسر في اقتحام النص ... وقد تعتمد العلاقات على التلازم سواء كان تلازماً ذهنياً أم حسياً خارجياً. ومعنى ذلك أن العلاقات و المناسبات احتمالات ممكنة على

(١) انظر: أبو زيد، نصر حامد، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي، ط١، بيروت، ١٩٩٠، ص ١٥٩-١٦٧.

المفسر أن يحاول اكتشافها وتحديدها في كل جزء من أجزاء النص^(١). وتأسيساً على هذا الكلام، فليس التوصل إلى علاقات السور معناه بيان علاقات مستقرة ثابتة في النص، وإنما تأسيس علاقة بين عقل المفسر والنص يتم - من خلالها - رصد علاقات رابطة بين أجزاء النص. ولعلّ اختلاف زاوية نظر مفسر عن الآخر في رصد العلاقات - بل إنشائها -، واختلاف معطيات النص التي يختارها كل مفسر (أو قارئ) ليؤسس عليها تلك العلاقات، أهمّ جهتين منهما ينتج الاختلاف بين أنماط العلاقات التي يتوصل إليها، ولذلك يمكن القول إن معظم العلاقات الرابطة بين سورة وسورة في النص القرآني قائمة على حدس المفسر أو المحلّل، وليس على علاقات لغوية ظاهرة في النص.

ومن أهم الدراسات القيمة التي اهتمت باستكشاف آليات الربط بين السور في النص القرآني كتاب "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" للبقاعي (٨٨٥هـ)، ولا بد لكل من يسعى الاستقصاء في دراسة تحليل الخطاب ونحو النص في تراث المتقدمين من تناول هذا الكتاب، إذ يعدّ من أكثر كتب التفسير عناية بقضايا نحو النص في المستوى التطبيقي. وفيما يتعلق بمكانة السور يقول البقاعي: "وتتوقف الإجابة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها، ولذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة، وكانت نسبه إلى علم التفسير نسبة علم البيان من النحو"^(٢). وأهم ما يلحظ في عمل "البقاعي" أنه ألزم نفسه منهجاً مطرداً ثابتاً - اتبعه في كل كتابه - وهو يسعى إلى ربط كل سورة بالتي قبلها وبالتي بعدها، وكذلك بالنسبة للآيات. ولعلّ التزامه ربط كل سورة بما قبلها وما بعدها، أدى إلى تكلفه - أحياناً كثيرة - في إقامة العلاقات التي ينسجها لتربط كل سورتين متتاليتين، فتشعر أنه جاهزٌ لأن

(١) أبو زيد، مفهوم النص، ص ١٦٠.

(٢) نظم الدرر، ج ١، ص ٥.

يربط بين نهاية كل سورة وبداية أخرى، وأنه يحاول أن يطوع النص لينسجم والعلاقات التي أسسها. وهذا من أهم المآخذ التي يمكن أن تسجل عليه، فضلاً عن سكوتة كثيراً عن الكيفية التي بها توصل إلى التماسك بين سورة وأخرى، واكتفى بالقول بالتماسك دون بيان الروابط اللغوية أو قوانين التماسك بين النصوص، وكان في الغالب ينطلق من الحكم بالتماسك، إلى النص دليلاً عليه - من وجهة نظره - ولو أنه انطلق من النص لكانت نتائجه أكثر دقة وأقوى انسجاماً.

ونعود إلى النص الذي اخترناه (سورة الشعراء) لنقف على ما قيل في ربطها بالسور المجاورة (الفرقان والنمل)، ونعتمد لذلك كتاب البقاعي. يقول البقاعي في كلامه على افتتاحية سورة الشعراء مبيناً موضوعها الرئيسي، وربطاً إياها بالآيات الأخيرة في سورة الفرقان: "مقصودها أن هذا الكتاب بين في نفسه باعجازه أنه من عند الله، مبين لكل ملتبس، ومن ذلك بيان آخر التي قبلها بتفصيله، وتنزيله على أحوال الأمم وتمثيله، وتسكين أسفه - صلى الله عليه وسلم - خوفاً من أن يعم أمته الهوان بعدم الإيمان، وأن يشتد قسدهم لأتباعه بالأذى والعدوان بما تفهمه "سوف" من طول الزمان، بالإشارة إلى إهلاك من علم منه دوام العصيان، ورحمة من أراده للهداية والإحسان"^(١). فالعلاقة التي يرصدها البقاعي بين أول الشعراء وآخر الفرقان هي علاقة التفصيل بعد الإجمال؛ وذلك أن آخر الفرقان كان: "وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن؟ أنسجد لما تأمرنا، وزادهم نفوراً ... قل ما يعبا بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاماً" الفرقان (٦٠، ٧٧)، فالإجمال - كما يرى البقاعي - متمثل في ذكر العذاب نتيجة التكذيب "فقد كذبتم فسوف يكون لزاماً" وذلك على تقدير أن اسم كان المحذوف هو (العذاب)، أما التفصيل، فالظاهر أنه قصد به ذكر ما نزل بالأمم التي قبل أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - من العذاب لتكذيبهم أخوتهم من الرسل، وهو ما ركزت عليه سورة الشعراء، والربط الآخر الذي

(١) نظم الدرر، ج ٥، ص ٣٤٤.

نلحظه من كلام البقاعي - وهو متصل بالعذاب - تسكين أسف النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - خوفاً من أن يشتد أذى المكذبين للذين اتبعوا الرسالة بما يفهم من (سوف) من طول الزمان، وهو ما صرح به في كلامه على أول الشعراء كما تقدم وأشار إليه في كلامه على آخر الفرقان : * (سوف) أي فتسبب عن تكذيبكم انه يجازيكم على ذلك، ولكنه مع قوته وقدرته واختياره لا يعاجلكم بل (يكون) جزاء هذا التكذيب عند انقضاء ما ضربه لكم من الأجال، وكل بعيد عنكم قريب عنده، وكل آت قريب^(١).

أما صلة آخر (الشعراء) بأول (النمل) التي تليها في ترتيب السلاوة، فإنها - كما يعرضها البقاعي - قائمة على الاشتراك في الموضوع، وهو وصف القرآن؛ يقول في كلامه على أول سورة النمل: "ولما ختم التي قبلها بتحقيق أمر القرآن، وأنه من عند الله، ونفي الشبهة عنه وتزييف ما كانوا يتكلفونه من تفريق القول فيه بالنسبة إلى السحر والأضغاث والافتراء والشعر ... وابتدأ هذه بالإشارة إلى أنه من الكلام القديم المسموع المطهر عن وصمة تلحقه من شيء من ذلك، تلاه بوصفه بأنه كما أنه منظوم مجموع لفظاً ومعنى لا فصم فيه ولا خلل، ولا وصم ولا زلل، فهو جامع لأصول الدين ناشر لفروعه ... فقال (تلك) أي الآيات العالية المقام البعيدة المرام، البديعة النظام (آيات القرآن) أي الكامل في قرآنيته الجامع للأصول ..."^(٢). ومع أن البقاعي كان موفقاً أكثر في عرض ترابط سورة الشعراء بسورة الفرقان، ومع أننا لا ننكر الاتصال الموضوعي العام الذي يلمح بين سورة الشعراء وكل من "الفرقان" و"النمل"، فإن الترابط الذي يتحدث عنه عام ومنتسع، وأقصى منتهاه عدم خروجه من دائرة قضايا الشريعة العامة التي يمكن فهم معظم نصوص القرآن في ظلها. وأهم من ذلك - من قبل ومن بعد - عدم تصوّر انسجام لغوي تركيبى - وبعد ذلك دلالي - بين أواخر سورة وأوائل التي تليها في المستوى الخطي للنص. بل إن الأمر - في تصوّري - أبسط من ذلك بكثير، فالقرآن قصد

(١) نظم الدرر، ج ٥، ص ٣٤٣.

(٢) المرجع نفسه، ج ٥، ص ٤٠٥-٤٠٦.

قصداً إلى الانفصال اللغوي بين كل نص (سورة) وآخر، وهي مسألة معلومة بدهاءة؛ إذ كل نصٌ مستقلٌ بذاته متصلٌ بغيره بالاشتراك في الإطار العام للرسالة التي يحملها القرآن كلاً موحداً.

لقد اتبع البقاعي - من وجهة نظري - منهجاً تأويلياً في صياغة الروابط بين سورة وسورة معتمداً على الحدس في الغالب، فضلاً عن أن هذا التأويل - كما رأينا فيما يتعلق باتصال "الشعراء" مع ما قبلها وما بعدها - يختزل محتوى السورة فيما يدل عليه آخرها أو أولها، وهي مسألة لا نتفق معه فيها أساساً، لما تؤدي إليه من إغفال وظيفة أجزاء من النص في تشكيل دلالاته أو مفهومه.

ومهما يكن من أمر، فإن البحث في علاقات الترابط بين سور القرآن رصد أنماطاً من العلاقات لا تعتمد التأويل أساساً - مع استعانتها به - بل تعتمد على وجود نوع من الترابط اللغوي، أو تعتمد على التكرار اللغوي بين لفظ في آخر السورة ولفظ في أول السورة التي تليها. ومن هذه العلاقات أيضاً: علاقة التشابه بين بدايات السور، وعلاقة التلازم النحوي، وعلاقة الاتصال الإيقاعي، وعلاقة التقابل^(١). ومع أن هذه العلاقات تقترب من التفسير اللغوي للترابط المفترض، فإنها تبقى خاضعة لعوامل تتغير وفقاً لاختلاف زوايا النظر والاختيار، وقد تتباين النتائج في تحديد العلاقة الرابطة تبعاً لاختلاف مذاهب المفسرين، بل إنها قد تخضع لذوق المفسر، مما يؤدي إلى عدم انضباط الأحكام المتعلقة بربط السور، وعدم تحديد العلاقات بدقه

(١) انظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج ١، ص ٦٤-٦٨

وقد اتكأ نصر حامد أبو زيد على كتاب الزركشي في حديثه عن العلاقات التي تحاول الاعتماد على شكل من أشكال الترابط اللغوي للتقليل من الطابع التأويلي في تحليل الترابط بين السور، ومن الأمثلة على هذه العلاقات المعتمدة على الترابط اللغوي:

١. انتهاء سورة الواقعة بالأمر بالتسبيح وافتتاح سورة الحديد بالتسبيح (التكرار اللغوي).
 ٢. فكرة التشابه بين بدايات السور، نحو السور التي تبدأ بألفاظ أو حروف متشابهة مثل (حم).
 ٣. الارتباط اللغوي الدلالي أو التلازم النحوي، ومثاله المشهور الارتباط بين سورتي (الفيل) و (قريش).
 ٤. الترابط الإيقاعي كالذي بين سورتي (المسد) و (الإخلاص).
 ٥. علاقة التقابل ومن أمثلتها الترابط بين سورتي (الماعون) و (الكوثر)، وبين (الضحى) و (الشرح).
- انظر: نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، ص ١٦٦-١٦٧.

يُضاف إلى ذلك أن نسبة السور التي درس الترابط بينها من خلال هذه العلاقات (اللغوية) نسبة ضئيلة جداً، تكررت الإشارة إليها في كتب علوم القرآن^(١).

أما فيما يتعلق بموقع سورة الشعراء على خريطة النص القرآني وفقاً لترتيب النزول؛

فالراجح أنها نزلت بعد سورة الواقعة، وتلتها سورة النمل، والسور الثلاثة من القرآن المكي^(٢).

التحليل النصي (علاقات التماسك النصي)

ذكرنا أن من أهم دواعي اختيار سورة الشعراء نموذجاً للتحليل النصي، أنها قائمة

بجميع مقاطعها على الجدل، وأن حدود المقاطع واضحة المعالم، كما أن الترابط النصي بين

بؤرة النص ودوائره المشكلة له يغري بالبحث في علاقاتها، لكشف آليات النص وأدوات

تماسكه.

ويمكن لنا - تأسيساً على العلاقات اللغوية في النص - أن ننظر إلى السورة مكونة من

مقاطع وفقرات محددة يمكن تحديدها كما في الجدول:

(٢) انظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج ١، ص ٦٤-٦٨. وانظر: الكشاف، ج ٤، ص ٧٩٥.

ويورد الزمخشري في حديثه عن أول سورة قريش جميع الآراء التي توجه تعليق (إيلاف قريش)، ومنها أنها متعلقة بقوله (فليعبدوا)، ومنها القول المشهور بأن (إيلاف قريش) متعلق بما قبله من سورة الفيل، أي فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش. وذكر الزمخشري أن السورتين في مصحف "أبي" سورة واحدة بلا فصل.

(٢) انظر: نظم الدرر، ج ٥، ص ٢٠٩، ص ٣٣٥. ويشير البقاعي إلى أن آخر "الشعراء" مدني، وذلك من قوله تعالى: "والشعراء يتبعهم الغاوون"، إلى آخر السورة.

الموضوع	الآيات	المقطع / الفقرة
<ul style="list-style-type: none"> * التأكيد على بيان القرآن، وبحث الثقة والطمأنينة في قلب النبي - صلى الله عليه وسلم. 	الآية (١) - الآية (٩)	المقطع الأول:
<ul style="list-style-type: none"> * مخاطبة النبي - صلى الله عليه وسلم بأن لا يهلك نفسه تحسراً على عدم إيمان قومه واستحقاقهم العذاب. 	الآية (١) - الآية (٦)	• مقدمة
<ul style="list-style-type: none"> * الآيات الكونية تدعو إلى الإيمان، ومع ذلك لم يؤمن أكثر الناس. 	الآية (٧) - الآية (٩)	• فقرة
<ul style="list-style-type: none"> * قصة موسى - عليه السلام - وجداله مع فرعون وذكر العذاب الذي حلّ بفرعون وجنوده بسبب كفرهم. 	الآية (١٠) - (٦٨)	المقطع الثاني:
<ul style="list-style-type: none"> * قصة إبراهيم - عليه السلام - وجداله مع قومه، والإشارة إلى عذاب يوم القيامة. 	الآية (٦٩) - الآية (١٠٤)	المقطع الثالث:
<ul style="list-style-type: none"> * قصة نوح - عليه السلام - وجداله مع قومه، وذكر العذاب بسبب كفرهم. 	الآية (١٠٥) - الآية (١٢٢)	المقطع الرابع:
<ul style="list-style-type: none"> * قصة هود - عليه السلام - وجداله مع قومه، وذكر عذابهم بسبب كفرهم. 	الآية (١٢٣) - الآية (١٤٠)	المقطع الخامس:
<ul style="list-style-type: none"> * قصة صالح - عليه السلام - وجداله مع قومه، وذكر عذابهم بسبب كفرهم. 	الآية (١٤١) - الآية (١٥٩)	المقطع السادس:
<ul style="list-style-type: none"> * قصة لوط - عليه السلام - وجداله مع قومه، وذكر عذابهم بسبب كفرهم. 	الآية (١٦٠) - الآية (١٧٥)	المقطع السابع:

<p>* قصة شعيب - عليه السلام - وجداله مع أصحاب الأيكة، وذكر عذابهم بسبب كفرهم.</p>	<p>الآية (١٧٦) - الآية (١٩١)</p>	<p>المقطع الثامن:</p>
<p>* التأكيد على مصدر القرآن الإلهي وأنه منزل بالوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم.</p> <p>* القرآن منزل على الرسول صلى الله عليه وسلم ولا يؤمن به الكافرون حتى يروا العذاب.</p> <p>* مخاطبة النبي - صلى الله عليه وسلم - ليستمر في دعوة قومه بالقرآن متوكلاً على العزيز الرحيم.</p> <p>* بيان اختلاف القرآن عن الشعر أو ما تنزل به الشياطين.</p>	<p>الآية (١٩٢) - الآية (٢٢٧)</p> <p>الآية (١٩٢) - الآية (٢١٢)</p> <p>الآية (٢١٣) - الآية (٢٢٠)</p> <p>الآية (٢٢١) - الآية (٢٢٧)</p>	<p>المقطع التاسع:</p> <p>فقرة (١)</p> <p>فقرة (٢)</p> <p>فقرة (٣)</p>

وبشكل أكثر تكثيفاً يمكن النظر إلى السورة على أنها مكونة من ثلاثة أقسام، يمثل القسم

الأول المقطع الأول المبين في الجدول، ويختزل القسم الثاني المقاطع من الثاني إلى الثامن مجتمعة، لانفاقها في المقصد والأسلوب، وتوحدَ وظيفتها في خدمة بؤرة النص في المقطع الأول. أما القسم الثالث فيمثل المقطع الثامن بقراته الثلاث، ولا يكاد يختلف في موضوعه الأساس عن موضوع النص الأساس، بل إنه يمثل وحدة موضوعية بعلاقات لغوية ظاهرة مع أجزاء النص الأخرى.

القسم الأول: المقطع الأول:

يتضمن المقطع الأول في النص نقطة انطلاق النص أو ما سميناه بؤرة النص ومحور الخطاب، إذ يمثل موضوعه الحجر الأساس الذي يقوم عليه بناء النص كله، وتتطلق منه الخيوط في علاقات منظمة ليتشكل منها نسيج النص من خلال قانون التوسعة، وبشكل أكثر تحديداً فإن بؤرة النص تتضمنها الجملة الأولى فيه (الجملة النصية)، وذلك قوله:

"طَسْمٌ * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * لَعَلَّكَ بَآخِغٌ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِنْ شَأْنُنَا نَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنْ

السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَافُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ". (الشعراء، ١-٤).

ومع أن ذلك يبقى افتراضاً، فإن نقطة انطلاق النص التي تتضمنها الجملة النصية الأولى فيه تمثل "معلماً عليه يقوم اللاحق منها ويعود. وتحكم الجملة الأولى سائر الجمل اللاحقة لها، بحكم ورودها في البداية، فهي نقطة الانطلاق، وهي المعلم الأول المؤسس لكل المعالم في النص؛ فما يلحق تفصيل لها وتوضيح، أو هو إضافة من حيث الكمية الخبرية، وهو في الوجهين محكوم بها"^(١)، وهذا ما يمكن إثباته أو نفيه بتتبع شبكة العلاقات في النص ورصد أدوات التماسك فيه.

وقد أشار البقاعي إلى موضوع نص "سورة الشعراء" في كلامه على مقصودها الذي منه تسكين أسف النبي - صلى الله عليه وسلم - خوفاً من أن يعم أمته الهوان بعدم الإيمان^(٢)، ولو ربط وحدات النص التالية بهذا المحور وأعادها إليه، لقدم بذلك دراسة محكمة فسي تحليل النص القرآني وفق ما يعرف اليوم بنحو النص وتحليل الخطاب.

ويستطيع المنتبِع لمقاطع النص رابطاً بينها أن يتبين تركيزها على معالجة المسألة التي

شكلت مقصد النص في الجملة الأولى، وهي إظهار حرص النبي - صلى الله عليه وسلم - على

(١) الزناد، الأزهر، نسيج النص، ص ٦٧، ص ١٧٠.

(٢) نظم الدرر، ج ٥، ص ٣٤٤.

هداية قومه مع موقفهم منه من التّكذيب واللدن والخصومة، حتى يكاد يبزع نفسه، ولذلك مضت السورة في عرض قصص الأنبياء - عليهم السلام - لثبث الثقة والطمأنينة في قلب الرسول - عليه السلام ولتعود نفسه إلى الهدوء حينما يعلم شدة حرص غيره من الرسل على هداية أقوامهم، وبقاء أقوامهم على ما هم عليه من العناد^(١)، ولعل ذلك كان السبب في توحيد القرآن بين قصص الأنبياء في فن البناء والتركيب وحتى في الألفاظ والعبارات التي تجري على أسنة شخوص القصص سواء من الأنبياء أو من أقوامهم المكذّبين.

وباختصار فإن النص يركز على مسألتين:

١. تأكيد نسبة القرآن إلى الله - عزوجل - وأنه مخالف للنصوص ذات الأهمية التي كانت سائدة في الثقافة العربية وقت نزول القرآن.

٢. إن أكثر الناس لا يؤمنون حتى لو رأوا الآيات الواضحة، وبهذا قوبل الأنبياء - عليهم السلام - مع حرصهم على إيمان أقوامهم، ولا بد لمحمد - صلى الله عليه وسلم - أن يتعلم من هذا الدرس، لئلا يهلك نفسه أسفاً على قومه بسبب كفرهم.

وتكاد جميع دوائر النص تتقاطع في منطقة بث الثقة في قلب النبي - صلى الله عليه وسلم - وتثبته أمام ما يلاقه في تبليغ الرسالة، ولذلك فإن شخصية النبي - صلى الله عليه وسلم - هي الشخصية المحورية في النص التي يعمل النص كله في كل اتجاهاته ليرتبط بها، وتكاد نشعر أن شخصية كل نبي في النص معادلة لشخصيته، وأن الرسالة دائماً واحدة، وأن قوم كل منهم لا يختلفون عن قومه، وأن الردّ بالإنكار والتكذيب - من أكثرهم - واحد لا يتغير، بل إن أقوالهم تتطابق؛ ولذلك كانت كل قصة من قصص الأنبياء - عليهم السلام - مع أقوامهم تنتهي بما

(١) انظر: خلف الله، محمد، الفن القصصي في القرآن الكريم، سينا للنشر ومؤسسة الانتشار العربي، ط٤، بيروت، ١٩٩٩، ص ٢١٥.

يربطها بمقصد النص كله (الرسول محمد) " إن في ذلك لآية، وما كان أكثرهم مؤمنين، وإن ربك لهو

العزیز الرحيم".^(١) (الشعراء : ٩) .

والنص وهو يركز على شخصية النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - ومعالجة الحالة النفسية التي يعيشها بسبب عدم إيمان قومه، يركز على تصوير الطرف الآخر المعنى بالرسالة، وهم قومه الذين كذبوه كما كذب أقوام قبلهم أنبياءهم مع الآيات الكثيرة. ونلاحظ الاتساق الدقيق في رسم هذه الصورة المتكاملة:

"لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين".

"إن في ذلك لآية، وما كان أكثرهم مؤمنين".

وتمثل كل من شخصية النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - وشخصية قومه العناصر

الأساسية الخارجية التي تعود إليها وترتبط بها جميع العناصر الاتساقية في هذا المقطع:

- النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - : لعلك / باخع / نفسك / ربك.
- قومه (أهل مكة): يكونوا / مؤمنين / عليهم / أعناقهم / خاضعين / معرضين / كذبوا / فسأيتهم / يستهزئون / يروا / أكثرهم / مؤمنين.

القسم الثاني: ويتضمن المقاطع من الثاني إلى نهاية الثامن حيث يمثل كل مقطع قصة

جدل نبي مع قومه، ويظهر كل منها في مشهد محدد البداية والنهاية، فيغلق كل مشهد ليبدأ آخر

بنص يتكرر في نهاية كل مقطع:

(١) وردت هاتان الأيتان - معاً - في ثمانية مواضع في النص: سورة الشعراء، الآيات: ٩، ٦٨، ١٠٤، ١٢٢،

١٤٠، ١٥٩، ١٧٥، ١٩١.

" إن في ذلك لآية، وما كان أكثرهم مؤمنين، وإن ربك لهو العزيز الرحيم".

١. المقطع الأول: قصة موسى - عليه السلام - وجدله مع فرعون وقومه، وتبدأ

القصة بما يؤكد اتصالها بمقصد السورة الأول وهو شخصية النبي - صلى الله عليه وسلم -:
وإذا نادى ربك موسى....".

إذ هو المعنى الأول بالخطاب وجاء الجواب من موسى - عليه السلام - : "رب إني أخاف أن يكذبون...." ويكاد هذا القول أو الدعاء الموجه من موسى - عليه السلام - إلى ربه لا يختلف عن توجه محمد - عليه الصلاة والسلام - إلى ربه " يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا " [الفرقان: ٣٠]. وذلك حين برز له الأعداء الذين كانوا يسخرون منه: "وَأِذَا رَأَوْكَ إِذْ

تَسْجُدُونَكَ إِلَّا هُرُورًا هَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا * إِنَّ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ الْهَيْتَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا" [الفرقان: ٤١-٤٢]. ولكن الله يريد من نبيه أن يعلم أنه ليس وكيلاً على الكافرين، وإنما هو مبلغ للرسالة التي يحملها "أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا" [الفرقان: ٤٣] ، وأن المجرمين لا يؤمنون حتى يروا العذاب: "كَذَلِكَ سَأَلْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَأَيُّؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ". [الشعراء: ٢٠٠-٢٠١].

ومن حيث التركيب يرتبط المقطع بالمقطع السابق بالواو : "وإذا" ، فيكون التقدير: أو لم يروا إلى الأرض....؟ وإذا نادى ربك موسى؟ ، ذكره البقاعي وقال: "وعدوا رائين لذلك لأن اليهود في بلادهم وفي حد القرب منهم، فإما أن يكونوا عالمين بالقصة بما سمعوه منهم، أو متهيئين لذلك لإمكانهم من سؤالهم^(١)".

أما أهم القضايا التي تعيننا في هذا المقطع فنلخصها بما يلي:

(١) نظم الدرر، ج٥، ص ٣٥٠.

١. التماسك النصي بين المقطع والجزء السابق من النص المتضمن محور النص الأساسي، وكذلك تقديم قصة موسى - عليه السلام - معادلاً لقصة النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - مع قومه إذ التشابه بين القصتين كبير، وذلك فيما قاساه موسى - عليه السلام - من الأذى والتكذيب من فرعون وملئه، وقد أشار البقاعي إلى هذا الاتصال بين القصتين والى أن قصة موسى - عليه السلام - تقترب من تجربة النبي محمد - عليه الصلاة والسلام - لما فيها من المشاركة في الهجرة، والقصد إلى الأرض المقدسة، واختصاص موسى - عليه السلام - بالكتاب الذي ما بعد القرآن مثله، والآيات التي ما أتى بمثلها أحد قبله، وإقرار عينه بهداية قومه، وحفظهم بعده بالكتاب، وعدم استئصالهم بالعذاب والانتقام^(١).

ولعل هذا التشابه بين القصتين لا يفسر مجيء قصة موسى - عليه السلام - معادلاً موضوعياً لما يلاقيه الرسول محمد - عليه السلام - في تبليغ الرسالة فحسب، وإنما قد يفسر إيراد القصة أولاً قبل قصص الأنبياء الذين جازوا قبله ومنهم إبراهيم - عليه السلام -، فالترتيب التاريخي غير مقصود هنا، وإنما الموجه تقديم كل ما هو أقرب لخدمة موضوع النص الأساسي أو ما سميناه بؤرة النص.

٢. البناء الداخلي للنص والتماسك بين أجزائه من خلال قوانين الربط، والعلاقات المعجمية، وقانون الاختزال. وأهم ما نلاحظه بالنسبة للربط بين جمل النص أو أجزائه، أن أهم أداة رابطة هي أدوار المتكلمين في الحوار التي تربط نصوص المتكلمين بعضها ببعض لتكون البناء الخارجي للحوار، بحيث يمكن عدّ الفعل (قال) أداة ربط ظاهرة تشير إلى تبادل الكلام بين أطراف الحوار، وكأنها جواب عن سؤال مقدر يتوقع الناص قيامه في ذهن المتلقي.

قال فرعون: وما رب العالمين؟

سؤال مقدر: (فماذا قال موسى؟)

جواب ← قال: رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين.

(١) نظم الدرر، ج ٥، ص ٣٥٠.

شبكة العلاقات وبؤرة النص

ويعد مشهد الحوار الجدلي بين موسى - عليه السلام - وفرعون وملئه نموذجاً واضحاً لأسلوب الجدل كما يقدمه القرآن. وسنحاول تحليل علاقات التماسك النصي داخل بناء القصة للوقوف على مدى توظيف الخطاب القرآني لآليات التماسك والانسجام في شكل من أشكاله، وهو الجدل.

وتحقيقاً لهذه الغاية فإننا سندرس شبكة العلاقات بين هذا المقطع والمقطع السابق، وكذلك شبكة العلاقات الداخلية بين كل مقطع، وسنعمد في تحليل علاقات الاتساق والانسجام على مساهماته في كلامنا على أدوات التماسك النصي. أما النص الذي اخترناه نموذجاً للتحليل فقد تم تقسيمه إلى جمل نصية، وأعطيت الجمل أرقاماً متسلسلة^(١) وذلك كما يلي:

- (١) " طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ "
- (٢) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ . (٣) إِنْ شَأْنُنَا نَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً ،
- (٤) فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ . (٥) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَانِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ؛
- (٦) فَقَدْ كَذَّبُوا ؛ (٧) فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ .
- (٨) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ بَدَأْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ؟ !
- (٩) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ ، (١٠) وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . (١١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ .
- (١٢) وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَنْتِ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ (١٣) أَلَا يَتُوعُونَ ؟

(١) أخذنا في هذا التحليل بالطريقة التي اتبعها محمد الخطابي في تحليله قصيدة أدونيس: فارس الكلمات الغربية، انظر: الخطابي، لسانيات النص، ص ٢١٣ وما بعدها.

(١٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِي . (١٥) وَيَضِيقُ صَدْرِي . (١٦) وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي؛ (١٧)

فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ . (١٨) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ ؛ (١٩) فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِي .

(٢٠) قَالَ : كَلَّا ... ؛ (٢١) فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا ؛ (٢٢) إِنَّمَا مَعَكُمْ مُسْمِعُونَ ؛ (٢٣) فَأْتِيَا

فِرْعَوْنَ ؛ (٢٤) فَقَوْلًا : إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ . (٢٥) قَالَ :

أَلَمْ تَرْبِكُنِي فِينَا وَلَيْدًا ؟ !! (٢٦) وَلَيْسَتْ فِينَا مِنْ عُمَرِكَ سِينِينَ . (٢٧) وَفَعَلْتَ فَعَلَكَ إِلَهِي فَعَلْتَ

وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ . (٢٨)

قَالَ : فَعَلْتَهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ، (٢٩) فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْكُمْ ، (٣٠) فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا

، (٣١) وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ . (٣٢) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ بِنُحَّا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ؟ !

(٣٣) قَالَ فِرْعَوْنُ : وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟

(٣٤) قَالَ : رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ .

قَالَ لِمَنْ حَوَّلَهُ : أَلَا تَسْمِعُونَ ؟ !

قَالَ : رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ .

قَالَ : إِنْ رَسُوكُمْ الَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونًا .

قَالَ : رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ .

قَالَ : لَنْ أُنَاقِدَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُودِينَ .

قَالَ : أَوَلَوْ حَسِبْتَ شَيْئًا مُبِينًا ؟

قَالَ : فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ .

"(٤٢) فَأَتَى عَصَاهُ ، فَإِذَا هِيَ تَعْبَانُ مُيِّنٌ . (٤٣) وَزَعَّ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاطِرِينَ ؟"

(٤٤) قَالَ لِلْعَلَاءِ حَوْلَهُ : إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ : (٤٥)

فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ؟

(٤٦) قَالُوا : أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ، (٤٧) وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَا تُوكَّ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ .

"(٤٨) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ . (٤٩) وَقِيلَ لِلنَّاسِ : هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ لَعَلْنَا نَسْمَعُ

السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْعَالِينَ . "

(٥٠) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ : أَئِنَّا لَنَا أَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْعَالِينَ ؟

(٥١) قَالَ : نَعَمْ ، وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ .

قَالَ لَهُمْ مُوسَى : أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ .

"(٥٤) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا : بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْعَالِيُونَ .

فَأَتَى مُوسَى عَصَاهُ ، (٥٦) فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ . (٥٧) فَأَتَى السَّحَرَةَ سَاجِدِينَ .

(٥٨) قَالُوا : آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ .

(٥٩) قَالَ : آمَنَّا لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ؟ / (٦٠) إِنِّي لَكَيْدٌ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ . (٦١)

فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ . (٦٢) لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ، (٦٣) وَلَا صَلْبَتِكُمْ أَجْمَعِينَ .

(٦٤) قَالُوا : لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ . (٦٥) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ

الْمُؤْمِنِينَ .

” (٦٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِلَيْكُمْ مَسْبُوعِينَ . ”

” (٦٧) فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ . (٦٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ . (٦٩) وَإِنَّهُمْ لَنَا

لِعَانِطُونَ . (٧٠) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ .

” (٧١) فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ . (٧٢) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي

إِسْرَائِيلَ . ”

(٧٣) فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (٧٤) فَلَمَّا تَرَأَى الْجُمُعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى : إِنَّا لَمُدْرِكُونَ .

(٧٥) قَالَ : كَلَّا ... (٧٦) إِنَّ مَعِيَ رَبِّي . (٧٧) سَيَهْدِينِي .

” (٧٨) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ . (٧٩) ... فَاثْقَلْ . (٨٠) فَكَانَ كُلُّ

فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ . (٨١) وَأَرْزَلْنَا تَمَّ الْآخِرِينَ . (٨٢) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ .

(٨٣) تَمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ . ”

(٨٤) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً . (٨٥) وَمَا كَانَ أَكْثَرَهُمْ مُؤْمِنِينَ . (٨٦) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ .

[الشعراء: ٦٨-١].

وبتتبع شبكة العلاقات الرابطة بين جمل النص، نستطيع تفريغ النتائج في الجدول التالي الذي يتضمن جميع أشكال الربط النحوي والمعجمي في النص هدف الدراسة، وكما هو واضح في الجدول فإن المعلومات التي بني عليها تتضمن رقم الجملة، والعنصر اللغوي الاتساق، ونوعه، والمسافة الفاصلة بين العنصر الاتساق والعنصر الذي يحيل إليه في موضع آخر في النص، ثم إيراد العنصر الافتراضي أو المحال إليه.

العنصر الافتراضي (المحال إليه)	المسافة الفاصلة بين العنصر الاتساق والعنصر المحال إليه	نوعه	العنصر اللغوي الاتساق	عدد الروابط في الجملة	رقم الجملة في النص
آيات الكتاب المبين	٠	إحالة إشارية بعدية	تلك	١	١
أنت / محمد - عنه السلام -	٠	إحالة ضميرية (خارجية)	لعلك (أنت)	٤	٢
أنت / محمد - عنه السلام	٠	إحالة ضميرية	باخع (أنت)		
أنت / محمد - عليه السلام -	٠	إحالة ضميرية	نفسك (أنت)		
أهل مكة / قريش	٠	إحالة ضميرية	يكونوا (هم)		
نحن (الله) الناصر	٠	إحالة خارجية	نشأ	٣	٣
نحن (الله) الناصر	٠	إحالة خارجية	ننزل		
أهل مكة / قريش	٠	إحالة ضميرية	عليهم		
أهل مكة/قريش	٠	ربط سببي	ف	٤	٤
تنزل	٠	إحالة ضميرية	أعناقهم		
الآية	٠	إحالة ضميرية	لها		

أهل مكة / قريش	١	إحالة ضميرية	خاضعين		
أهل مكة / قريش	٢	إحالة ضميرية	بأيّتهم	٥	٥
الله / الناصن	١	انساق معجمي (نحن)	الرحمن		
أهل مكة / قريش	٢	إحالة ضميرية	كانوا		
الذكر	٠	إحالة ضميرية	عنه		
لم يؤمنوا (ألا يكونوا مؤمنين)	٢	انساق معجمي	معرضين		
كانوا عنه معرضين	٠	ربط سببي	ف	٢	٦
أعرضوا (كانوا معرضين)	٠	انساق معجمي	كذبوا		
كذبوا	٠	ربط سببي	ف	٣	٧
أهل مكة / قريش	٤	إحالة ضميرية	سيأيتهم (هم)		
لا يؤمنون / يعرضون / يكذبون	٤ ١ ٠	انساق معجمي	يستهنون		
أهل مكة / قريش	٥	إحالة ضميرية	يروا (هم)	٣	٨
الله (نحن) / الناصن	٤	إحالة ضميرية	أنبتنا (نحن)		
الأرض	٠	إحالة ضميرية	فيها		
الإنبات	٠	إحالة إشارية	ذلك	٢	٩
الآية	٥	انساق معجمي	لآية		
إن في ذلك لآية	٠	عطف (عكسي)	و	٣	١٠
الناس أو أهل مكة جميعاً	٧	مقارنة	أكثرهم		
الناس أو أهل مكة جميعاً	٧	إحالة ضميرية			

ألا يكونوا مؤمنين	٧	اتساق معجمي	ما كان أكثرهم مؤمنين		
ما كان أكثرهم مؤمنين	٠	عطف (إضافي)	و	٤	١١
نحن / الرحمن	٥/٨	اتساق معجمي	ربك: رب +		
أنت / محمد	٨	إحالة ضميرية	الكاف (أنت)		
ربك	٠	إحالة ضميرية	هو		
أو لم يروا ...	٣	عطف (إضافي)	و	٣	١٢
ربك	٣	اتساق معجمي (تكرير)	ربك		
موسى	٠	إحالة ضميرية	أنت (أنت)		
قوم فرعون	٠	إحالة ضميرية	يتقون (هم)	٢	١٣
الظالمون	٠	اتساق معجمي (مطابقة)	يتقون		
موسى	١	إحالة ضميرية	قال (هو)	٢	١٤
قوم فرعون	١	إحالة ضميرية	يكذبون (هم)		
أخاف	٠	عطف (إضافي)	و	١	١٥
بضيق صدري	٠	عطف (إضافي)	و	١	١٦
لا ينطق لساني	٠	عطف (سببي)	ف	١	١٧
لا ينطق لساني	١	عطف (إضافي)	و	٢	١٨
قوم فرعون	٤	إحالة ضميرية	لهم		
لهم عليّ ذنب	٠	عطف (سببي)	ف	٢	١٩
قوم فرعون	٥	إحالة ضميرية	يقتلون		
لهم عليّ ذنب	٠	علاقة منطقية (سبب - نتيجة)			
ربك	٦	إحالة ضميرية	قال (هو)	١	٢٠

(لن يقتلوك / لا تخف من القتل) عنصر محذوف من النص	٠	عطف (سببي)	فـ	٢	٢١
موسى وهارون	٣٠٨	إحالة ضميرية	أذهب		
الله / ربك	٠	إحالة ضميرية	إنّا	٢	٢٢
موسى وهارون	٠	إحالة ضميرية	معكم (أنتم)		
أذهب	١	عطف وترتيب	فـ	٢	٢٣
انتـ	١٠	اتساق معجمي (تكرير)	انتبأ		
انتبأ		عطف سببي	فـ	١	٢٤
(فأتبأ فرعون)	١	حذف اتساق	فأتبأ فرعون		١٢٥
فقولاً: إنّا رسول رب العالمين أن أرسل معنا بني إسرائيل	٠	حذف اتساق	فقالوا: إنّا رسول رب العالمين، أن أرسل معنا بني إسرائيل		٢٥٥
ألم نربك...؟	٠	عطف (إضافي)	و	٣	٢٦
فبنا	٠	اتساق معجمي (تكرير)	فبنا		
وليداً	٠	اتساق معجمي (تضام اشتراك في الحقل الدلالي)	(من عمرك سنين)		
لبثت	٠	عطف إضافي + ترتيب	و	٢	٢٧
الذنب	٨	استبدال	فعلتك		
فعلت	٠	اتساق معجمي	فعلتها	٣	٢٨
فعلتك = الذنب	٠	إحالة ضميرية	... ها (هي)		

انكافرين	٠	اتساق معجمي (ترادف)	الضالين		
فعلتُها	٠	عطف (سببي)	فـ	١	٢٩
فرتُ	٠	عطف (سببي)	فـ	١	٣٠
وهب	٠	عطف (إضافي)	و	١	٣١
النص: (فعلتُها المرسلين) * ألم نريك فينا وليداً	٣	عطف (إضافي) * استئناف	و		٣٢
أن عتدت بني إسرائيل	٦	إحالة إشارية (بعدية)	تلك		
ألم نريك ؟	٦	تضام/ اتساق معجمي (حقل دلالي واحد)	عتدت		
موسى : (ألم نريك؟)	٦	اتساق معجمي كل - جزء	بني إسرائيل		
إنا رسول رب العالمين	٨	عطف (إضافي)	و	١	٣٣
رب العالمين	٠	اتساق معجمي (كل - جزء)	(رب السماوات والأرض وما بينهما)	١	٣٤
فرعون ومن حوله	٠	إحالة ضميرية (مقامية)	ربكم	٢	٣٦
رب العالمين	٢	اتساق معجمي كل - جزء	ربكم ورب آبائكم		
رسولكم الذي أرسل إليكم	٠	اتساق معجمي (المخالفة)	مجنون	١	٣٧

رب العالمين	٤	اتساق معجمي كل - جزء	رب المشرق والمغرب وما بينهما	٢	٣٨
مجنون	٠	اتساق معجمي (تضام / حقل دلالي واحد)	تعقلون		
لأجعلنك من المسجونين	٠	حذف اتساق	(تفعل ذلك / تجعلني من المسجونين)	٣	٤٠
أذهباً بـ	١٧	اتساق معجمي (مطابقة)	جنتك بـ		
الآيات (بآياتنا)	١٧	اتساق معجمي (مرادف)	شيء مبين		
جنت بـ	٠	اتساق معجمي (مرادف)	أنت به	٢	٤١
قال: فأنت به	٠	عطف (سببي)	فـ	٢	٤٢
العصا	٠	إحالة ضميرية	هي		
ألقى	٠	عطف (إضافي)	و	٢	٤٣
يده	٠	إحالة ضميرية	هي		
إن هذا لساحر يريد أن يخرجكم	٠	عطف (سببي)	فـ	١	٤٥
أرجه	٠	عطف (إضافي)	و	١	٤٧
ابعث ... بأتوك	٠	عطف (سببي)	فـ	٢	٤٨
كل سحر عظيم	٠	اتساق معجمي (تكرار)	السحرة		
جمع	٠	عطف (إضافي)	و	١	٤٩
قيل	٠	عطف (تعقيب)	فـ	١	٥٠

عنصر محذوف: (إن لكم لأجراً إن كنتم أنتم الغالبين)	٠	عطف (إضافي)	و	٢	٥٢
إذا كنتم انتم الغالبين	٠	استبدال	إذا		
قال ... ألقوا	٠	عطف (سببي)	فـ	٢	٥٤
نحن الغالبين	٣	اتساق معجمي (تكرير)	نحن الغالبون		
ألقوا	٠	عطف (سببي)	فـ	٢	٥٥
عصاه	١٥	اتساق معجمي (تكرير)	عصاه		
ألقى	٠	عطف (سببي)	فـ	١	٥٦
إذا هي تلقف...	٠	عطف (سببي)	فـ	١	٥٧
موسى	٠	إحالة ضميرية	له	١	٥٩
موسى	١	إحالة ضميرية	إنه	١	٦٠
أمنتم له	١	عطف (سببي)	فـ	١	٦١
لاقطعن	٠	عطف إضافي	و	١	٦٣
رب العالمين، رب موسى وهارون	٥	اتساق معجمي (تكرير)	ربنا	١	٦٤
ربنا	٠	اتساق معجمي (تكرير)	ربنا	١	٦٥
قال كلا فاذهبا...	٤٥	عطف (إضافي)	و	١	٦٦
فأسر بعبادي	٠	حذف اتساق	(فأسرى بهم)		
أسرى موسى بهم	٠	عطف (سببي)	فـ	١	٦٧
موسى ومن معه	٠	إحالة إشارية مقامية	هؤلاء	١	٦٨
إن هؤلاء لشرذمة	٠	عطف (إضافي)	و	٢	٦٩
موسى ومن معه	١	إحالة ضميرية	إنهم		

(نحن) فرعون وقومه	١	إحالة ضميرية	لنا		
إنهم لنا لغائطون		عطف (إضافي)	و	١	٧٠
(أطاعوه) / محذوف	٠	عطف (سببي)	فـ	٤	٧١
قوم فرعون	٣	إحالة ضميرية	أخرجناهم		
إخراج قوم فرعون	٠	مقارنة	كـ		
الإخراج الموصوف	٠	إحالة إشارية	ذلك		
أخرجناهم	٠	عطف (إضافي)	و	٣	٧٢
الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم / أو النعم / أو الأرض (أجزاء - كل) أو المدائن	٤/١	إحالة ضميرية	أورثناها		
أخرجناهم من النعم	٠	علاقة منطقية (سبب - نتيجة)			
أخرجناهم	١	عطف (سببي)	فـ	٤	٧٣
قوم فرعون	٥	إحالة ضميرية	اتبعوا (هم)		
موسى وأصحابه	٦	إحالة ضميرية	أتبعوهم		
أسر / فأسرى	٦	اتساق معجمي	مشرقين		
اتبعوهم	٠	عطف (سببي)	فـ	٢	٧٤
اتبعوهم : الاتباع - إدراك	٠	اتساق معجمي سبب - نتيجة	مدركون		
كَلَا	٥٤	اتساق معجمي (تكرير)	كلا	١	٧٥
لن يدركونا أو لسنا مدركين (محذوف)	٠	ربط لبيان السبب	إن	٢	٧٦

أنا معكم مستمعون	٥٢	اتساق معجمي (تكرير)	معي		
سبيدين	٠	عطف (سببي)	فـ	٣	٧٨
أوحينا	١١	اتساق معجمي (تكرير)	أوحينا		
عصاه	٢٢	اتساق معجمي (تكرير)	عصاك		
ضرب موسى بعصاه البحر (محدوف)	٠	عطف (سببي)	فـ	١	٧٩
انفلق	٠	عطف (سببي)	فـ	١	٨٠
أوحينا	٢	عطف (إضافي)	و	٣	٨١
حيث انفلق البحر	٠	إحالة إشارية	ثم		
موسى ومن معه (مخالفة)	٢	مقارنة	الآخرين		
أزلفنا	٠	عطف (إضافي)	و	١	٨٢
أنجينا	٠	عطف (إضافي) + مهلة	ثم	٢	٨٣
الآخرين	١	اتساق معجمي (تكرير)	الآخرين		
أنجينا	٠	اتساق معجمي (مخالفة)	أغرقنا		
قصة موسى: الآيات، إهلاك قوم فرعون		إحالة إشارية (إلى نص)	ذلك	١	٨٤
لئن في ذلك لآية	٠	عطف (عكسي)	و	٣	٨٥

١. قوم موسى أو الناس	٠	إحالة ضميرية	أكثرهم		
٢. عموماً أو					
٣. أهل مكة					
مؤمنين	٨٢	اتساق معجمي (تكرير)	مؤمنين*		
ما كان أكثرهم مؤمنين	٠	عطف (إضافي)	و	٣	٨٦
ربك	٧٦	اتساق معجمي (تكرير)	ربك		
ربك	٠	إحالة ضميرية	هو		

تكشف لنا شبكة العلاقات السابقة أهم الوسائل التي تجعل النص متسقاً خطياً، ومترابط الأجزاء، ولإيجاز نناقش أهم القضايا أو التساؤلات التي يمكن التعليق عليها أو طرحها بناء على هذه الشبكة، وذلك في النقاط التالية:

١. إن تحليل علاقات الاتساق أو وصف الكيفية التي يتسق بها النص ويترابط، ينظر إليه بوصفه وسيلة تحقق غاية، لا غاية في ذاته. ويمكن استثمار هذه الوسيلة في أنشطة عملية في سياق التعامل مع النص إنتاجاً وتحليلاً؛ فقد يفيد منها العاملون في مجال تعليم كتابة النصوص أو تحليلها، وقد تكون ذات وظيفة مهمة في سياق التحليل الآلي للنص بالحاسوب أو مجال الذكاء الاصطناعي، زيادة على أهميتها في سياق الدراسات الأسلوبية^(١) وبخاصة في المجال الإحصائي منها.

٢. رغم أهمية التعامل الخطي في مستوى الجمل والامتاليات ورصد علاقات الترابط بينها بوصفها منظومة خطية، فإن الأهم استثمار نتائج هذه الشبكة في فهم ترابط المقاطع في النص أو ما يسمى بالمستوى العمودي في النص، وهذا يؤدي بنا إلى تجاوز مسألة الاتساق

(١) الخطابي، لسانيات النص، ص ٢٢٥.

الظاهرة على سطح النص إلى كيفية انسجام العناصر المترابطة فيه، وذلك بتحليل علاقات الترابط بين العناصر (العنصر الاتساقى والعنصر الافتراضى (المحال إليه) في إبطار سياق النص الكلى.

٣. فيما يتعلق بالاتساق المعجمى، تجب الإشارة إلى أنه على الرغم من أهمية الدلالات المعجمية للعناصر اللغوية ضمن علاقات الاتساق المعجمى؛ فإن المعتمد الأول فى تصنيف هذه العناصر يجب أن يكون الدلالة السياقية، لأن السياق هو الذى يحدّد الدلالة أو يوجهها أو يوسعها أو يضيقها... إلخ. ففي النص نحن لا نتعامل مع كلمات مفردة معزولة عن سياقها لنكتفى بمعناها المعجمى، هذا على افتراض أن الأخير لم يتعدد.

٤. تغفل شبكة العلاقات السابقة علاقات مهمة جداً فى التماسك النصي ضمن المستوى النحوي ومنها:

- علاقات الربط المباشر بين الجمل، أي الربط بغير أداة، وذلك لاعتمادها أدوات الربط (العطف) وعناصر الإحالة أساساً للربط النحوي، فهي تعنى بالعناصر الرابطة الظاهرة فعلياً فى النص، ولا تهتم بالعناصر غير الظاهرة كالدور فى الحوار مثلاً.
- تبدو الشبكة عاجزة عن توضيح آلية الربط فى علاقة الإحالة المقامية (إلى خارج النص)؛ إذ المرجع ليس عنصراً لغوياً نصياً متضمناً فى جملة من جمل النص.

٥. أهم ما يعيننا فى الشبكة الطريقة التي تربط بها العلاقات الاتساقية الجمل النصية المتباعدة فى النص، لأنها توضح كيفية بناء النص وآلية الترابط بين أجزاء النص التي تفصل بينها مسافات بعيدة، ومحور النص الأساسى الذى يعد النص كله توسيعاً له.

فلو نظرنا مثلاً إلى الجملتين (٧٥، ٧٦): "كلاً. إن معى ربي سيهدين"، لاتضح دور الاتساق المعجمى بتكرير لفظ (كلاً) الذى ورد فى جملة (٢٠) من النص، ولفظ (مع) الذى ورد فى جملة (٢٢) من النص.

قال (الله): كلاً. فاذهباً بأياتنا. إنا معكم مستمعون. (ج ٢٠-ج ٢٢).

قال (موسى): كَلَّا. إِنَّ مَعِيَ رَبِّي. سيهدين. (ج ٧٥ - ج ٧٧).

فقد أسهم هذا الربط في بناء النص وانسجامه. وأهم من ذلك - في رأيي - وظيفة الاتساق الدلالية؛ وهي تقديم صورة الرسول الذي ينطق باسم المرسل ويتكلم بلسانه، بل يستخدم ألفاظه، وقبل ذلك وبعده، الم مطمئن إلى ربه الوثائق بنصره خلافاً للمعطيات المادية التي أمامه، فربه الذي صنعه على عينه ودرّبه، لم يخذله في جميع التجارب السابقة التي مرّ بها، ولن يخذله هنا وإن يكن محصوراً بين البحر وجيوش فرعون. ولذلك كانت الاستجابة من ربه الذي يسمعه مباشرة: "فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر" ارتبطت الاستجابة بجملة موسى بالفساء الدالة على اختزال الزمن، "فانفلق" البحر.

وهذا النص يكشف لنا عن سرعة تعامل الرسول ودقة استجابته لخطاب المرسل (الله)؛ بأن حذف الجملة الدالة على ذلك ودلّ عليها بإيراد أثرها وهو انفلاق البحر، فأفاد الحذف اتساقاً وانسجاماً.

ومن الأمثلة الأخرى على أهمية دور علاقات الاتساق في بناء النص عندما تكون الجمل المترابطة متباعدة، التركيز على مسألة عدم إيمان المقصودين بالرسالة، وهي قضية أساسية في نص سورة الشعراء يرتبط بها محوره الأساسي؛ فبعد أن ركز المقطع الأول على هذه المسألة التي كادت تجعل الرسول محمداً - صلى الله عليه وسلم - يهلك نفسه، عاد النص ليؤكد لها بعد قصة موسى - عليه السلام -:

القسم الأول:

- لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين (ج ٢).
- وما يأتهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين (ج ٥).
- فقد كذبوا (ج ٦).
- فسياأتهم أنباء ما كانوا يستهزئون (ج ٧).
- وما كان أكثرهم مؤمنين (ج ١٠).

في قصة موسى - عليه السلام -:

- قال (موسى): رب إني أخاف أن يكذبون (ج ١٤).
- قال (فرعون): فأت بها إن كنت من الصادقين (ج ٤١).

بعد القصة:

- إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين (ج ٨٥).

فهذا التكرير يسهم في ربط أجزاء النص بعضها ببعض، ويذكر أو يجدد التكرير بالمسألة

الأولى في النص مراعاة للحالة النفسية التي يعيشها الرسول - صلى الله عليه وسلم -، فتقرّ نفسه ويطمئن، ويستمر في تبليغ الرسالة.

ويعود النص بعد ذلك ليؤكد أن المقصود الأول بالخطاب إنما هو الرسول محمد - عليه

الصلاة والسلام - حين يختم قصة موسى - عليه الصلاة والسلام - بـ: "وإن ربك لهو العزيز

الرحيم"، أي أن ربك الذي أحسن إليك وخصك بحمل الرسالة هو العزيز القادر على كل شيء،

الرحيم بك وعباده، فلا تهلك نفسك ألم يؤمنوا، وقد رأيت ما جاء به موسى من الآيات المبيّنة

لفرعون وقومه، وما كان أكثرهم مؤمنين.

ويشكل تكرير الجملتين: "إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين". "وإن ربك هو العزيز

الرحيم" أبرز مظهر من مظاهر الاتساق في النص، فيربط بين مقاطع النص جميعها، ويربط هذه

المقاطع ببؤرة النص أو مقصده الأول، بحيث يتضح من توجيه الخطاب إلى الرسول - صلى

الله عليه وسلم - بعد كل قصة أن النص قائم أولاً ليعالج الحالة التي يمر بها، ولذلك - أيضاً -

يعود النص في نهاية القصص ليعزز موقف الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويقوي ثقته

بالرسالة التي يحملها، ويؤكد أن القرآن نزل على قلبه ليكون منذراً.

"وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ

مبين". [الشعراء: ١٩٢-١٩٥].

ويكرر توجيه الخطاب المباشر إليه لينذر قومه ويخفض جناحه لمن يتبعه، أما إن

عصوه فليتوكل على الله. وهنا يعيد الوصف ذاته الذي كرر في النص ثماني مرات "العزيز

الرحيم".

• وأنذر عشيرتك الأقربين.

• واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين.

• فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون.

• "وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ

إني بريء مما تعملون * وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ".

[الشعراء: ٢١٤-٢١٧].

فالجملة الأخيرة تضمنت الملجأ الذي ينبغي للنبي التوجه إليه إن كذب من قومه، وهو التوكل على العزيز الرحيم الذي تكررت الإشارة إليه بهاتين الصفتين بعد كل ذكرٍ لما أنزله الله من العذاب على مكذبي الرسل عليه السلام. وفي هذه الإشارة أكبر تسلية للنبي - عليه الصلاة والسلام - إذ إن ربه العزيز الرحيم معه كما كان مع إخوانه الأنبياء، وأنه قادر - إن شاء - على إنزال العذاب بالمكذبين ونصره ومن اتبعه من المؤمنين. وبذلك يسهم التكرير - بوصفه أداة اتساقٍ معجمي - في ربط آخر النص بأوله، ويخدم القضية الأساسية التي يقوم عليها النص.

القسم الثاني من النص - المقطع الثاني

نبدأ الحديث عن هذا المقطع الذي يمثل قصة إبراهيم - عليه السلام - وجداله مع أبيه وقومه، بكلام البقاعي المتضمن إشارة لطيفة لاتصال القصة بالتجربة التي يمر بها النبي محمد - صلى الله عليه وسلم -؛ يقول البقاعي: "ولما أتم سبحانه ما أراد من قصة موسى عليه السلام، اتبعه دلالة على رحيمته قصة إبراهيم عليه السلام لما تقدم أنه شاركه فيه مما يسلي عما وقع ذكره عنهم من التعنتات في الفرقان، ولما اختص به من مقارعة أبيه وقومه في الأوثان، وهو أعظم آباء العرب، ليكون ذلك حاملاً على تقليده في التوحيد إن كانوا لا ينفكون عن التقليد"^(١).

فهذه الإشارة إلى قصة إبراهيم تتضمن أمراً مهماً يواجه به الرسول - عليه الصلاة والسلام - أذى قومه وتكذيبهم وهم يعبدون الأوثان التي ورثوا عبادتها عن آبائهم، ويتمثل هذا الأمر في شخصية إبراهيم عليه السلام الذي يفخر العرب - ومنهم قوم محمد عليه الصلاة

(١) نظم الدرر، ج ٥، ص ٣٦٦.

والسلام – بالانتساب إليه، فقد سغه قومه وجادلهم في عبادتهم الأوثان، وكان موحدًا، فلم لا يقلده هؤلاء وهم يفتخرون بتقليدهم الآباء؟!.

أما اتصال المقطع بالنص قبله فتم بالواو عطفًا على (انكر) المقدره في (وإذ) ^(١)، فيكون بذلك عطف قصة على قصة: "وإذ نادى ربك موسى....." و"اتل عليهم نبأ إبراهيم".

كذلك فإن الإحالة الضميرية في (واتل عليهم) ربطت هذا الجزء من النص بالمقطع الأساسي في النص المتضمن مقصد السورة الأول وبورتها:

• "لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين. إن نشأ ننزل عليهم آية فظلت أعناقهم لها خاضعين".

فمحمد – عليه الصلاة والسلام – هو المقصود الأول بالخطاب، وهم – قومه – المقصودون بالرسالة.

غير أن في القصة إشارة إلى البشارة بالرفق بقوم النبي محمد صلى الله عليه وسلم – تسلياً له وإمهالاً لهم، تلكم هي خلوة القصة من ذكر الإهلاك خلافاً لجميع قصص الأنبياء في السورة، وقد أشار البقاعي إلى هذه المسألة – أيضاً – حين قال: "وأخلى قصة إبراهيم عليه السلام من ذكر الإهلاك إشارة إلى البشارة بالرفق بينه العرب في الإمهال كما رفق بهم في الإنزال والإرسال"^(٢). ولكن النص استبدل بذكر الإهلاك في الدنيا استحضار مشهد العذاب يوم القيامة حين يحشر المكذبون وأربابهم في الجحيم. وتم للمشهد ارتباطه بما قبله واتصاله بمحور النص بتكرير خاتمة كل قصة: "إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم".

(١) انظر: نظم الدرر، ج ٥، ص ٣٦٦.

(٢) المرجع السابق، ج ٥، ص ٣٥٠.

النسيج النصي بين المقاطع من الثالث - إلى نهاية الثامن

ويمكن مناقشة هذه المقاطع مجتمعة في مكان واحد، والمسوغ لذلك اتفاقها في الغرض الذي حُدد في أول النص وهو حرص النبي على هداية قومه مع موقفهم من اللدد والخصومة حتى ليبيخ نفسه، وخدمة لغرض النص ومقصده، تمضي المقاطع بما يتضمنه من مواقف الأنبياء المشابهة في عرض المشاهد التي تثبت النبي الداعية، وتبث الطمأنينة في قلبه، وتخفف عنه ما يحيط به من ضغط نفسي حين تمر أمامه تجارب إخوانه الرسل الذين كانوا حريصين - مثله - على هداية أقوامهم، وجاوزهم بالآيات البيّنات وما كان أكثرهم مؤمنين. وبهذا الاتفاق في خدمة مقصد النص الأول تحقق لهذه المقاطع وحدة موضوعية أو وحدة قصصية. واستثمرت اللغة لخدمة مقصد النص، فوحد بين القصص في هذه المقاطع في الإخراج، ورأينا اتفاقاً في البناء والتركيب، وتطابقاً في الأقوال والعبارات بين كل قصة وأخرى.

- * "كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا نِيَّ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا نِيَّ"
- الشعراء ١٠٥-١١٠
- "قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْهَ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ"
- الشعراء ١١٦
- "فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ * إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ"
- الشعراء ١١٩-١٢٢
- * "كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا نِيَّ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ"
- الشعراء ١٢٣-١٢٧

• "قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعظت أم لم تكن من الواعظين* إن هذا إلا خلق الأولين*
وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ* فَكذبوه فأهلكناهم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين* وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ"

الشعراء ١٣٦-١٤٠

• كَذَبَتْ تَمُودُ الْمُرْسَلِينَ* إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ* إِيَّايَ لَكُمْ رَسُولٌ
أَمِينٌ* فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا عَمْرِي* وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ"

الشعراء ١٤١-١٤٥

• "قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ* مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ
الصَّادِقِينَ"

الشعراء ١٥٣-١٥٤

• "فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنْ فِي ذَلِكَ لآية وما كان أكثرهم مؤمنين* وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ
الرَّحِيمُ"

الشعراء ١٥٨-١٥٩

• "كَذَبَتْ قَوْمٌ لوطِ الْمُرْسَلِينَ* إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ* إِيَّايَ لَكُمْ رَسُولٌ
أَمِينٌ* فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا عَمْرِي* وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ"

الشعراء ١٦٠-١٦٤

• "قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْهَ يَا لُوطُ لَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ"

الشعراء ١٦٧

• "وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ* إِنْ فِي ذَلِكَ لآية وما كان أكثرهم
مؤمنين* وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ"

الشعراء ١٧٣-١٧٥

• "كَذَبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ* إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ* إِيَّايَ لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ* فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا عَمْرِي* وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ"

الشعراء ١٧٦-١٨٠

• "قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ* وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَطْنُكَ لَئِن كُنَّا مِنَ الْكَاذِبِينَ"

الشعراء ١٨٥-١٨٦

• "فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظَّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً

وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ"

الشعراء ١٨٩-١٩١

فمع اختلاف عناصر البناء المتمثلة في الأحداث والشخصيات والحوارات بين كل قصة وأخرى، فإن القصص جميعاً تتفق في المطالع والخواتم ألفاظاً وتراكيب. كذلك فإن أسلوب استنكار الأنبياء أعمال أقوامهم في معظم القصص يظهر بشكل لغوي واحد:

• في قصة عاد: "أَتَّبِعُونَ كُلَّ رِيعٍ آيَةً يُعْبُونَ * وَتَّخَذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ

تُخَلَّدُونَ"

الشعراء ١٢٨-١٢٩

• في قصة ثمود: "أَتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِينَ * فِي جَنَاتٍ وَعَيْونَ * وَزُرُوعٍ

وَسَحْلِ طَلْعَهَا هَضِيمٍ * وَتَجِدُونَ مِنَ الْجِبَالِ لُبُوكًا فَارِهِينَ"

الشعراء ١٤٦-١٤٩

• في قصة قوم نوط: "أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ

رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ"

الشعراء ١٦٥-١٦٦

وكل هذا التوافق في الأسلوب والتركيب والبناء موظف لخدمة مقصد النص، فيشعر المتلقي أنه يتعامل مع قصة واحدة رغم اختلاف الأبطال والأحداث، والسر في ذلك انسجام الأسلوب القرآني مع نفسية النبي محمد - عليه الصلاة والسلام - وأن المقصد من القصص جميعها واحد.

ولعل هذا التوجيه يفسر ظاهرة الاختلاف في عرض القصة الواحدة أو الموقف الواحد باختلاف النص، بينما تتفق قصص مختلفة، في بنائها وتركيبها وألفاظها إن جمعها نص واحد. فكل قصة - حينئذ - تشكل جزءاً من نسيج النص الكلي، ولا بد من التماسق والانسجام بين أجزاء هذا النسيج. أما إن كان الموقف واحداً واختلف التعبير عنه من نص إلى آخر، فإنما ذلك بسبب من الانقياد إلى محور كل نص، والتعبير عن الموقف بما ينسجم مع النص. وعليه فإن القصص المختلفة في النص الواحد تظهر وكأنها قصة واحدة، في حين أن القصة الواحدة تعرض في كل

نص بما يناسبه. وليس معنى هذا أن القصة تختلف باختلاف موقعها في النصوص، ولا أننا نقول بتكرار القصة الواحدة في نصوص (سور) مختلفة، بل إن عرض القصة الواحدة في نصوص مختلفة يجعل منها في كل نص قصة بذاتها؛ فقصة موسى -مثلاً- مع فرعون في الشعراء غير قصته معه في طه أو في يونس أو في الأعراف، وإن كان الموقف واحداً، فهي في نص قصة، وفي نص آخر قصة أخرى، وهكذا، يأتي التعبير عن القصة الواحدة في كل نص بما يناسبه، وأعود فأذكر هنا أن الحديث يتعلق بتعدد صور عرض القصة الواحدة أو الموقف الواحد في سور مختلفة^(١)، وليس حديثنا هنا متعلقاً بمسألة توزيع أجزاء القصة على نصوص مختلفة في كل نص من القصص ما يناسبه، وإن كان كل جزء مختاراً يمثل بذاته قصة.

ومن المسائل المهمة المتصلة بربط هذه المقاطع بعضها ببعض، وربط كل منها بمحور النص، إيراد الإشارة إلى العلاقة التي تربط الرسول بقومه، وذلك في قوله في مطلع معظم القصص "كذبت..... المرسلين، إذ قال لهم أخوهم... ألا تتقون؟". وفي ذلك اتساق مع مقصد النص في تثبيت النبي - عليه الصلاة والسلام - وتسلية وهو يلقي ما يلقاه في دعوته من تكذيب عشيرته وبني قومه؛ فأخوانه من قبل كذلك كذبوا من أقوامهم فصبروا، فنصرهم الله عليهم. يضاف إلى ذلك اتحاد الإشارة إلى الرسول في جميع المقاطع بصيغة الجمع:

١. كذبت قوم نوح المرسلين.
٢. كذبت عاد المرسلين.
٣. كذبت ثمود المرسلين.
٤. كذبت قوم لوط المرسلين.
٥. كذب أصحاب الأيكة المرسلين.

(١) انظر مثلاً قصة ثمود في سورتي الشعراء والقمر: الشعراء (١٤١-١٥٩)، القمر (٢٣-٣٢). وقصة قوم لوط في هود (٧٧-٨٣)، والحجر (٦١-٧٥) والشعراء (١٦٠-١٧٥)، وأنظر قصة ثمود وقصة أصحاب الأيكة وقصة قوم لوط في سورة الشعراء.

فمع إمكانية القول بأن تكذيب واحد من الرسل تكذيب لجميع الرسل، إذ الرسالة واحدة، فإن الخروج من الأفراد إلى الجمع يتضمن وظيفة دلالية تخدم مقصد النص وتزيد من ثقة النبي - عليه الصلاة والسلام - بالرسالة، وتخفف الضغط النفسي الذي يتعرض له، وذلك أن كل قوم ممن ذكروا كذبوا المرسلين؛ فإذا كذب محمد من قومه، وهو واحد، فذاك أمرٌ حصل لكل إخوانه الرسل، فكأن الله يقول له: لا تهلكين نفسك بسبب عدم إيمانهم واصبر كما صبر إخوانك الرسل من قبل حين كذبوا رغم ما جاؤوا به من الآيات.

القسم الثالث (الأخير) - دوران النص

يعود النص في مقطعه الأخير ليرتبط بأوله باتساق دقيق، مركزاً على القضية المحورية في النص؛ فبعد الانتهاء من مقاطع قصص الأنبياء مع أقوامهم، ينعطف النص ليصل خيوطه بعضها ببعض متوسلاً بأدوات التماسك النصي التي ساهمت في الربط بين أجزاء النص المتباعدة.

ونشير هنا إلى أهم عناصر الربط اللغوية في هذا المقطع:

- ربط المقطع الأخير بالمقطع الأول بالواو بدليل الإحالة الضميرية: "وإنه لتنزيل رب العالمين".

حيث يحيل العنصر الاتساقى (الضمير) الهاء إلى الكتاب المبين أو الذكر الذي ورد في أول النص^(١)، وبذلك تربط الواو هذا الجزء من النص بأوله: "وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدثٍ إلا كانوا عنه معرضين، فقد كذبوا فسيأتهم أبناء ما كانوا يستهزئون" و "إنه لتنزيل رب العالمين"^(٢).

(١) ذهب الزمخشري إلى أن المقصود ما نزل من هذه القصص والآيات، الكشاف، ج٣، ص ٣٢٤.
(٢) اتفق في هذا الربط مع ما ذهب إليه البقاعي في نظم الدرر: ج٥، ص ٣٩١، وثمة تخريج آخر للعطف بالواو بأنها استئنافية والجملة بعدها مستأنفة مسوقة لتقرير حقيقة تلك القصص وتأكيد نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - والضمير يعود على القرآن لأن هذه القصص جزء منه. انظر: محيي الدين الدرويش، محيي الدين، إعراب القرآن الكريم وبيانه، اليمامة للطباعة والنشر، ط٥، دمشق، ١٩٩٦، مج٧، ص ١٣٧.

• تمثل الإحالة في هذا المقطع أهم مظهر من مظاهر اتساق النص وذلك لما تقوم به من ربط بين مكونات هذا المقطع والعناصر المحال إليها التي تمثل الأساس الذي قام عليه النص، وهذه العناصر هي: القرآن، والنبي محمد - صلى الله عليه وسلم - وأهل مكة أو قوم النبي المقصودون بالرسالة.

القرآن:

وإنه لتنزيل رب العالمين.
نزل به الروح الأمين.
وإنه لفي زبور الأولين.
أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل.
ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين.
لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم.
وما تنزلت به الشياطين.

النبي محمد:

على قلبك لتكون من المنذرين.
أفرأيت أن متعناهم سنين.
فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين.
وأندر عشيرتك الأقربين.
واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين.
فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون.
وتوكل على العزيز الرحيم.
الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين.

أهل مكة (المقصودون بالرسالة أولاً):

أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل.

ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين.

لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم.

فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون، فيقولوا: هل نحن منظرون؟

أفبعذابنا يستعجلون!؟

أفرايت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ، ما أغنى عنهم ما كانوا
يمتعون.

وأنذر عشيرتك الأقربين

فإن عصوك فقل: إني بري مما تعملون.

إن تتبع وظائف وسائل التماسك في النص يكشف عن الآليات التي تترابط بها أجزاءه؛
وكيفية اتصال كل جزء في النص - لغوياً - بالقضية التي ينطلق النص منها، ويتشكل في دوائر
تتقاطع متصلة بالقضية ذاتها. ويسهم الإمساك بالخیوط التي تنظم نسيج النص في تحليله قصد
فهمه وإدراك انسجامه، ويزودنا بأدوات تكشف علاقات الاتساق في مستوى التشكل الخطي
للنص، مما يمكن استثماره وتوظيفه في كل عملية تعاطٍ مع النص تحليلاً وإنتاجاً وتعليماً.

التوازي وتنامي النص

غير أن ثمة مظهراً مهماً - تحسن الإشارة إليه - يسهم في انسجام الخطاب، ولا يكفينا
تتبع الوسائل التي تجعل النص متسقاً خطياً في استجلاء ملامحه، ذلكم هو مظهر التوازي الذي
يعني تكرير بنية شكلية تملأ بعناصر جديدة، أو إعادة استعمال صيغ سطحية تملأ بتعابير

مختلفة^(١). ويسهم التوازي في انسجام الخطاب وترابطه من خلال استمرار بنية شكلية في جمل متعددة بحيث يصبح وسيلة أساسية في تشكل جمل النص على مستوى تركيبى أشمل^(٢).
وبتتبع جمل النص نرصد استثماراً لهذه الإمكانية في مناطق مختلفة منه نكتفي بذكر بعض الأمثلة عليها:

(١) إني أخاف أن يكذبون.

ولهم علي ذنب ؛

فأخاف أن يقتلون.

(٢) رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين.

رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون.

(٣) فألقى عصاه فإذا هي شعبان مبین.

ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين.

(٤) إن هؤلاء لشرذمة قليلون.

وإنهم لنا لغائظون.

وإننا لجميع حاذرون.

(٥) الذي خلقني فهو يهدين.

والذي هو يطعمني ويسقيني.

وإذا مرضت فهو يشفين.

والذي يمتني ثم يحيين.

والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين.

(١) انظر: الخطابي، لسانيات النص، ص ٢٢٩-٢٣٠.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٣٠.

(٦) وإنه لتنزيل رب العالمين.

وإنه لفي زبر الأولين.

وهذه الأمثلة يسهم التوازي فيها بالاتساق بين جمل النص في المقطع الواحد. أمّا وظيفة

التوازي في اتساق النص الكلي فتتمثل في إسهامه بربط مقاطع النص ببعضها، وربطها بمحور

النص. ومن أهم الأمثلة على هذا النوع من التوازي ما ورد في قصص الأنبياء من تكرير بنى

في سطح النص تملأ في كل مرة بعناصر جديدة:

كذبت قوم نوح المرسلين

كذبت عاد المرسلين.

كذبت ثمود المرسلين.

كذبت قوم لوط المرسلين.

كذب أصحاب الأيكة المرسلين.

حيث نجد تماثلاً في حجم البنى المتضمنة للجمل المتوازية، وهذه الدرجة من التوازي

يطلق عليها درجة (التوازي التام)^(١).

ومن الأمثلة الأخرى على دور التوازي في ربط مقاطع النص:

(١) انظر: الخطابي، لسانيات النص، ص ٢٣١. ويشير الخطابي إلى وظيفة مهمة للتوازي يمكن استنتاجها

في النصوص، وهي أنه يمنح فرصة لتنامي النص وذلك بإضافة عناصر جديدة للبنية المكررة في كل مرة،

انظر المرجع نفسه، ص ٢٣٠. ولمزيد فائدة وتفصيل حول التوازي ودوره في تشكيل النص، ينظر كتاب:

قضايا الشعرية لرومان ياكسون، ترجمة: محمد الوالي ومبارك حنون، دار توبقال للنشر، ط ١، المغرب،

١٩٨٨، ص ١٠٣-١١٠.

• أتبنون بكل ربيع آية تبعثون؟ وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون؟

أتركون في ما ها هنا آمنين؟ وتتحتون من الجبال بيوتاً فارهين؟

أتأتون الذكران أن على العالمين؟ وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم؟

وهذه الأمثلة تساعد في تصور أهمية التوازي في تحقيق الاتساق من خلال توظيف بنية

شكالية في عدة جمل في النص في المقطع الواحد أو بين المقاطع المكونة للنص.

التناسق الداخلي (قصة موسى نموذجاً)

تتعلق الفكرة المحورية لموضوع التناسق الداخلي في الخطاب القرآني من حقيقة كون

القرآن، بجميع نصوصه، نصاً واحداً أو كلاً واحداً. والتناسق - كما أشرنا في الكلام على مفهوم

النص - يُنظر إلى النص - من خلاله - على أنه محصلة تقاطع عدة نصوص تتراءى فيه

بمستويات مختلفة، فهو (أي التناسق) يتضمن العلاقات بين نص ما ونصوص أخرى مرتبطة به.

ولا بُد - في البدء - من توضيح مفهوم التناسق الداخلي الذي ستعتمده الدراسة أساساً

للتعامل مع نصوص من خطاب الجدل القرآني، وذلك بتحديد شكل التناسق أو مستواه الذي

ينطبق على هذه النصوص.

نقصد بالتناسق الداخلي في الخطاب القرآني ما يقع من تقاطع بين نصوص (سور)

مختلفة تعرض حدثاً واحداً، ولسنا معنيين - هنا - بالتناسق القرآني مع نصوص أخرى -

كالتوراة مثلاً - لأن الدراسة لا تسعى إلى المقارنة بين القرآن وغيره من النصوص من جهة

التناسق، إذ نكون - بذلك - قد تجاوزنا موضوعنا إلى غيره.

ويمكن أن نطلق على هذا الشكل من التناصّ القرآني الداخلي: التنويعات السياقية للخطاب، بحيث تُعرض الواقعة بأشكال مختلفة في سياقات مختلفة، وخاصة في الخطاب القرآني القصصي.

ومن المناسب أن نربط كلامنا على التناصّ بنصّ سورة الشعراء التي تصلح منطلقاً تطبيقياً لمناقشة هذه المسألة، إذ تكاد القصص التي وردت في السورة تتطابق في البناء والتركيب وحتى في الألفاظ لتخدم مقصد السورة الأول، بينما تعرض القصة الواحدة منها مختلفة في سورة أخرى، فنكون في كل مرة قصة جديدة.

ويمكن تحديد ما سنقوم به - هنا - في تحليل الخطاب القرآني من زاوية التناصّ بمحاولة الإجابة عن تساؤلات الآتية:

١. هل يمكن القول بأنّ ثمة تكريراً في الخطاب القرآني استناداً على القول بأن الواقعة الواحدة تعرض في مناطق متعددة من النصّ القرآني؟

٢. لماذا تعرض الواقعة الواحدة أو الموقف الواحد بأشكال مختلفة عندما ترد في أكثر من موضع في النصّ الكلي، بينما تكاد القصص المختلفة تتطابق إذا جمعها نصّ واحد؟ وللإجابة عن هذين التساؤلين اخترنا التعامل مع قصة موسى - عليه السلام - وتحديداً الجزء الذي يمثل مرحلة المواجهة مع فرعون وجنوده، بما يتضمنه من حوارات وجدل. ولعلّ أهم الأسباب في اختيار قصة موسى نموذجاً للتحليل أنها القصة الأكثر تردداً في القرآن، وأنها تتسجم مع تحليل الجدل القرآني بما يتضمنه من حوارات ومواقف جدلية.

فقد وردت الإشارة إلى قصة موسى - عليه السلام - في القرآن في سورٍ كثيرة عرضت جميع مراحل القصة وحلقاتها بدءاً من مرحلة ولادة موسى عليه السلام وإلقائه في البحر والتقاط آل فرعون له، ثم قتله المصريّ و خروجه من مصر إلى أرض مدين ثم العودة

وبداية مرحلة الدعوة وتبليغ الرسالة والصراع مع فرعون والانتصار عليه ثم قصته الطويلة مع قومه بني إسرائيل بدءاً من الخروج^(١).

وسنختار الحلقة التي تمثل مرحلة الرسالة والصراع مع فرعون، لما تتضمنه من سياقات

حوارية وجدلية.

وأول المشاهد التي نقف معها ذلك الذي يمثل البدء بمهام الرسالة التي كلف موسى -

عليه السلام - بتبليغها، ونعرض لذلك المشهد في أربعة نصوص:

• الأعراف: "ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ

كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ* وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ* حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَىٰ

اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ" [الأعراف: ١٠٣-١٠٥].

• طه: " فَأْتِيَاهُ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَدِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ

بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ أَسْبَغِ الْهُدَىٰ* إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَيَّ مِنْ كَذَّبٍ وَمَوْلَىٰ "

[طه: ٤٧-٤٨].

• الشعراء: " وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ* قَوْمٌ فِرْعَوْنُ أَلَّا يَتَّقُونَ* قَالَ رَبِّ

إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِي* وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ"

[الشعراء: ١٠-١٢].

(١) انظر: البقرة: ٥١-٩٢، ٢٤٦-٢٤٨. النساء: ١٥٣، ١٦٤. المائدة: ٢٠-٢٤. الأعراف: ١٠٣-١٦٠.

يونس: ٧٥-٩٣. هود: ٩٦-٩٨. إبراهيم: ٦-٨. الإسراء: ٢، ١٠١-١٠٣. الكهف: ٦٠-٨٢. طه: ٩-٩٨.

المؤمنين: ٤٥-٤٩. الفرقان: ٣٥-٣٦. الشعراء: ١٠-٦٨. النمل: ٧-١٤. القصص: ٣-٤٣. غافر: ٢٣-

٤٦. الزخرف: ٤٦-٥٦. الدخان: ١٧-٢١. الذاريات: ٣٨-٤٠.

"فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ".

[الشعراء: ١٦٦-١٧].

• الزخرف: "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ

[الزخرف: ٤٦].

الْعَالَمِينَ".

فإعلان الرسالة وبيان مصدرها ورد في كل مرة بشكل مختلف:

وقال موسى: يا فرعون إني رسول من رب العالمين.

فقولا: إنا رسولا ربك.

فقولا: إنا رسول رب العالمين.

فقال: إني رسول رب العالمين.

ويدخل في هذا المشهد إظهار موسى مخاوفه على الدعوة واحتياطه لها والاستجابة

من الله بنفي هذه المخاوف :

• طه: "قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْعَىٰ * قَالَ لَا مَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ

[طه: ٤٥-٤٦].

وَأَرَىٰ"

• الشعراء: "قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِي * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي

فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ * وَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِي * قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ"

[الشعراء: ١٢-١٥].

• القصص: "قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِي * وَأَخِي هَارُونُ هُوَ

أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِي * قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ

وَجَعَلُوكَ لَنَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنَا وَمَنْ أَتَّبَعُكُمَا الْعَالَمُونَ"

[القصص: ٣٣-٣٥].

أما المثال الأخير الذي اخترناه فيتمثل في التوبيعات السياقية في الرد على موسى -

عليه السلام- عندما كشف عن معجزتي العصا واليد في موقف المجادلة مع فرعون:

* " قَالَ إِنْ كُنتَ حِثَّ بِآيَةٍ فَآتِ بِهَا إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ *"

فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ *

وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاطِرِينَ *

قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ *

يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَأَمَّا تَأْمُرُونَ ؟ * " [الأعراف: ١٠٦-١١٠].

* " قَالَ أَوْلُو حِكِّكَ شَيْءٌ مُبِينٌ * قَالَ فَأَتَتْ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَتَتْ عَصَاهُ فَإِذَا

هِيَ تَعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاطِرِينَ * قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ

يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ؟ " [الشعراء: ٣٠-٣٥].

ففي السياق الأول يبادر فرعون بطلب البرهان، فيما يسأل موسى، في السياق الثاني، فرعون أن يتيح له الكشف عن برهانه. كما أن أتباع فرعون هم الذين يحاولون إثبات زيف برهان موسى وإدراجه في دائرة السحر، في السياق الأول، على حين يتوجه فرعون نفسه في السياق الثاني لتفنيد برهان موسى وتفسير معجزته بما عرف من علم السحر^(١).

إشكالية التنويحات السياقية في النص القصص القرآني: قراءة أخرى

لقد أشار المتقدمون إلى ظاهرة التكرار في القصة القرآنية وحاولوا تفسير الاختلاف باختلاف الأحوال بحيث يُذكر جديد في كل موضع تُعرض فيه القصة. ومع أهمية هذا التفسير فإنه لا يعالج بدقة المسألة التي نقاربها؛ إذ يصلح تفسيراً لتوزيع أجزاء الصورة الواحدة في مواضع مختلفة، فإذا جُمعت هذه النصوص اكتملت الصورة، ولعل من أوضح الأمثلة على هذا النوع من التحليل ورود تحول عصا موسى - عليه السلام - إلى ثعبان وحية وجان في سورٍ مختلفة^(٢). وكذلك ما ورد في خلق آدم من تراب ومن حمأ مسنون ومن طين لازب ومن صلصال كالفخار^(٣)، فهي مع اختلافها ودلالة كل منها على مرحلة مختلفة، ترجع جميعها إلى أصل التراب. وبذلك تدل كل واحدة في سياقها على شيء لا تدل عليه غيرها مع استحضار الصورة المتكاملة. ومهما يكن فلا يعد هذا النوع من الاختلافات السياقية، إذ أن الصورة ليست

(١) ذكر هذا المثال وليند منير في كتابه: النص القرآني من الجملة إلى العالم ووصفه بأنه اختلاف النص مع

ذاته، انظر: منير، ونيد، النص القرآني، من الجملة إلى العالم، ص ٤٢-٤٣.

(٢) انظر: الأعراف: ١٠٧. الشعراء: ٣٢. النمل: ١٠. طه: ٢٠.

(٣) انظر: الحجر: ٢٦، ٢٨، ٣٣. الصافات: ١١، ٧١. الأنعام: ١٢. الرحمن: ١٤. الحج: ٥. الروم: ٢٠.

غافر: ٦٧. آل عمران: ٥٩.

واحدة في كل مرة، يضاف إلى ذلك - بالنسبة لعصا موسى - عليه السلام - أن التعبير عنها بالحية - وقد ورد مرة واحدة فقط^(١)، يمكن أن يكون على الوصف لا الأسمية. أما الأهم من ذلك كله فإن هذه التتويجات السياقية لا تعبر في كل مرة عن المشهد ذاته؛ فوصف العصا بأنها شعبان مبين كان في مشهد المواجهة مع فرعون وحاشيته، أما وصفها بأنها اهترت كالجان فقد كان في مشهد آخر عندما كلمه الله في الوادي المقدس في طريق العودة من مدين إلى مصر، فضلاً عن أنها شبهت بالجان فلم يقل: فإذا هي جان" وقال: فلما رآها تهتر كأنها جان ولي مدبراً^(٢). وبهذا الفهم ينتفي إشكال الاختلاف.

أما الأمثلة التي اخترناها نماذج للتناص الداخلي في الخطاب القرآني وبخاصة في قصة موسى فإنها تحتاج منهجاً مبنياً على ظاهرة التكرار والمخالفة السياقية. وهي مسألة لا تفهم إلا من خلال فهم أوسع لظاهرة التكرار في الخطاب القرآني وبخاصة في قصصه وهو ما يمكن تسميته بالتكرار الفني.

لقد توقف العقل الديني أو الخطاب الديني في تفسير التكرار في القصص القرآني عند حدود الظاهرة، فعجز عن فهم أسرار وقوعها فيه، والسبب اعتماده في التعامل معها على أساس تاريخي، لا يتم الفهم إلا به، ولذلك ظهرت مؤلفات خاصة تضم - مثلاً - قصص الأنبياء تُقرأ لكل نبي قصة لها عنوان، وتُسرّد القصة على طريقة الرواة والمؤرخين. ومع أن مهمة المفسرين تتجلى في كشف الغموض وإزالة الإبهام فقد أدى الاعتماد على الثقافة التاريخية والإسرائيليات وعلى الفروض النظرية إلى متاهاتٍ أحياناً^(٣). وتأسيساً على ذلك وعلى ما تحصل لنا من قراءات حاول فيها الخطاب الديني التوصل إلى تفسير مقنع للتكرار في القصص القرآني

(١) طه: ٢٠.

(٢) الأنعام: ٧٦. والحجر: ٢٧.

(٣) يفصل الباحث محمد احمد خلف الله في هذه المسألة ويورد أمثلة على أثر الاعتماد على التاريخ والإسرائيليات في زيادة الغموض غموضاً كما في تناول كتب التفسير لقصة دخول إبليس الجنة ووسوسته لأدم، وكيف جعله يأكل من الشجرة فيخرج من الجنة. خلف الله، محمد أحمد، الفن القصصي في القرآن الكريم، سينا للنشر، ط٤، بيروت، ١٩٩٩، ص ٦٠-٦١.

نكاد نجزم بعجز هذا الخطاب الديني عن حلّ هذه الإشكالية لاعتماده المذهب التاريخي، وتعامله مع القصص القرآني بناءً على ما ورد في نصوص أخرى غير القرآن. وتمثلت الإشكالية الأساسية في عدم الاهتمام إلى رأي قاطع يفسر الاختلاف في عرض القصة الواحدة، من موطن لآخر. ولعل هذا العجز كان السبب في لجوء الكثيرين من المشتغلين بعلوم القرآن إلى عدّ القصص القرآني من الآيات المتشابهات^(١).

ويذهب الباحث محمد خلف الله، واتفق معه في مذهبه، إلى أن انشغال العقل الإسلامي بالثقافة التاريخية في تعامله مع القصص القرآني، قد ابتعد به عن التفسير المقنع لظاهرة التكرار ومن بعد الاختلاف، ولو أنه أقام فيهما للقصص القرآني على أساس فني أدبي يراعي فيه سياق القصة ومقصد النص لما وقف هذه الوقفة، ولعرف منذ البداية أن ما عدّ من التكرار ليس من التكرار في شيء، لأن المادة التاريخية في القصص غير مقصودة لذاتها، وأن اختلاف المقاصد من نص إلى آخر هو الذي يؤدي إلى اختلاف أسلوب العرض بما يناسب مقصد كل نص^(٢).

وتأسيساً على ذلك فإن القصة عندما تُعرض في أكثر من موطن فإنها لا تكون واحدة، بل هي في كل مرة قصة مستقلة، فمثلاً تختلف قصة موسى في الشعراء عن قصته في الأعراف أو قصته في طه، وهذا ينطبق على كل قصة وردت مكررة باختلاف. وأعود لأبني هنا أننا نتكلم عن القصة التي تمثل واقعة واحدة تصور بأشكال مختلفة ولا نقصد المشاهد التي تمثل مراحل مختلفة من القصة.

إن الابتعاد عن استقصاء المادة التاريخية، وعدم الاعتماد على الثقافة التاريخية أساساً لفهم ظاهرة التكرار والاختلاف في القصص القرآني، عاملان مهمان يكشفان سرّ هذه الظاهرة،

(١) انظر: خلف الله، الفن القصصي في القرآن، ص ٦٣ وانظر: الطبري، ج ٣، ١٠٣-١٠٧.

(٢) انظر: المرجع نفسه، ص ٦٢-٦٤، يشار هنا إلى إن الباحث محمود السيد حسن أشار إلى التكرار في قصة موسى، وذكر السور التي تضمنت حلقات القصة، وانتهى إلى القول بأنها من أشد القصص القرآنية تكراراً. وأن الحلقة التي تتكرر يكون معها شيء جديد بالذكر يتحتم وجوده ويتفق مع مجرى الأحداث. والظاهر أن الشيء الجديد الذي يقصده جديد بالنسبة لأحداث القصة، ... ومعنى ذلك أنه لم يلفت إلى التوحيات السبائية أو الأسلوبية. وقد اختلف النصوص بالمنهج التاريخي. انظر كتابه: الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية، مؤسسة شباب الجامعة، ط ١، الإسكندرية، ١٩٨١، ص ١٤٠-١٤١.

خاصة عندما ندرك الارتباط بين القصة ومحور النص، ونفهم وظيفتها في بناء النص (السورة)،
لندرك من بعد سر الاختلاف من نص إلى نص، بعيداً عن تأثير الدائرة التاريخية؛ فاختلاف
المقاصد يؤدي إلى اختلاف صور التعبير^(١)؛ وإذا اختلفت الصورة المعبرة عن موقف ما كانت
في كل مرة قصة مختلفة؛ وما دمنا نربط القصة بالنص الذي وردت فيه لا بالقصة في نص
آخر، ينفي الإشكال، لأنه لا يكون ثمة اختلاف أو تعارض.

لقد أراد القرآن أن يعلن انتفاء كونه كتاباً تاريخياً، ولذلك وجدنا فيه اسـتثماراً لتتويج
الأساليب والتعابير بما يناسب مقصد النص، وهذا ما سماه "خلف الله" ظواهر الحرية الفنية التي
منها تجاوز الخطاب القرآني بعض مقومات التاريخ أحياناً كتحديد الزمان والمكان مثلاً،
والانتقائية في اختيار الأحداث بما يتفق مع محور النص، والحرية في ترتيب الأحداث، وفي
إسناد أحداث أو أقوال بعينها إلى أشخاص مختلفين، أو في حكاية عبارات مختلفة تمثل موقفاً
واحداً أو نطق بها شخص معين بحيث تعرض العبارات التي قيلت في الموقف نفسه مختلفة في
النصوص المختلفة^(٢).

فالقرآن قد يعدّ الواحد أو يغيره في النصوص المختلفة، ويوحّد المتعدد أو المختلف في
النص الواحد، وهذا ما خرجنا به في تحليلنا سورة الشعراء. فالخطاب القرآني يركز اهتمامه

(١) انظر: خلف الله، الفن القصصي في القرآن، ص ٢٢٠.

(٢) من الأمثلة على الاختلاف في ترتيب الأحداث ما ورد في قصة لوط في حواره مع الملائكة، إذ اختلف
العرض في سورة الحجر - مثلاً - عنه في سورة هود.

انظر: هود ٧٧-٨٣، الحجر ٦١-٧٥.

أما إنطاق الشخص الواحد في الموقف الواحد بعبارات مختلفة في حال اختلاف النص من أمثله المثال الذي
قدمناه في قصة موسى عليه السلام، انظر: الأعراف ١٠٣-١٠٥. طه ٤٧-٤٨، الشعراء: ١٦-١٧،
الزخرف: ٤٦. وانظر: طه ٤٥-٤٦، الشعراء: ١٢-١٥، القصص: ٣٣-٣٥. فمن أمثله ما ورد في قصته
عليه السلام في مشهد التكليم في الوادي المقدس. انظر: النمل: ٨، القصص: ٣٠، طه ١١-١٢. وأما إسناد
بعض الأحداث أو الأقوال لأشخاص في نص ثم إسنادها لغيرهم في نص آخر فمثاله الذي أشرنا إليه في
قصة موسى - عليه السلام - في جداله مع فرعون وملئه، انظر: الأعراف: ١٠٩ والشعراء: ٣٤. وانظر
كلام خلف الله على هذه المسألة، الفن القصصي في القرآن، ص ٨١-٨٣.

على كل ما يسهم في انسجام النص وربطه ببورته وفي ضمان استمراره أو ثباته، وإن كان على حساب اختلاف النص مع ذاته من موطن إلى آخر.

ويمكن القول إن التعامل مع الخطاب القرآني - وبخاصة القصصي - من خلال الطوح الذي قدمناه دون الالتزام بتفصيلات الأخبار التاريخية الواردة في القصص، يصلح سلاحاً يواجه به القائلون بأن القرآن مليء بالأخطاء التاريخية، وأنه متناقض مع ذاته، سواء من المستشرقين أو من هرول إليهم من العرب الذين لا يتصورون العلمية والموضوعية وتحرير العقل إلاّ التشكيك بالقرآن والتقليل من شأنه ونفي أعجازه، وهم أبعد ما يكونون عن إدراك إعجازه، بل إن قولهم لم يقله أعداء القرآن الأوائل الذين أدركوا إعجاز النص، فلجأوا إلى ربطه بالنصوص المعجزة السائدة في ثقافتهم من الشعر والسحر والكيانة التي كانوا يعتقدون بأن قوة خفية فوق قوة البشر وراءها، وذلك - في رأيي - إيمانٌ منهم بإعجازية القرآن.

لقد سلك متيمو القرآن بالتناقض مع نفسه ومع حقائق التاريخ الطريق الخطأ في دراسة الخطاب القصصي القرآني، إذ درسوه كما تدرس الوثائق التاريخية لا كما تدرس النصوص الأدبية أو البليغة^(١) وعرضوا مادته التاريخية على أصول لديهم، فكان كثيراً ما يختلف معها، وقارنوه بنفسه فوجدوه - كما أرادوا - متناقضاً؛ كل ذلك ليفتحوا باباً يلجون منه إلى النيل من القرآن، ومن بعد من الإسلام. ولذلك كانت النتائج المرسومة في أذهانهم قبلاً مبنية على أن القصص القرآني غير متسق مع حقائق التاريخ ولا ينسجم مع نفسه، وبذلك لا يصلح أن يكون نصاً من عند الله، لأن الله لا يخطئ. وتأسيساً على ذلك قادتهم عبقريتهم إلى الاستنتاج أن

(١) انظر: خلف الله . الفن القصصي في القرآن ، ص ٣٦.

وانظر: حسين، محمد الخضر، بلاغة القرآن، المطبعة التعاونية دمشق، ١٩٧١، ص ١٠٤. وثمة باحث شديد على أن القرآن يمثل مواقع التاريخي في القصص بدقة، وأن عناصر القصة توظف دائماً لتمثل شخصية كل متحاور أو نفسيته بدقة. وهذا الرأي لا يمكن أن يقدم شيئاً في مقاربة الإشكالية التي تناقشها. انظر: زكريا، عبد المرضي، الحوار ورسم الشخصية في القصص القرآني، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٩٩٧، ص ١٠٦-١٠٧.

محمداً يأتي بالقرآن من عنده، ولما لم يكن عالماً بالتاريخ، تضمن قرآنه أخطاء تاريخية وتناقض مع نفسه.

لقد عجز هؤلاء عن فهم أسلوب الخطاب القرآني وطريقته في بناء القصة وتركيبها والوحدة التي يقوم عليها من البناء والتركيب، ولم يدركوا السر في إغفال القرآن الكثيرون من الحقائق التاريخية ومقوماتها، ولم تهدم عبقريتهم إلى فيم أن القرآن يقصد قصداً إلى المخالفة في القصة الواحدة إن وردت في نصوص مختلفة، فهو لا يُعنى بالحقيقة التاريخية إلا بالقدر الذي يشكل أساس كل قصة، والمعالم الأساسية التي لا تتغير، لكنه معني أكثر بالمقاصد الحقيقية للقصص التي تتسجم مع بؤرة النص وتسهم في بناء وحدته.

خلاصة:

- تعد الدراسة ممارسة نصية تطبيقية ميدانها خطاب الجدل القرآني، حاولنا فيها استثمار مفاهيم علم النص وتحليل الخطاب وعلاقات التماسك النصي ومعايير النصية (أهمها الاتساق والانسجام)، في تحليل النص القرآني، ويمكن تلخيص أهم ما تضمنته الدراسة في النقاط التالية:
١. النص نسيج لغوي يمثل وحدة دلالية تؤدي وظيفة في سياق تواصلية.
 ٢. ثمة معايير مهمة بها - أو ببعضها - تتحقق نصية النص هي: الاتساق والانسجام والقصدية والمقبولية والمقامية والتناص والإعلامية. وتتضمن هذه المعايير مراعاة الناص والمتلقي والسياق والنواحي الشكلية والدلالية المرافقة لإنتاج النص.
 ٣. يسعى نحو النص إلى صياغة مبادئ تحكم تماسك النص، ويراعي - بجانب القواعد التركيبية في تحليل النص ودراسة تماسكه - أسساً دلالية ومنطقية؛ فهو بشكل عام منسج يسعى للتعامل مع النص بوصفه الوحدة اللغوية الكبرى، بدراسة جوانب عدة فيه، أهمها: التماسك بأشكاله وأدواته المختلفة، والسياق النصي، ودور أطراف الحدث التواصلية في النص، فهو يهتم بالمستويين الدلالي والتداولي (البراغماتي) للخطاب.
 ٤. يمثل نحو النص منهجاً جديداً للتعامل مع النص تجاوز حدود نحو الجملة الذي يرى الجملة أكبر وحدة لغوية يطمح إلى تحليلها. ويمثل خضوع النحو التقليدي لفكرة نحو الجملة سمة عامة في كل اللغات، ولم يظهر نحو النص إلا في النصف الثاني من القرن الماضي. غير أن الدعوة إلى التوجه إلى نحو النص لا تحمل أية تهمة توجه إلى التراث النحوي، وإنما هو منهج آخر يحاول الخروج بالنحو التقليدي من أزمنة المقيدة، ويمدنا بعلاقات تسعفنا في التعامل مع النص إنتاجاً وفهماً وتحليلاً، تخرج عن طاقة نحو الجملة.

٥. ثمة اتفاق بين علماء النص على الوسائل التي تسهم في اتساق النص لا بد أن تشمل ما يلي:
- الربط التركيبي، والإحالة بأنواعها، والعلاقات المعجمية بين العناصر اللغوية، واختزال الخطاب الذي يتم بالاستبدال أو الحذف . غير أن توافر هذه العناصر مجتمعة في نص لا يكفي للحكم عليه بالانسجام ، إذ لا بُدَّ أن تستجيب هذه العلاقات لشروط أهمها: صحة الترتيب الزمني في النص والتعلق المنطقي بين الأحداث أو ما سمي بتعلق العوالم الممكنة.
٦. يمكن استثمار علاقات الاتساق للحكم على كفاءة النص وقوته، إذ يمكن تعريف الكفاءة النصية بأنها صياغة أكبر كمية من المعلومات بإنفاق أقل قدر من وسائل التعبير، وهذا ما يمكن تحقيقه وفق قانوني الثبات والاقتصاد في التعامل مع البنية السطحية للنص.
٧. يختلف مفهوم انسجام الخطاب عن الاتساق بأن الأول يتحقق في المستوى الدلالي والبراغماتي للنص، بينما الاتساق متحقق في المستوى النحوي . وبشكل عام يعرف الانسجام بأنه الاستمرارية الدلالية التي تتجلى في منظومة المفاهيم والعلاقات الرابطة بينها، بحيث تعني الاستمرارية الدلالية وجود سلسلة من الجمل تسهم في تطوير الفكرة الرئيسية، وترتبط فيما بينها بعلاقات دلالية، بحيث يظهر النص وحدة دلالية أو كلاً موحداً.
٨. تركز اهتمام الباحثين الغربيين في دراسة انسجام النص على الوسائل اللغوية التي يبني بها هذا الانسجام . وهم ينطلقون من افتراض الانسجام في النص، بمعنى أنهم يدرسونه كشيء معطى في النص. وبتتبع أهم الدراسات الغربية في مجال لسانيات النص ظهر لنا تركيزها على الجانب النظري والاكتفاء في الجانب التطبيقي بالتعامل مع نصوص بسيطة وقصيرة (نسبياً) غالباً ما تكون مصنوعة أو مقتطعة من سياقاتها ، فضلاً عن تركيزها على نوعين من النصوص: التخاطبية والسردية، ما أدى إلى عدم إمكانية تعميم النتائج التي توصلوا إليها في تحليل النصوص الأدبية الطويلة (نسبياً).

٩. تباينت آراء علماء النص الغربيين في الاهتمام بدور المتلقي في بناء انسجام النص، ما جعل الحكم على انسجام النص أمراً نسبياً من جهة مراعاة المتلقي.
١٠. تتجاوز الإشكالية في النحو العربية كونه نحو جملة إلى عدم إحساس - عند كثيرين - بالحاجة إلى التحليل النحوي للنصوص، وبذلك يبقى النحو العربي التقليدي في أزمته المقيدة التي تعيق دوره في دراسة النصوص، وتبقى مرتبطة بغاية ضئيلة لا تليق بثرائه حصوت وظيفته في دائرة: "قل ولا تقل".
١١. لم تحل مراعاة السياق والمقام والمستوى التداولي في الدراسات النحوية (العربية) أكثر من حيز هامشي، لكن هذه المساحة الضيقة تشعر بإدراك المتقدمين للجوانب الاتصالية وأهمية السياق والمقام في صياغة مبادئ النحو، وساهمت ملاحظ النحويين في تشكيل علم المعاني الذي يمثل اجتماع تيارَي البحث النحوي والبحث البلاغي.
١٢. يصلح علم المعاني (أو النحو المقامي) مثلاً مهماً على تلاقي الجهود النحوية والبلاغية في صياغة مبادئ منهجية للتعامل مع النص تتجاوز القواعد النحوية لتدرس النص من خلال ربطه بالسياق والمقام ومستواه البراغماتي. ويمثل عبد القاهر الجرجاني نموذجاً مهماً يكشف عن وعي دقيق بعلم النص وتحليل الخطاب - بمفهومه المعاصر - خاصة في كتابه دلائل الإعجاز الذي ينظر فيه إلى القرآن نصاً واحداً متماسكاً تؤلفه نصوص متماسكة فيما بينها؛ فقد حاول أن يؤسس مبادئ نحوية للتحليل النصي، ليسهل من بعد التعامل مع النص القرآني، واستعار لصياغة هذه المبادئ أدوات من مباحث لغوية متعددة جمعها في إطار واحد خدمة لعلم النص الذي لا يؤمن - كما الجرجاني - بالفصل بين المناهج التي تتعاضى مع النص.

١٣. تضمنت جهود المفسرين إشارات مهمة تصلح أن تعد أساسا مهما لصياغة إطار لنحو عربي للنص، خاصة جهودهم في ربط الآيات والسور.
١٤. تقوم الأشكال النصية للجدل القرآني على أساس البنية الحوارية بين أطراف يمثلون المرجعية الخارجية للمقولات اللغوية التي تكون النص.
١٥. تسهم دراسة التماسكات النصية في الخطاب القرآني في كشف علاقات مقنعة بين مقاطع النص للوصول إلى فهم منسجم للنص، فضلا عن تبين كيفية استثمار النص القرآني الدقيق لقوانين التماسك النصي للظهور نصا واحدا متماسكا ومتميزا.
١٦. تمثل السورة الواحدة في القرآن نسيجاً لغوياً محكماً، أو وحدة دلالية منسجمة تتصل فيها أجزاء النص، الذي يمثله هنا المقطع، فيما بينها، ويتماسك كل مقطع بما يجاوره بخيوط محكمة تذهب وتجيء لترتبط ببؤرة النص أو نقطة انطلاقه؛ فالنص بذلك دوائر متصلة متقاطعة تدور في فلك دقيق منتظم حول محور النص الذي يختزل مقصد النص.
١٧. ثمة مظهر مهم لانسجام الخطاب عمودياً - خلافاً لوسائل الربط النحوي - هو علاقة التوازي التي تسهم في جعل الخطاب منسجماً مترابطاً من خلال استمرار بنية شكلية فسي جمل نصية متعددة.
١٨. يحتاج فهم القصص القرآني - من وجهة نظر الباحث - قراءة جديدة لا تقوم على تتبع المادة التاريخية واستقصائها، وإنما يجب الانطلاق من النص ذاته وتتبع جميع علاقات التماسك النصي داخله من خلال ارتباطها ببؤرة النص أو مقصده الأساسي. وبذلك نحل جانباً من إشكالية التكرار في القصة القرآنية وفهم سر عرض الواقعة الواحدة أو الموقف الواحد بأشكال لغوية مختلفة عندما ترد في نصوص مختلفة، بينما تكاد القصص المختلفة تتطابق إن ضمها نص واحد.

أهم المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- أعراب ، حبيب ، الحجاج والاستدلال الحجاجي ، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، المجلد (٣٠)، العدد (١)، ٢٠٠١.
- الألمعي ، زاهر بن عواض ،مناهج الجدل في القرآن الكريم ، ط٢، ١٤٠٠هـ.
- بحيري ، سعيد ، علم لغة النص - المفاهيم والاتجاهات ، مكتبة لبنان- ناشورن، ط١، بيروت، ١٩٩٧.
- بصل، محمد إسماعيل ، نحو رؤية لسانية لوضع المصطلح، مجلة المعرفة، وزارة الثقافة، الجمهورية السورية، العدد (٣٧٨)، نيسان، ١٩٩٥.
- البقاعي ، برهان الدين أبو الحسن ، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٩٥.
- الجابي ، سليم ، فن الاختزال في القرآن الكريم، دمشق، ط١، ١٩٩٤.
- الجرجاني ، عبد القاهر:
- أ. دلائل الإعجاز، قراءة وتعليق: محمود محمد شانكر، مطبعة المدني، ط٣، القاهرة، ١٩٩٢.
- ب. دلائل الإعجاز، شرح وتعليق: محمد أنتجي، دار الكتاب العربي، ط١، ١٩٩٥.
- ج. المقتصد في شرح الإيضاح، تحقيق: كاظم بحر المرجان، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، العراق، ١٩٨٢.

- الجطلاوي، الهادي ، قضايا اللغة في كتب التفسير، كلية الآداب، سوسة ، ط١، تونس، ١٩٩٨.
- ابن جنّي ، أبو الفتح عثمان ، الخصائص ، تحقيق: محمد علي النجار، دار الهمداني للطباعة والنشر، بيروت، ط٢.
- حسان ، تمام ، البيان في روائع القرآن ، عالم الكتب، ط١، القاهرة، ١٩٩٣.
- حسن ، عثمان علي ، منهج الجدول والمناظرة ، دار إشبيلية للنشر والتوزيع، ط١، الرياض، ١٩٩٩.
- حسين ، عبد القادر، أثر النحاة في البحث البلاغي ، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٨.
- حسين ، محمد الخضر، بلاغة القرآن ، المطبعة التعاونية، دمشق، ١٩٧١.
- حنفي ، حسن ، تحليل الخطاب، مقالة في الكتاب الصادر عن جامعة فيلادلفيا، مؤتمر: تحليل الخطاب العربي، المؤتمر العلمي الثالث (أيار، ١٩٩٧)، عمان، ١٩٩٨.
- الخطابي، محمد، لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، ط١، بيروت، ١٩٩١.
- خلف الله، محمد أحمد:
- أ. الفن القصصي في القرآن الكريم ، سينا للنشر، ومؤسسة الانتشار العربي، ط١، بيروت، ١٩٩٩.
- ب. مفاهيم قرآنية ، كتاب عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٤.

- خليل ، إبراهيم ، الأسلوبية ونظرية النص ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٧ .
- خليل ، خليل أحمد ، جدلية القرآن ، دار الفكر اللبناني ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٤ .
- الدرويش ، محيي الدين ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، اليمامة للطباعة والنشر ، ط٥ ، دمشق ، ١٩٩٦ .
- الرازي ، الفخر ، التفسير الكبير ، دار إحياء التراث العربي ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٥ .
- الزركشي ، بدر الدين محمد بن عبد الله ، البرهان في علوم القرآن ، قتم له وعلق عليه : مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، بيروت ، ١٩٨٨ .
- زكريا ، عبد المرضى ، الحوار ورسم الشخصية في القصص القرآني ، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة ، ١٩٩٧ .
- الزمخشري ، أبو القاسم جار الله ، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، ضبط وتصحيح : محمد عبد السلام شاهين ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٥ .
- الزناد ، الأزهر ، نسيج النص ، المركز الثقافي العربي ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٣ .
- أبو زيد ، نصر حامد ، مفهوم النص : دراسة في علوم القرآن ، المركز الثقافي العربي ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٠ .
- السكاكي ، محمد بن علي ، مفتاح العلوم ، ضبط وتعليق : نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، بيروت ، ١٩٨٣ .
- سيبويه ، عمرو بن عثمان بن قنبر ، الكتاب ، تحقيق : عبد السلام هارون ، طبعة دار الجيل ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩١ .

- السيوطي، جلال الدين، الإتيقان في علوم القرآن ، تحقيق: عصام فارس الحرستاني، دار الجيل، ط١، بيروت، ١٩٩٨.
- الشايب، فوزي ، محاضرات في اللسانيات ، وزارة الثقافة الأردنية، ط١، عمان ، ١٩٩٩.
- الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، تقريب وتهذيب: صلاح الخالدي، دار القلم، ط١، دمشق، ١٩٩٧.
- عباس ، فضل حسن ، إعجاز القرآن ، منشورات جامعة القدس المفتوحة، ط٢، عمان، ١٩٩٧.
- عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت.
- عبد المطلب ، محمد ، البلاغة العربية – قراءة أخرى ، مكتبة لبنان – ناشرون، ط١، بيروت، ١٩٩٧.
- العجمي، فالح، "الربط الذرعي في النص العربي"، مجلة أبحاث اليرموك، سلسلة الآداب واللغويات، مج١٢، ع١٤، جامعة اليرموك، اربد – الأردن، ١٩٩٤.
- أبو العدوس ، يوسف ، الاستعارة في النقد الأدبي الحديث ، الأبعاد المعرفية والجمالية، الأهلية للنشر، ط١، عمان، ١٩٩٧.
- عمر، أحمد مختار، (وآخرون)، المكنز الكبير: معجم لغوي مهني متخصص للمترادفات ، إصدار مؤسسة التراث، ط١، الرياض، ٢٠٠٠.
- ابن فارس ، أحمد ، مقاييس اللغة ، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٩٧٩.

- فضل ، صلاح ، بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عالم المعرفة، ع ١٦٤، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٠.
- الفقي ، صبحي إبراهيم ، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق ، دار قباء للنشر، ط١، القاهرة، ٢٠٠٠.
- الفهري ، عبد القادر الفاسي ، المصطلح اللساني ، أشغال الملتقى الدولي الثالث في اللسانيات، تونس، ١٩٨٦.
- الكفوي ، أبو البقاء ، الكليات ، تنظيم عدنان درويش ومحمد المصري ، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت، ١٩٩٢.
- مصطفى ، محمود السيد حسن، الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية، مؤسسة شباب الجامعة، ط١، الإسكندرية، ١٩٨١.
- مصلوح ، سعد ، "العربية: من نحو الجملة إلى نحو النص" ، مقالة في الكتاب التذكاري المهدى إلى الأستاذ عبد السلام هارون في ذكراه الثانية، جامعة الكويت - كلية الآداب، الكويت، ١٩٨٩-١٩٩٠.
- ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب ، دار المعارف، مصر.
- منير، وليد ، النص القرآني من الجملة إلى العالم ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، القاهرة، ١٩٩٧.
- الموسى ، نجاد ، نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث ، دار البشير، ط٢ ، عمان ، ١٩٨٧ .
- ابن هشام الأنصاري، جمال الدين:

أ. أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، دار إحياء العلوم، ط٢، بيروت، ١٩٨٥.

ب. مغني اللبيب عن كتب الأعراب، تحقيق: بركات يوسف هبّود، دار الأرقم، ط١، بيروت، ١٩٩٩.

• الوعر، مازن ، "قضايا لسانية/إشكاليات التداخل"، مجلة المعرفة، وزارة الثقافة، الجمهورية العربية السورية، ع ٣٧٩، نيسان، ١٩٩٥.

• ابن يعيش النحوي ، شرح المفصل ، إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة، مصر.

• يعقوب ، إميل ، وبركة وشيخاني ، قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية ، دارالعلم للملّين، ط١، بيروت، ١٩٨٧.

• يقطين ، سعيد، انفتاح النص الروائي ، المركز الثقافي العربي، ط ، بيروت، ١٩٨٨.

المراجع المترجمة:

• بارت ، رولان ، "نظرية النص"، من كتاب: دراسات في النص والتناصية، ترجمة: محمد خير البقاعي، مركز الإنماء الحضاري، ط١، حلب، ١٩٩٨.

• دي بوجراند ، روبرت ، النص والخطاب والإجراء ، ترجمة: تمام حسان، عالم الكتب، ط١، القاهرة، ١٩٩٨.

• كريستيفا ، جوليا ، علم النص ، ترجمة: فريد الزاهي ، دار توبقال للنشر ، ط١، المغرب ، ١٩٩١ .

• لاينز، جون ، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة: عباس صادق الوهاب، أفاق عربية، ط١، بغداد، ١٩٨٧.

• ياكسون ، رومان ، قضايا الشعرية، ترجمة: محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال للنشر، ط١، المغرب، ١٩٨٨.

المراجع الأجنبية (غير المترجمة)

- Bhatia, Vijay K. : *Language use in Professional Settings, Analysing Genre*. Longman Group, UK limited, 1993.
- Brown and Yule, G.: *Discourse Analysis*, Cambridge University Press, 1983.
- Crystal, David: *The Cambridge Encyclopedia of Language*, Cambridge University Press, 1996.
- Johnson, Keith and Helen: *Encyclopedia Dictionary of Applied Linguistics*, Blackwell Publishers, 1st Published, Oxford, UK, 1998.
- Nerlich, Brigitte and Clark, David: "Language, Action and Context, Linguistic Pragmatic in Europe and America (1800-1950)", *Journal of Pragmatics*, Amsterdam, Vol. 22, 1994.
- Thomas, Jenny: *Meaning in Interaction, An Introduction to Pragmatics*, Longman, 1995.

Abstract

A Discursive Analysis of Qur'anic Argumentation

“A study of Text Linguistics “

By: Ahmad Abu-Dalu

Ph.D, Arabic Language, Applied linguistics,

Yarmouk University, 2002

Supervisor: Prof. Yousef Abuludous

This study offers a pragmatic framework for reexamining the Qur'an. This framework views the text as quite flexible and open to a variety of interpretations investigating the layers of meaning within the text.

This research assumes that Qur'anic texture consists of a cohesive, well-built structure, consisting of the core of the passage and the surrounding commentary, which work in perfect symmetry with one another and with maximum compatibility within the framework of the text as a whole. Thus, the aim of this study is both to reaffirm the balance of Qur'anic texture and to gain a fuller comprehension of the rules, bases, and relations that add to this symmetry and compatibility. Furthermore, this work utilizes innovative textual linguistic theory, incorporating modern linguistic science in its textual analysis.

Likewise, the study tackles the transition from sentence grammar to text grammar in linguistic research, removing the limitation of the “say/don't say “ standard of classical grammatical norms. I assert in my

research the need for a new pattern of textual and discursive analysis that harmonizes with the essence of socio-linguistic theory. In other words, this work employs both the communicative and demonstrative dimensions of the text as well as a study of the syntactic dimensions.

In this work, I investigate the essential principles of contemporary textual linguistics. Accordingly, the research utilizes the rules of text grammar as well as the relations and tools of textual cohesion that unveil the mechanisms of textual compatibility, structure and unity. Moreover, this work engages the linguistic traditions of the past as a means of creating a framework for the linguistic study of Arabic texts in the present. Specifically, it searches for the linguistic treasures within historical works.

The most important issue of this study exemplifies the pragmatic practices of the text, which in turn shed light on the principles of textual cohesion and the multiplicity of relations embedded in these portions of Qur'anic arguments. Furthermore, I examine one *sura* from the Qur'an in its entirety (*surat al-shu'ara'*) in order to demonstrate the comprehensive linguistic patterns represented throughout the Qur'anic text as a whole.

This study presents a means of analyzing Qur'anic text concentrating on its diversity of narrative and allegorical iterations and reiterations. By doing so, it provides an integrated reading of the text without succumbing to a strictly historicist methodology. This technique allows readers to immerse themselves in the linguistic richness of the text in an innovative and flexible manner.